المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية وآدابها
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب

المائيات في الشعر الأندلسي
عصر ملوك الطوائف

بحث مقدم لإكمال متطلبات درجة الماجستير

إعداد الطالب

محمد بن عمر بن صالح الجديعي

٤٣٣٨٠٢٢٠

إشراف الدكتور

إبراهيم بن موسى بن حاسر السهلي

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

ملخص الرسالة

أُعدت هذه الرسالة لنيل درجة الماجستير من جامعة أم القرى، بعنوان (المائيات في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف)، وقد جاءت هذه الدراسة في فصلين اشتملت على عدة مباحث .

الفصل الأول :المائيات والطبيعة ،وينقسم هذا الفصل إلى مبحثين :

المبحث الأول:

- المائيات الطبيعية الأرضية، وتشتمل على عدة عناصر من الطبيعة: كالبحر، والنهر، والسيل،والجدول .
- المائيات الطبيعية العلوية،وقد تناول هذا القسم من البحث: البرد،والثلج، والسحاب،والمطر .

المبحث الثاني: جال هذا المبحث في المائيات الصناعية: البرك، والنوافر، والسفن والزوارق، والأشرعة، والرحلات النهرية .

الفصل الثاني :جاء هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: مفهوم الصورة.
- المبحث الثاني:مصادر الصورة وتشكيلاها.
- المبحث الثالث:أنواع الصورة في شعر المائيات.

وقد احتوت هذه الدراسة على نماذج عديدة لشعراء تلك الحقبة استقصيت فيها الأبيات الشعرية ذات العلاقة بالمائيات،ثم تناولتها بالشرح والتحليل،سرت فيها حسب التسلسل التاريخي، مبيناً في بعضها مواطن تأثر شعراء الأندلس بالمشارقة، ومواطن التجديد، وقد أشرت في أثناء التحليل والمناقشة لهذه الأبيات للعديد من القضايا،ولم تكن دراستي لأي عنصر من عناصر المائيات كونه من مصدر المياه أو كمادة أساسية من المائيات فحسب، فقد تجاوزت ذلك وجعلت من مصادر المياه مادة الصورة الأساسية في بعض التشبيهات، إذا أفدنا منها في جعلها المشبه به لا المشبه، بحيث تصبح عناصر المائيات مكون من مكونات الصورة عند الشعراء.

وختمت هذه الدراسة بخاتمة اشتملت على جملة من النتائج والتوصيات

الباحث	المشرف
محمد بن عمر الجديعي	إبراهيم بن موسى السهلي

Thesis Abstract

This Thesis Research was conducted for the Master degree to be earned from University of Um Al-Qura, with the title of "Hydrology in Alandalus Poetry in the Era of Taifas," and this research came in two sections involving several studies.

The first section addresses Waters and Nature, and is divided in two studies:

Study 1:

- Earthly Nature of Hydrology, which includes many elements of nature such as sea, river, torrent, and stream.
- Unearthly Nature of Hydrology, which includes several components like hail, snow, clouds, and rain.

Study 2:

It addresses the Industrial Hydrology such as pools, fountains, ships, boats, sails, and river trips.

The second section indicates three studies:

- Study 1: The concept of the Image.
- Study 2: The sources and formations of the Image.
- Study 3: Kinds of the Image in the light of Poetry of Hydrology.

This Thesis stated some examples of Poets in that era which poetry verses related to Hydrology have been investigated, explained, and then analyzed chronologically, in additions to how that Era Poets have been influenced by Easterners and renewal places. During the thorough analysis and discussion of these poetry verses, lots of issues were addressed figuratively in metaphoric studies and not as just aspects of nature, so these Hydrous aspects would be the Image components according to Poets. To sum up, this thesis research indicates some results and recommendations for further research.

Researcher:	Supervisor:
Mohammed Omer Aljudaiey	Ibrahim Musa Alsehli

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾

{ سورة الأنبياء الآية: ٣٠}

شكر وعرفان

وإني اذ اقدم هذا البحث فإني أحمد الله العلي القدير وأشكره بما هو أهل إذ وفقني في انجاز هذا العمل وما كنت لأنجزه لولا توفيقه سبحانه

وانطلاقاً من قول الرسول ﷺ (لايشكر الله من لايشكر الناس).فأثني بشكري لوالدتي الكريمة فلها الفضل بعد الله عز وجل في كل أمرٍ حالفني فيه النجاح بدعائها لي وشدهما من أزري .

واعترافاً بفضل ذوي الفضل فإني أتقدم بجزيل الشكر لجامعة أم القرى التي هيئت لطلاب العلم استكمال حلقات تعليمهم عبر قنواتها ومؤسساتها العلمية في شتى الفنون والتخصصات الدنيا والعليا، كما أتقدم بخالص الشكر لكلية اللغة العربية ممثلةً في عميدها المفضال الأستاذ الدكتور: عبدالله بن ناصر القرني، وسعادة وكيل الكلية للدراسات العليا والبحث العلمي الدكتور: عبدالله المسلمي، والشكر والإمتنان موصول الى رئيس قسم الدراسات العليا العربية الدكتور ابراهيم الغامدي.

وأدين بعظيم الفضل والشكر والعرفان لأستاذي الدكتور: إبراهيم بن موسى السهلي الذي رعى البحث بملحوظاته القيمة، واقتراحاته السديدة، وماقدمه لي من نصح واهتمام، وقد أثرى بحثي بمراجعه الأندلسية القيمة التي امدني بها ومكنني من الاطلاع على مكتبته فكان لذلك عظيم الأثر على مباحث الرسالة.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أزجي جزيل الشكر والإمتنان لأستاذيّ الجليلين عضوي لجنة المناقشة ،الأستاذ الدكتور: مصطفى حسين عناية ،والأستاذ الدكتور: ابراهيم البعول على حسن ظنهما بمن أدان بالتلمذة لهما ونهل من علمهما الغزير خلال السنةالمنهجية وها أنا اليوم أسعد مرة أخرى بشرف مناقشتهما لبحثي وبما بذلوه من جهد في تقييمه وأرجو أن أكون أهلاً لتلقي ملحوظتهما القيمة التي ستكون محل اهتمامي وعنايتي الخاصة في بحثي هذا وفي قابل أيامي.

والشكر موصول أيضاً الى أستاذي الجليل الأستاذ الدكتور / عبد الله بن إبراهيم الزهراني ، الذي ساعدني على اختيار الموضوع عندما أسند إرشادي لسعادته فكان له الفضل بعد الله في وضع اللبنات الأولى لهذه الدراسة وحسن تسديدها حتى حظيت بالقبول في قسم الدراسات العليا.

فجزا الله الجميع عني خير الجزاء .كما لا يفوتني أن أشكر جامعتي جامعة حائل التي مكنتني من الابتعاث والقائمين عليها ممثلة في معالي مديرها، وسعادة عميد الكلية، وسعادة رئيس قسم اللغة العربية بها، وكل من مد لي يد العون في تيسيير بعثتي هذه .

وأخيراً، أسال الله أن أكون قد وفقت في عملي هذا واستطعت أن ألم بعناصره المختلفة في شعرنا العربي في الأندلس ،فهو جهد المقل الذي حاول ألا يألو جهداً في جمع وترتيب مادته العلمية وتقديمها في ضوء مناهج البحث العلمي المتبعة وحسبي أني أسهمت بهذاالعمل المتواضع ليكون حلقة من حلقات الدرس الأدبي في بلادنا الغالية فإن أصبت،فهو توفيق من الله،وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان .

والله أسأل أن يوفقني لما يحبه ويرضاه

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

المقدمة

تمهيد

أهمية البحث

أهداف البحث

مشكلات البحث

الدراسات السابقة

منهج البحث

خطـــــة البحث

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على قائد الغر المحجلين، نبينا وحبيبنا محمد عليه أفضل الصلاة، وأتم التسليم. .. أما بعد :

فإننا إذا أمعنا النظر في دواوين الشعراء؛ لوجدنا أن الشاعر- كما قال النقاد- (ابن بيئته). ونجد أن الشعر الأندلسي كان صدىً للبيئة الطبيعية، ومرآةً عاكسةً لجمالها، لذلك تعد الطبيعة في الشعر الأندلسي هي الملهم الأول والأكبر للشعراء في الأندلس؛ لما فضلت به عن غيرها، فقد وهب اللهُ- تبارك وتعالى- لها تربةً خصبة، وأنهاراً غزيرة، وجداول متناثرة على بطاحها، وأدواحاً ملتفة على بعضها بأشجارها الباسقة، وثمارها اليانعة، وطيورها المغردة، فاكتست أرضها بردةً خضراء، مطرزة بشتى ألوان الزهور والرياحين، وقد احتلت المائيات الجزء الأوفر من تلك الطبيعة، فلا نكاد نجد شاعراً أندلسياً إلا وقد قال في المائيات، وتغنى بها، ولا غرو في ذلك، فالمسافر في بلاد الأندلس لا يحتاج إلى أن يحمل الماء معه من كثرة الأنهر التي يمر بها، والسواقي التي يستقي منها، وإذا نظرنا إلى بلاد الأندلس وجدنا الماء يحدها من ثلاث جهات، فهي على اتصالٍ بالعالم الخارجي من خلال البحار.

وتتبختر الطبيعة الأندلسية بكثرة الأنهار، والأودية، والجداول الرافدة للأنهار، فهي تمر عبر الأرض الموات لتحييها، وتجعلها رياضاً خضراء، حتى أنه قد بُنيت العديد من المدن على ضفاف الأنهار، مثل: قرطبة، وأشبيلية، وغرناطة، وطليطلة، وسرقسطة، فهي شريان الحياة لتلك المدن، فمنها يشربون، ومن مائها يستقون.

حتى دخلت عليهم مظاهر البذخ في حياتهم اليوميه، فاستغلوا الطبيعة لتزيين مدنهم، فجعلوا الأنهار تدخل إلى قصورهم الفارهة، واتخذوا من ضفاف الأنهار مجالسَ أنسٍ، يتسامرون على جوانبها، ويطربون على هدير أمواجها، وتفننوا في تزيين الماء، فصنعوا النوافير بأشكال عجيبة، تمج الماء من أفواه التماثيل، لترفد بمائها تلك البرك الفخمة، فهذه المناظر وغيرها توقد مشاعر

الشعراء، وتحرك خيالهم، وتلامس أفكارهم، وتداعب قرائحهم، ليقولوا شعراً.

ولم تكن الطبيعة التي يتنعمون بجمالها، ولا حياة الترف التي كانوا يعيشونها هي الدافع للأدب، وإنما وجود أمة حساسة، وقوم متذوقين لمعنى الجمال، وملوك أدباء يتذوقون الشعر، ويقرضونه ويجزلون الأعطيات، نهض بالأدب إلى الرقي والتقدم، فلا نصب كامل إبداعهم في قالب الطبيعة وحدها، ونجعل سبب إبداعهم الطبيعة، وإنما هم شعراءُ مبدعون، يتأملون الحياة، ويتذوقون الجمال، فهم قادرون على مزج الواقع بالخيال الخصب، والخروج منه بصورةٍ جميلة، قادرةٍ على رسم ملامح الحياة الأندلسية، ومعبرةٍ عن الواقع.

ولقد اهتم أهل الأندلس بتيسير سبل الحركة والنقل، وتسهيل الطرق الوعرة، والشعاب الصعبة، فبنوا العديد من القناطر ، وأبدعوا في تزيينها، فمن ذلك بناؤهم قنطرة على نهر قرطبة، وقنطرة على نهر إستجه.

كما جعلوا لهم سباقات نهرية، يستخدمون بها الزوارق السريعة، يبسطون أشرعتها فتدفعها الرياح، وعند سكون الريح يستعينون بالمجاذيف؛ لتزيد من سرعتها، ولم ينس شعراء الأندلس ذكر أساطيلهم الحربية بألوانها، وأشكالها، وأنواعها المختلفة، حيث كان للأندلسيين سفنٌ حربية ساعدت على حماية شواطئهم البرية، وبسط نفوذهم على سواحلها المترامية الأطراف.

والشاعر الأندلسي لا يصور لنا ما يراه فحسب، وإنما يمزجُ ذلك مع مشاعره الخاصة، فيحلق بخياله في سماء الإبداع، فإذا كان في موقف فرحٍ والطبيعة تدعوا إلى الأنس، يرى جمال الطبيعة في محبوبه، فعندما يتنعم بجمالِ المنظر يتغزل بمحبوبته، ليرى في الزهرة الجميلة التي على ضفة الجدول، أو في روضةٍ ندية، وتحفها الأشجار الخضراء، ويلعب بها النسيم، لا يراها كما هي، وإنما يتخيلها محبوبته الجميلة، فاحمرارُ الورد يذكره وجنتيها، وميلانُ الغصن وتثنيه يذكره جسدها، فيعكس الشاعر جمال الطبيعة في محبوبته، فيتخيل الطبيعة في ريقها، وشعرها، ولون

عيونها، وفي شكلها، ودقة خصرها، فلم يترك الشعراء صورةً جميلة من صور المائيات إلا وتحدثوا عنها، فيصف ممدوحه بالبحر، وقوة بأسه بالسيل، وإذا كان الشاعر في موقف حزنٍ وألم، استدعى الطبيعة لتبكي معه، وتأن حزينةً لفقد محبوبه، فيرثي محبوبه السحاب، ويبكي الغيث لفراقه، وهذا من الأشياء العجيبة في قدرة شعراء الأندلس على تحويل الطبيعة الضاحكة المرحة إلى طبيعة عابسة متجهمة، تشاركهم همومهم وأحزانهم.

ولقد طغى وصف الطبيعة على جميع جوانب شعرهم، فالطبيعة عند الأندلسيين تمتزجُ في جميع أغراض شعرهم، فإذا وصف الراحَ اتكأ على الطبيعة وجمالها، وإذا تغزل أخذ من أوصاف الطبيعة، وإذا مدح جعل الطبيعة إطاراً لمدحه، حتى يكاد يخرجُ عن موضوعه إلى وصفِ الطبيعة.

فاتصال السحب في السماء، ولمعان البرق على الغمام، وصوت الرعد في الفلاة، وانهمار المطر على التلال، وخرير الماء من الجبال، وقطر الندى على الأغصان، وجريان الأنهار والجداول والأودية على البطاح، ومخر السفن لعباب البحار؛ لتقرب بين المدن والأمصار، كل هذه الظواهر وغيرها أسهمت في تحريك قريحة الشعراء؛ فأنتجوا شعراً قد أطلق عليه مسمى (المائيات). فلا تمر هذه الظواهرُ على الشعراء مرورَ الكرام، وإنما في كل مشهدٍ يتخيل محبوبه، وفي كل موقفٍ يتذكر ممدوحه، ففي الطبيعة مادةُ الجمال، وبخيال الشاعر الماهر يصنع عالماً جميلاً نابضاً بالحياة والحركة، لما يحدث بين الشاعر والطبيعة من حوار، فيستنطقون الجمادات، ويبعثون الروح في المجردات، فرسموا لنا أجمل صورة، ونقلوا لنا أعذب عبارة، ليودعوها عالم الشعر.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في عدة أمور، لعل من أبرزها ما يلي :-

- أنني لم أجدْ- حسب علمي المتواضع- دراسةً سابقةً، قامت بتناول المائيات في الشعر الأندلسي بشكلٍ مستقل؛ بل ظلت أشعارهم متناثرة في الدواوين، وبطون الكتب.
- وجدت بعض الدراسات التي تناول فيها الباحث موضوع المائيات من خلال دراسته لموضوع الطبيعة في الشعر الأندلسي، وتكون دراسته للمائيات دراسةً مبسطةً، يشير إليها إشارةً عابرة، لذا فالمائيات في الشعر الأندلسي من الموضوعات التي تستحقُ الوقوفَ عندها، والكشف عن مظاهرها واتجاهاتها.
- بعض الدراسات تقوم على دراسة عنصرٍ من عناصر الطبيعة في مختلف العصور، وأرى أن عناصر المائيات لا تقل أهميةً عن أي عنصرٍ آخر في الطبيعة.
- إنَّ الدراسات السابقة لم تفِ بشكلٍ متكاملٍ بدراسة المائيات، ومن هنا فإنَّ دراستي تسعى لتحقيقِ الأهداف التالية :

الأهداف: يمكن إيجازها فيما يلي:-

- تقديم دراسة استنتاجية عن المائيات في الشعر العربي في الأندلس، وذلك باستخلاص الحقائق والمعلومات من بعض قصائدهم، باعتبار أنَّ الشعر يعكس مختلف جوانب الحياة.
- الكشف عن صورة المائيات في الشعر الأندلسي، وبيان أبعاد هذه الصورة، ومتعلقاتها الطبيعية، والصناعية، والإنسانية، والحيوانية، وغيرها.
- جمع أكبر عددٍ من النماذج التي تتحدث عن المائية في الشعر الأندلسي، ورسم صورةٍ واضحة للحياة الأندلسية، والطبيعة الجغرافية للبلاد.
- بيان ما كان عليه المجتمع الأندلسي من حياة ترفٍ، ساعدت على نهوضِ وارتقاء الشعر

الأندلسي.

- بيان مدى تعلق شعر المائيات بالرياض والرياحين، ومجالس الأنس، وبوصف القصور، والأغراض الشعرية الأخرى.
- ظهور عددٍ من النواحي الاجتماعية، والتي تطورت في العصر الأندلسي، وكان لها ارتباطٌ وثيقٌ بالمائيات وشعرها، كالزوارق، والسباقات بها، والسفن الشراعية، والرحلة النهرية.
- بيان مدى تأثر شعراء الأندلس بالمشارقة، وبيان مواطن التجديد والتميز عند شعراء الأندلس.
- الوقوف على اللغة والأسلوب التي نهضت بشعر المائيات، وبيان جمالياتها في الشعر الأندلسي.

مشكلات البحث:

لقد ظلّ شعر المائيات في الأندلس مشتتاً في بطون الدواوين، والكتب الأدبية والنقدية القديمة، لذا وجب عليّ قضاء وقتٍ طويل في تصفح الدواوين، والكتب الأدبية، وجمع المادة العلمية، وترتيبها، وتنسيقها.

الدراسات السابقة:

يمكن تقسيم الدراسات السابقة إلى قسمين:

الأولى : قائمة على دراسة للموضوع بشكلٍ عام:

- كتناول الأدب الأندلسي بعامةٍ، ودراسة المائيات بشكلٍ مبسط، وهو ما نجده عند (د.مصطفى الشكعة) في كتابه (الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه)، فقد تطرق إلى المائيات في كتابه، ولكنْ بشكلٍ مبسط، وبنماذجَ محدودةٍ، فلم تتجاوزْ دراسته لها بسبع عشرة صفحةً.

- ومن الذين أشاروا إلى المائيات (د. جودة الركابي) في كتابه (في الأدب الأندلسي)، فقد أشار إليه إشارةً عابرةً لا تتجاوز الصفحتين، فلم يبوب له باب، ولم يجعل له فصلاً مستقلاً؛ بل كانت إشارته لها إشارةً عابرة، وكذلك (د.عبد العزيز عتيق) في كتابه (الأدب العربي في الأندلس)، قدم فيه مبحثاً عن شعر الطبيعة، وأشار بعجالةٍ إلى النهر، والناعورة في دراسة لا تتجاوز الصفحتين، وكتاب (د.شوقي ضيف) تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلسية، قريب من كتاب عبد العزيز عتيق.
- وهناك أطروحة جامعية لـ (بومدين كروم)، بعنوان: (الطبيعة في شعر ابن خفاجة)، جعل فيها فصلاً تحدث فيه عن المائيات، ولكنْ لم يتجاوزْ في دراسته شعر ابن خفاجة.
- و أطروحة جامعية لـ (جميلة شحادة الخوري)، بعنوان: (الطبيعة في الشعر الأندلسي)، تحدثت فيها باختصارٍ شديد عن المائيات في الشعر الأندلسي، لم يتجاوز الست عشرة صفحةً، وكان أغلب استشهاداتها من كتاب نفح الطيب.

الثانية : دراسات متخصصة تناولت جانباً من الموضوع :

- كتاب (د.حسين عطوان)، وصف البحر والنهر في الشعر العربي من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي الثاني.
- رسالة جامعية لـ (محمد الغانم)، بعنوان: (النهر في الشعر العربي من القرن الثاني إلى نهاية القرن الرابع الهجري).
- كلا هاتين الدراستين لم تقفا على الشعر الأندلسي، فهما بعيدتان كل البعدِ عن مجالِ دراستي.

منهج البحث:

لقد جاءتْ هذه الدراسة لتقفَ عند المائيات في الشعر العربي في الأندلس، وقد اعتمدت في إعداد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي، ولم أعدم الإفادة من المناهج الأخرى، من مثل المنهج التاريخي، إذ قد سلكتُ في هذه الدراسة طريق استقصاء الأبيات الشعرية ذات العلاقة بالمائيات، ثم قمتُ على تصنيفها؛ فتجلت في العناوين التي تشتمل عليها هذه الدراسة، وكنتُ قد أشرت في أثناء التحليل والمناقشة لهذه الأبيات إلى جملةٍ من القضايا، من أمثال :الوقوف على الأطلال، ومزج العاطفة بوصف الطبيعة، وربط محاسن المرأة بجمال الطبيعة، وغيرها من القضايا التي ستبدو في طي الدراسة.

الخطـــــة :

جعلتُ خُطةَ هذا البحث في فصلين اشتمل كل منهما على مباحث عدة ،حتى نتمكن من استيعاب عناصر المائيات في الشعر الأندلسي على الأرض كانت أو في السماء ،طبيعية كانت أم صناعية ،وفيما يلي وصف موجز لمحتويات الرسالة .

الفصل الأول : تناول هذا الفصل المائيات والطبيعة ،وينقسم هذا الفصل إلى مبحثين :

المبحث الأول : يدرس المبحث الأول المائيات الطبيعية ،وينقسم هذا المبحث إلى قسمين :

- المائيات الطبيعية الأرضية وتشتمل على عدة عناصر من الطبيعة : كالبحر ،والنهر ،والسيل ،والجدول .
- والمائيات الطبيعية العلوية وقد تناول هذا القسم من المبحث :البرد ،والثلج ،والسحاب ،والمطر .

أما **المبحث الثاني** فقد جال في المائيات الصناعية التي ناقشت فيها العديد من عناصر المائيات الصناعية ومنها :البرك ،والنوافير ،والسفن والزوارق ،والأشرعة ،والرحلات النهرية .

وفي دراستي لأي عنصر من عناصر المائيات كنت أقف عند ذكره في العصور الأدبية السابقة ،وأنظر إلى مدى اهتمام شعراء الأندلس بهذا العنصر ،وأحاول أن أجيب عن عدة تساؤلات ،هل جاء ذكر هذا العنصر في أشعارهم بكثرة أم قلة ؟ هل جاء وصفهم لهذا العنصر في قصائد أو

مقطعات لوحده ،أم كان يقرن معه غرضاً شعرياً آخر كالمدح والرثاء ... وغيرها ،وقد حاولت في بحثي أن أغوص في حالة الشعراء النفسية وأنظر إلى نظرة شعراء الأندلس السلبية والتفاؤلية نحو أي عنصر من عناصر المائيات ،وقد استوقفتني بعض العناصر للحديث عن بعض الظواهر كالمد والجزر ،وتغير لون الماء وشكله بفعل الريح والشمس ... وغيرها ،وقد أشرت في بعض عناصر المائيات عن خروجها من المعنى الحقيقي إلى معان مجازية متعددة ،قادتني إلى النظر في تشبيه الممدوح بأحد عناصر المائيات كالبحر والنهر ... وغيرها ،وقد أخذ بيدي هذا الملحظ إلى الحديث عن بعض الشعراء وحبهم للطبيعة ووصفهم لكؤوس الراح باعتبار شعره مرآة لشخصيته ومشكاة تضيء جوانب حياته المختلفة ،وقد تناولت في هذا البحث العديد من القضايا والتساؤلات التي عالجتها في صفحات هذه الدراسة .

الفصل الثاني : لقد جال الفصل الثاني من هذا البحث في دراسة **الصورة في شعر المائيات** ،وقد قسمت هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث :

- **المبحث الأول :** استهل المبحث الأول بالتعريف **بمفهوم الصورة** ،وأهميتها ،وذكر أول النصوص التي تحفظها لنا كتب الأدب والنقد عن الصورة ،والتعرف على مدى أهمية الصورة في النقد العربي الحديث .
- وقد تناول **المبحث الثاني : مصادر الصورة وتشكيلاتها** في شعر المائيات الأندلسي ،وحاولنا أن نثبت فيه أهمية الطبيعة المائية في الصورة الأندلسية باعتبارها ركيزة من ركائز الإلهام في جمال الصورة ،وقدرة **الخيال** على الإبداع باعتباره عنصراً رئيسياً في تكوين الصورة .
- وقد تناول **المبحث الثالث: أنواع الصورة في شعر المائيات** ،وكان النوع الأول يتمحور حول **التجسيد** وقدرته على تحويل المجردات الذهنية إلى مدركات حسية ،والنوع الثاني في **التشخيص** وأثره في استنطاق الجمادات والتفاعل مع عناصر الطبيعة المختلفة ،وقد جاء النوع الثالث من أنواع الصورة في **الحركة** ،إذ من دونها يخفق الشاعر في رسم أحداث متعاقبة متتالية ،وجاء النوع الرابع من أنواع الصورة في

اللون ،فالصورة اللونية في الشعر العربي تخفي وراءها في الغالب نفسية الشاعر وفكره وخلجات نفسه .

الخاتمة :

في الخاتمة لخصت أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث.

المصادر والمراجع:

رتبت المصادر والمراجع ترتيباً هجائياً .

فهرس الموضوعات :

ختمت البحث بفهرس مفصل لموضوعات الرسالة .

الفصلُ الأولُ

المائيات الطبيعية

المبحث الأول : المائيات الطبيعية

المبحث الثاني: المائيات الصناعية

المائيات الطبيعية

إنَّ هذا الكونَ وما فيه من حياة ميدانٌ فسيح للأدباء، فهذا الكون هو الطبيعة التي يتحدثون عنها في أشعارهم بما فيها من ليل ونهار، وبما في سمائها من سحاب، وبرق، ورعد، وشهب، ونجوم، وأمطار...، وبما في أرضها من جبال، وبحار ، وأنهار، وجداول، وغدران، وبساتين، ورياض....، وشتى أنواع الزهور والأشجار، كل هذا كان مدعاةً للتأمل، والتفكير، والابتكار...، فنجد المتفاعل الإيجابي الذي يتفاعل مع هذه العناصر الطبيعية، ويتحد معها، ويتلاعب بها في خياله، فيرسم لنا لوحةً فنية ممتدة على أرض الواقع، ومحلقة في سماء الخيال، مطرزة بشتى الصور الفنية، فتثور قريحة الأديب المبدع، فينتقي ألفاظه، وينثر درره من بحر أدبه شعراً ونثراً يتغنى به، ونجد المتفاعل السلبي الذي يتفاعل مع الموقف، وتتحرك مشاعره، لكنْ يكبت إبداعه، ويشد على رسن قريحته، فلا يقول أدباً ينتفع به.

إنَّ مصادر الطبيعة الخضراء في الأندلس، وأساسها هو وفرة المياه، وكثرة مصادرها، فالأمطار غزيرة، والأنهار وفيرة، والآبار كثيرة، فلم تكن حياة الترف التي كانوا يعيشونها هي الملهم الأكبر للشعراء، وإنما جمال الطبيعة الأندلسية ساعدهم على الإبداع، فكل ما يتعلق بالطبيعة اهتموا به، ورصدوه في أشعارهم، فكل ما شاهدته أبصارهم، وافتتنت به عقولهم، رسموه لنا في أشعارهم بأسلوبٍ يخطف الألباب، ويحلق بها في سماء الخيال، فيلقيها في أحضان الطبيعة الأندلسية الخضراء المزهرة، فقد سبر الشعراء أغوار الطبيعة، وكوامن جزئياتها، وسلطوا أضواءهم على عناصر الطبيعة المتنوعة بقصائدَ ومقطعاتٍ كثيرة.

ولقد اهتم شعراء الأندلس بجمال الطبيعة في كل أنحائها، وأجزائها العلوية والأرضية، فلم يتركوا شيئاً وقعتْ عليه أبصارهم إلا وصوروه لنا من طبيعةٍ خضراء، حباها بها المولى جل وعلا، أو طبيعةٍ صناعية تفننت اليد البشرية الماهرة في صنعها، من قصور فارهة، وبرك مزخرفة، ونوافير عليها التماثيل كامنة، وبساتين مثمرة بشتى أنواع الثمار، ورياض مزهرة، وأنهار جارية، وسماء

غائمة، وسحابة فيها الغيث منهمر، وشعاع شمس يختلسُ النظر من بين تلك الغيوم السوداء، فيصطدم بقطر السحاب، لتبتهجَ الأرض بألوان الطيف، فتغني الطيور طرباً، وتصدع أصواتها في الأرجاء، فتلامس حساً مرهفاً، وأبصار متيقظة لرصد أدق تفاصيل تلك الطبيعة.

وسوف يجول البحث جولةً متأنيةً حول المائيات الطبيعية الأرضية، والعلوية، بعون الله عز وجل.

المبحث الأول : المائيات الطبيعية الأرضية :

- البحر.
- النهر.
- السيل.
- الجدول.

أولاً : المائيات الأرضية:

البحر :

انقسمتْ نظرة الأدباء للبحر، واختلفت رؤيتهم له، فمنهم منْ يرى في البحر الصديق الذي يبث إليه أحزانه، ومنهم منْ يراه العدو الذي لا يرحم، فيخافون ظلماته، ويهابون أهواله التي لا تفرق بين الصديق من العدو، فكم أخذت أعماقه لهم من صديقٍ، وكم أغرقت أمواجه لهم من حبيب، فنال البحرُ جانباً من اهتمام الشعراء؛ فقالوا به شعراً، إلا أنهم لم يفردوا للبحر قصائدَ مستقلةً إلا ما ندر، فقد جاء ذكرهم للبحر في عرض ذكرهم للفخر، والمديح، والرثاء.

إنَّ الأمواه تجري على جزيرة الأندلس وبين مختلف تضاريسها بكثرة، فهذه البحار المحيطة بالأندلس شكلتْ معالم الأندلس، وبينت حدودها المائية لشبه الجزيرة الأندلسية، فقد حدتها مياهُ البحار من ثلاث جهاتٍ؛ لذلك جاء اهتمامهم بالبحار، وقد أطلق عليها العلماء القدامى جزيرة الأندلس، كما أطلقوا على شبه جزيرة العرب بـ (جزيرة العرب). يقول الحميري: " وسميتْ جزيرةُ الأندلس بجزيرة؛ لأنها شكل مثلث، وتضيق من ناحية شرق الأندلس؛ حتى تكون بين البحر الشأمى والبحر المظلم المحيط بالأندلس [(١)]".

وفي دراستي لهذا المبحث كان لابد منْ أنْ أقف عند ذكر البحر في العصور الأدبية السابقة، وقد مهد ذلك إلى وصف البحر، ونظرة شعراء الأندلس السلبية والتفاؤلية للبحر، وقد قادني هذا الملحظ إلى الحديث عن الدر الذي مكمنه البحر، ووصف أشعارهم وممدوحيهم بالدر، وكذلك تشبيه أسنان المحبوب بالدر، ودموعه التي تتساقط على خديه بالدر، فاستوقفني هذا الملحظ للحديث عنْ ظاهرةِ المد والجزر، وتشبيه كرم الممدوح بمد البحر، وقد أخذ بيدي هذا الملحظ إلى خروج البحر عن معناه الحقيقي إلى معانٍ مجازيةٍ متعددةٍ، قادتني إلى تشبيه الممدوح بالبحر.

لقد عرف الأندلسيون البحر كما عرفه الأوائل من قبل في العصر الجاهلي وغيره، فقد كان

---

(١) صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن عبد المنعم الحميري، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٨ م، ص ٢.

العرب في العصر الجاهلي يذكرون البحر، ولجته في أشعارهم، فهذا النابغة الذبياني يصف النوق الراحلة بسفين البحر :

كأنَّ الظّعن، حين طفون ظهراً سفينُ الشحرِ يَمّمن القَراحا [(١)]

وهذا عبيد بن الأبرص يصف مهارته في قول الشعر كمهارة الحوت في السباحة. يقول فيها:

سَـــلِ الشعراءَ هل سَبحوا كسبحي بُحورَ الشِّعرِ أو غاصُوا مَغاصي
لِســـانِي بالقريضِ وبالقوافِـي وبالأشعارِ أمهـــرِ فِي الغـَـواصِ
من الحوتِ الذي فِي لجّ بَحـــرٍ يُجيدُ السبحَ فِي اللُّجَجِ القِمـَــاصِ
إذا مـَـا باصَ لاحَ بصفحتيهِ وبيَّضَ فِي المكرّ وفِي المحـَـــاصِ[(٢)]

وإذا ما نظرنا إلى معلقة عمرو بن كلثوم، وتفاخره بقومه، فالأرض لم تتسع لهم، وضاقت بهم من كثرة عددهم؛ حتى لجأوا إلى البحر ، وركبوا ظهره، وملؤوه بالسفن، يقول فيها:

مَلأنا البرَّ حتى ضاقَ عنَّا وماءُ البحرِ نَملؤه سَفينَا[(٣)].

فقد عم قومه الدنيا، وملؤها براً بمساكنهم، وبحراً بسفنهم.. ..

وإذا ما انتقلنا إلى عصر صدر الإسلام، نجد أنَّ القرآن الكريم يذكر تسخير المولى- جل وعلا- البحر لهم، بما فيه من منافع مختلفة، فيذكر الجوار المنشآت، وبما مَنَّ الله تعالى به عليهم مما يستخرجون من أعماقه مِنْ لحمٍ طري، ومما يستخرجون منه من حلي لؤلؤاً ومرجاناً، يقول المولى-

---

(١) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر – القاهرة، الطبعة الثانية، ص ٢١٣.

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص، شرح أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م، ص ٧٣.

(٣) شرح المعلقات السبع ،أبوعبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، لجنة التحقيق في الدار العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٢ م، ص ١٢٧ .

سبحانه وتعالى- : {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ﴿١٤﴾)[1].

فقد كان عصر صدر الإسلام حلقة وصل، وامتداداً لما كانوا عليه من معرفة، ودراية بالبحر في العصر الجاهلي، وذلك لقربهم الزمني، والثقافي، والطبيعي. يقول الحطيئة في رثاء علقمة بن علاثة :

يَداك خلِيج البحرِ إحداهُما دمٌ	وإحداهُما جودٌ يَفيضُ ونَائـــــلُ
فإنْ تَحْيَ لا أَمْلَلْ حَيَاتي وإنْ تَمُتْ	فمَا في حَياتي بَعْدَ مَوْتكَ طَائِلُ.[2]

فقد جعل الشاعر يدي ممدوحه كالبحر، إحداهما شجاعة يسيل الدم منها من كثرة قتلاه، والأخرى كالبحر كرماً وجوداً، فالشجاعة ديدنه، والكرم طبعه. وهذا حسان بن ثابت يفخر بنفسه وبقومه، فمن وجد من أعدائه فقدته أمه ؛لأنه لا محالة قاتله، فالبحر حين تهب ريحه، وتتلاطم أمواجه، ويرتمي زبده على سواحله، كل هذه الأهوال ليست بأشد منه غلبة، وقهراً لخصمه، فهو يفري من الغيظ من شدة المبالغة في القتل. يقول حسان بن ثابت :

قَدْ ثكلتْ أُمُّهُ مَنْ كنتُ صَاحِبَهُ	أوْ كانَ مُنتشِبَاً في بُرْثُنِ الأسَدِ
مَا البحرُ حينَ تَهُبُّ الرّيحُ شامِيةً	فَيَغْطَئِلُّ[3] وَيَرْمـي العِــبْرَ بالـــزَّبَدِ
يَوْماً بِأغْلَبَ مِنّي حِينَ تُبْصِـرُني	أَفري مِن الغيظِ فريَ العَارض البردِ. [4]

فنجد أنَّ حسان قد وصف شيئاً من أهوال البحر الذي اعتادوا على السماع به، أو مشاهدته، فإذا هبت الريح تلاطمت أمواج البحر، وركب بعضها على بعض، وهاج وعلا زبده على

---

(١) سورة النحل آية ١٤.

(٢) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، تحقيق : نعمان محمد أمين طه ،مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ص ٢٣٧.

(٣) فيغطئل : أي: يركب بعضه بعضاً يريد اضطراب أمواجه .

(٤) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: وليد عرفات ، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٦ م، ج١، ص ٢٨٤.

الساحل، وصعب خوض البحر في مثل هذه الظروف، كل هذه الأهوال ليست بأغلب، ولا أقوى من همة الشاعر حين يغضب، فيرى في نفسه أنه أشد فتكاً بالعدو، من البحر حين يهيج.

أما في العصر الأموي، فيذكر لنا ياقوت الحموي في معجم البلدان "أنَّ هشام ابن عبد الملك استعمل الأسود بن بلال المحاربي على بحر الشام، فقدم عليه أعرابي من قومه، ففرض له وأغزاه البحر، فلما أصابت البدوي تلك الأهوال قال :

أَقولُ وقدْ لاحَ السَّفينُ مُلجَّجَاً ... وقدْ بَعدتْ بعد التَّقربِ صُورُ
وقدْ عَصَفتْ ريحٌ وللموجِ قَاصفٌ ... وللبحرِ مِنْ تحتِ السَّفينِ هَديرُ
ألاَ ليتَ أجْرِي والْعطَاء صفاَ لهم ... وحَظّي حَطوطٌ فِي الزّمامِ وكورُ
فلِلّهِ رأيٌ قادَني لِسفينَةٍ ... واخضر مَوّار السّرار يَمُورُ
ترى متنَه سَهْلاً إذَا الرّيحُ أقْلعَتْ ... وإنْ عَصَفتْ فالسَّهلُ مِنهُ وعُورُ[1].

ويعلق الدكتور حسين عطوان على هذه الأبيات، فيقول :" ويصدُقُ هذا الأعرابي ما شاع من أن الأعراب كانوا يفزعون أشد الفزع من ركوب البحر، والسفر فيه،إذ لم تكد السفينة التي حملته تسير في البحر، وتفارق الثغر الذي أبحر منه،ولم يكد يرى أمواج البحر الهائجة العاتية، ويسمع أصواتها العالية،حتى ملأ عليه الخوف أنحاء نفسه، فإذا هو يزهد في العطاء الذي فرض له،ويرغب عن الراتب الذي أجري عليه، وإذا هو يندم أشد الندم لموافقته على الانضمام للجيش، والغزو في البحر المضطرب الهائج، الذي كان يطمئن فيه بعض الاطمئنان حين تطيب الريح، وتهدأ الأمواج، ثم لا يلبث أنْ يخاف حين تشتد الريح،وتتعالى الأمواج.إذا هو يعتب أعظم العتب على ابن قبيلته الذي أغراه،.وإذا هو يتمنى،ويطيل في التمني أن ينجو من أخطار الأمواج المضطربة، التي كانت تبدو له

(١) معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م ،ج ٣ ص ٣٣٣.

وكأنها الجبال المنهارة المتهافتة [1]". وقد استخدم الشعراء الأمويون لفظ البحر للدلالة على كرم الممدوح وسماحته، فانظر إلى قول داود بن سلم في مدح قثم بن العباس :

نَجوتِ مِنْ حـلِّي ومِنْ رِحْلتي   يَا نَاقُ إنْ أَدْنَيتِني مِنْ قُثَمْ
إنَّكِ إنْ أدْنيتِ مِنهُ غَداً   حَالفَنا اليُسْرُ ومَاتَ العَدَمْ
فِي كفِّه بَحـرٌ وفِي وَجهِه   بَدرٌ وفِي العِرْنين مِنهُ شَمَمْ [2].

وكذلك جرير في قوله عندما مدح الخليفة :

إنّي لمُعْتَمِدُ الخَلِيفَةِ زَائِراً   وَأَرَاهُ أهْلَ زِيارَتِي وَتَعَرّضِي
لَيسَ البريُّ كَمنْ يَمرضُ قَلبُهُ   فَأنَا المُشايِعُ، قَلْبُهُ لمْ يَمْرَضِ
فَوَثَقتُ، ما سَلِمَ الخَليفَةُ، بِالغنى   لَيسَ البحُورُ إلى الثِّمادِ البرضِ
بَحْرٌ تَفِيضُ لَهُ سِجَالٌ[3] بالنّدىَ   وَإلَيْهِ جَارِيَةٌ البُحُورِ الفُيَّضِ[4].

زار الشاعر الخليفة لطلب العطاء، وهو أهل للزيارة، فهو البحر الذي لا ينضب ما به من ماء، واليد التي يرجى ما بها من عطاء، وفي قدوم الشاعر على الممدوح ثقة بالغنى والعطاء ما سلم الخليفة، فلم يدخل إلى قلبه شك ولا ريب بالغنيمة، فدِلاء شعرهم إذا غاصت في بحر كرم ممدوحهم؛ لا تعود منه إلا وهي فائضة بالأرزاق الوافرة.

وفي العصر العباسي يزداد ذكر البحر في أشعارهم، لاتساع رقعة الدولة الإسلامية في ذلك

---

(١) وصف البحر والنهر في الشعر العربي من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي الثاني، حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢ م، ص٤٧ .

(٢) الأغاني، لأبي فرج الأصفهاني، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر ،الطبعة الثانية، ١٩٥٢ م، ج ٩، ص ١٦٩.

(٣) السجال جمع سجل، وهو الدلو ملئ ماء

(٤) ديوان جرير بشرح محمد حبيب، تحقيق : نعمان محمد أمين طه ،دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، ص ٦١٩ .

العصر، ولكَثرة اتصالهم بالبحر إما تجارة أو غزواً، ولقد راقب الشعراء البحر، وتأملوه جيداً، حتى أخذوا من صفات البحر، وأعطوها لمن يستحق المدح عندهم، فنجد أبا تمام يقول في المدح واصفاً ممدوحه بالبحر :

تَوَاتَرتْ نَكَبَاتُ الدَّهْرِ تَرشُقُني ... مِنْ كلِّ صَائبةٍ عَنْ قَوْسِ غَضْبَانِ
مَدَّتْ عِنَانَ رَجائي فاستَقَدْتُ لهُ ... حتَّى رمَتْ بيَ في بَحْرِ ابنِ حَسَّانِ
بَحْرٌ مَنَ الجودِ يَرمي مَوْجُهُ زَبَداً ... حبـابُهُ فضةٌ زينتْ بعقيانِ
لَوْلا ابنُ حَسَّانَ مَاتَ الجُودُ وانتَشَرت ... مَنَاحِسُ البُخْلِ تَطْوِي كُلَّ إحسَانِ.(1)

فإذا تعاظمت عليه نكبات الدهر ومصائبه ارتمى في بحر ابن حسان، فبحره لا ترمي أمواجه بالزبد، وإنما باللجين المزين بالعسجد. وإذا نظرنا إلى شاعر آخر من شعراء هذا العصر، وجدنا أبا فراس الحمداني، يمدح ممدوحه في قصيدة له ،ويجعل من شِعر ممدوحه البحر غزارةً وعمقاً، فممدوحه في علمه كماء البحر، يغترف منه ولا ينضب، ومع غزارة علمه، وكثير معرفته، جاءت ألفاظه دراً، فليست ألفاظه كثيرة بلا معنى؛ بل هي كالدر في ندرتها، وانتقائها بعناية، يقول أبو فراس:

مِنْ بَحْرِ شِعْـرِكَ أغْتَرِفْ ... وبِفَضـلِ عِلْمِكَ أعْترِفْ
أنْشَـدتَّـني ؛ فَكأنَمـا ... شَققتَ عنْ دُرٍّ صَـدفْ
شِعْراً، إذَا مَـا قِسْتُـهُ ... بِجَميعِ أشْعَارِ السَّلفْ
قَصَّـرنَ، دُونَ قَـراهُ تقـ ... صِـيرَ الْحُرُوفِ عَنِ الألِـفْ.(2)

ومن شعراء تلك الحقبة المعري الذي يحاول أنْ يربط صور الطبيعة مع بعضها البعض، فيرى

---

(1) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق : محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر ،الطبعة الرابعة، ج٣، ص ٣١٢.

(2) ديوان أبي فراس الحمداني ،شرح : خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٤ م، ص ٢١٩ .

نجوم السماء في ظلمة الليل كأنها اللؤلؤ يطفوا على سطح الماء، وتتقاذفه الأمواج، يقول فيها:

سُبْحَانَ مَنْ بَرأ النُّجـــومَ، كأنّها دُرٌّ، طَفا مِنْ فَوقِ بَحـــرٍ مَائجِ.[(١)]

ونجد البحر مرتبطاً بالزمان عند أبي علاء المعري، فنلاحظ تلك النظرة التشاؤمية التي يرى فيها التخبط في الحياة، يقول فيها :

كَأنّنــــا، والزَّمَـــــانُ يَمضـِي رَكْـــبُ سَفِـــينٍ بلُـــجّ بَحْـــر.[(٢)]

ويقول أيضاً :

كأنَّ الدَّهرَ بَحرٌ، نَحْنُ فيهِ عَلى خَطَرٍ، كَركّابِ السَّفِينِ.[(٣)]

أما في الأندلس، فنجد أنَّ اهتمام العرب بمعرفة البحار ساعدهم على توسيع رقعة الدولة الإسلامية؛ حتى عبروا إلى ما وراء البحار شرقاً وغرباً، أما ما كان في جهة الغرب- وهو الذي يخص موضوع بحثنا- فيظهر على يدي القائد الفذِّ طارق بن زياد، وذلك عندما ركب البحر من الشمال الإفريقي إلى أرض الأندلس، عابراً المضيق الذي يسمى الآن باسمه (مضيق جبل طارق)، ويذكر صاحب النفح أبياتاً نسبت لطارق بن زياد، قالها في الفتح :

رَكَبْنَا سَفِيناً بالمَجَـــــــاز مُقَيَّرا عسَى أنْ يكونَ اللهُ مِنّا قدْ اشْترَى
نُفُوسَاً وأمْوَالاً وأهْلاً بجنّــــــــةٍ إذَا مَا اشْتَهَيْنَا الشَّيءَ فِيهَا تيَسّرا

(١) شرح اللزوميات نظم أبي العلاء أحمد بن عبد الله سليمان المعري، تحقيق: سيدة حامد ومنير المدني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج١ ص ٣٣٢ .
(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٠٥ .
(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٢٨٧ .

ولسْنَا نُبَالِي كَيْفَ سَألتْ نُفُوسُنا إذَا نَحنُ أدْركنَا الذِّي كَانَ أَجْـــــدَرَا [١].

وقد ساور هذه الأبيات، وخطبة طارق في فتح الأندلس الكثير من الشكوك، ونلمس ذلك في معرض حديث أحمد هيكل عن هذين النصين حين قال: " ولو صحت نسبة هذين النصين إلى طارق بن زياد؛ لكانا أول أدب عربي تردد في الأندلس، ولكانا في طليعة النصوص التي تعتز بها فترة الولاة، ولكن نسبة هذين النصين إلى طارق يحف بها كثير من الشك، وذلك لعدة أسباب، منها: أنَّ طارق بن زياد كان بربرياً مولى لموسى بن نصير. .. وأن المصادر الأولى التي سجلت حوادث تفاصيل الفتح، قد خلت تماماً من أي حديث عن هذا الأدب. ..[٢]"، وقد اتفق معه عبد الرحمن الحجي في الشك في نسبة الخطبة، ويخالفه في الأبيات، فهو يرى أن "وجهة هذه الأبيات تغاير وجهة الخطبة، فهي منسجمة والمعاني الإسلامية [٣]"، و ابن بشكوال يقول في طارق بن زياد: " إن طارقاً كان حسن الكلام، ينظم ما يجوز كتبه[٤]."

وقد حفظت بعض المصادر بعضاً من شعر شعراء عصر الولاة في الأندلس، من أمثال شعر أبي الأجرب جعونة بن الصمة، وبكر الكنائي، وأبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي – الذي كان يلقب بعنترة الأندلس _ [٥].

وهنا لا بد مِن بيان أنَّ للبحر ذكراً في الشعر الأندلسي، لما له من أهمية في حياتهم، فلا نكاد نجد شاعراً إلا وقد قال في البحر،فقد خاض البعض غمار البحر، وناله شيء من أهواله، ونجد

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، ٢٠١٢ م ،ج١، ص ٢٦٥ .

(٢) الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية عشرة، ١٩٩٧م، ص ٦٨.

(٣) التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، عبد الرحمن علي الحجي، دار القلم، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م، ص ٦١.

(٤) نفح الطيب، ج ١ ص ٢٣١ .

(٥) ينظر إلى تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، وعبد الواحد ذنون طه، وناطق صالح مطلوب، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ م، ص ٣١٤ – ٣١٥.

ذلك في قصيدة ليحيى بن حكم الغزال [١]-ت ٢٥٠ هـ - يصف فيها تجربته لرحلة بحرية، قد ذكر تفاصيلها صاحب المطرب [٢]، يقف الشاعر فيها ملخصاً ما أصابه من أهوال البحر مع صاحبه يحي بن حبيب، ومدى تشبثهم بالحياة، وخوفهم من الموت. يقول فيها :

قَـــالَ لِـــــي يَحيَى وصِرْ   نا بَينَ مَـــــوجٍ كالْجِبَـــالِ
وتَولَّتنــــــا رِيـــــــاحٌ   مِن دَبُـــــورٍ وشَمَـــالِ
شَقَّـــــــتْ الْقِلْعَين وأَنبـ   تَّتْ عُرى تِلكَ الحِبـــالِ
وتَمَطَّـــــــى مَلَكُ المَـــوْتِ   إلَيْنَـــا عَنْ حِيَـــــالِ
فَرَأينَا المَـــــــوتَ رأْيَ   العَيْنِ حَـــالاً بَعد حَـــالِ
لمْ يَكنْ لِلقَــــومِ فِينَا   يَا رَفِيقِي رَأْسُ مَـــالِ[٣].

إنَّ البحر لم ينل ما نالته باقية عناصر الطبيعة من اهتمام، على الرغم من معرفة الأندلسيين للبحار، وركوبهم لها، لعل ذلك يرجع إلى نظرة بعضهم السلبية للبحر، لما فيه من غموض ومهلكة، وتقلب أحواله، وهيجان رياحه، وتلاطم أمواجه، وخطورة مسالكه، فيقف الحميري واصفاً بحر الظلمات الذي يحد الساحل الغربي من الأندلس، فيقول عنه : " ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم، ولا وقف منه بشر على خبرٍ صحيحٍ؛ لصعوبة عبوره وإظلامه، وتعاظم موجه وكثرة أهواله، وتسلط دوابه وهيجان رياحه [٤]"، فلعل عدم معرفتهم بما وراء البحار جعلهم يرسمون في مخيلتهم صورة سوداوية، ونظرة تشاؤمية للبحر، فيقول عبد الجبار بن حمديس أبياتاً

(١) يحيى بن حكم ،المعروف بالغَزَال ،بتخفيف الزاي .رئيس ،كثير القول ،مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل، وهو في ذلك جليل في نفسه وعلمه ،ومنزلته عند أمراء بلده ،ولد عام ١٥٦هـ ،في إمارة عبد الرحمن بن معاوية ،ومات في إمارة الأمير محمد سنه ٢٥٠ هـ . ينظر ترجمته عند الحميدي في (جذوة المقتبس ص٥٥٤) ،والضبي في (بغية الملتمس ١٤٧٢) ،وابن دحية في (المطرب ص ١٣٢) .

(٢) ينظر المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية، تحقيق إبراهيم الأبيارى و حامد عبد المجيد و أحمد أحمد بدوي ،دار العلم للجميع، بيروت، لبنان ، ص ١٣٩.

(٣) ديوان يحيى بن حكم الغزال، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر بيروت –لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ص ٧١.

(٤) صفة جزيرة الاندلس ص ٢.

متعجباً ممن يركب البحر وهو يعلم أهواله :

أَراكَ رَكِبتَ فِي الأَهْوَالِ بَحْراً عَظِيماً لَيْسَ يُؤْمَـــــنُ مِنْ خُطوبهِ
تُسَيِّرُ فلْكهُ شَرْقـــــاً وغَرْباً وَتُدْفَعُ مِنْ صَبَـــاهُ إِلىَ جَنُوبهِ
وَأصْعبُ مِنْ رُكوبِ الْبَحْرِ عِندي أُمُورٌ ألجَأتكَ إلى رُكُوبـــــهِ[1]

لقد علق في ذهن الشعراء الأهوال التي تمر عليهم عندما يركبون البحر، أو القصص التي يسمعونها عن تلك المخاطر، وقلة معرفتهم بما وراء البحار جعل الخوف، والرهبة تتغلغل في نفوس الكثير من الشعراء، ونلحظ ذلك في أبيات لابن حمديس يقولها في وصف أهوال البحر، وينظر إلى تلك التجربة من خلال المنظار البدوي، الذي عاش حياته في الصحراء. يقول فيها :

وأَخْضَرٍ حَصَلَتْ نَفْسِي بِـــه ونَجَتْ ومَـــا تفَارقَ مِنهُ رَوعَةٌ رُوعِي
رَغـــا وأزبدَ والنَّكباءُ تُغْضِبُهُ كَمـــا تَعَبّثَ شَيطانٌ بِمصْرُوعِ[2].

ألبس الشاعر البحر صورة من صور حياة الصحراء، فأمواج البحر كالجمل الهائج الذي يتطاير من بين شدقيه الزبد الأبيض، فهو يرغي ويزبد، ويحطم كل ما حوله، فجعل البحر في هيجانه واضطرابه كأنه إنسان قد تلبسه شيطان، وأخذ يصرعه، فهو لا يعقل ما يفعل، ولا يعلم ما يقول.

وقال في موقف آخر يصف البحر :

وَمُنَسَّمٍ الآذيِّ يُعنِقُ شَطُّـــهُ مِن نكْبةٍ هَوجَاءَ حُـــلّ وِثاقُها
وكأنَّما رأتْ الحِقاقَ فَعَجْعَجتْ فِيها القُرومُ وأزبدتْ أشْـــدَاقُها[3].

---

(١) ديوان ابن حمديس، تصحيح وتدقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت – لبنان، ص ٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٣١١ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٢٨.

جعل البحر كالناقة التي أزعجتها الرياح التي قد حل وثاقها، فأخذت تسفي عليها بالرمال وتزعجها، لتضرب الأرض بخفها غضباً، وتمشي من غير هدى، فرأت صغارها من بعيد، فأخذت ترغي، وتصوت لها، ويخرج الزبد من أشداقها غضباً، وهي صورة من حياة الصحراء القاسية التي يريد أن يبين فيها الشاعر شيئاً من أهوال البحر وخطورة مركبه، فوصف الشاعر لأهوال البحر وربطها بصورة الإبل الهائجة، كل ذلك يرسم صورة مخيفة ومروعة للبحر، إذ الشاعر بهذا التشبيه يقرب الصورة إلى المتلقي الذي يعيش في الصحراء، ولا يعرف أهوال البحر.

شبه بعض الشعراء الليل البهيم شديد الظلمة بالبحر ؛ لأن كلاً منهما يوحش صاحبه، فلا يعلم أين مكانه، وعلى ماذا تطأ رجله، فيمشي هائماً في طريقه :

سَرَى يَرتمِي رَكضَاً بِه كُلَّ مَوجةٍ   تَرامَى بها بَحرٌ مِنَ اللَّيلِ أخضَرُ [(١)].

و لابن خفاجة أبياتٌ في البحر، وهي موسومة منه بنظرة تشاؤمية إلى البحر، حيث يقول فيها:

ياَ مَادِحَ البَحرِ وَهُوَ يَجهَلهُ   مَهلاً فإنّي قَتَلتُهُ عِلْما
فَائِدُهُ مِثلُ قَعْرِهِ بُعدَاً   وَرِزقُهُ مِثلُ مَا بِهِ طَعْمَا [(٢)].

فهذه النظرة السوداوية لدى ابن خفاجة للبحر، مملوءة بالخوف، ممزوجة بحبه للحياة؛ لتؤكد نظرته التشاؤمية التي لم تأت إلا من واقع نفسي "في خوفه من الموت، وفي احساسه بالزمان[(٣)]"، فالبحر في نظره مدعاة إلى الهلاك والموت، لذلك يخاف منه، ويحذر من ركوبه، وهو لا يرى في البحر عظيم فائدة تسوغ ركوبه، وذلك لما يراه من واقع خبرة، وتجربة خاصة خاضها في البحر، ويبين لنا خبرته في مياه البحار، فقد سبر أغوار البحر معرفةً وخبرةً بأعماقه وخباياه، فلم

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، تحقيق: سيد غازي، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، الطبعة الثانية،ص ١٨٠.
(٢) المرجع السابق ص٣٤١.
(٣) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، الطبعة الثانية ١٩٩٧م، ص ١٦٤ .

يجد له فائدة قريبة المنال، ولا مبرر يُستساغ لركوب البحر، فأضراره أقرب مما به نفعاً، وفوائده كما في أعماقه بعداً، وغنائمه بعيدة المتناول، ووعورة المسالك، ويشبه ما به من رزق بأن طعمه كماء البحر ملوحة، وكل شيء في هذا البحر يحتاج إلى بذل جهد، وطول بال، فهذا الدر الذي يستخرج من أعماقه لا يستخرج إلا بشق الأنفس. ويقول في موقف آخــر مبيناً ظلمة البحر ووحشته :

كَمْ تُملأُ العَينُ مِن قَذَاهَـــــــا ... وتَشتَكِي النَّفسُ مِـــن أذَاهَـــــا
بَحرٌ ونَوءٌ وَطُولُ هَـــــــــمّ ... ثَلاثةٌ أطبَقتْ دُجَاهَـــــــــــا
فَلو يَدُ المرءِ وَهي مِنـــــــــــهُ ... أخْرَجَها لَمْ يَكدْ يَراهَـــــــا[(١)].

وهذا ابن وهبون يوجه أبياتاً إلى المعتمد بن عباد حين جاز البحر إلى أمير المرابطين يوسف ابن تاشفين ، ويتعجب من ركوبه البحر، وأهواله، فيقول :

رَكَبْتَ في اللهِ حَتى البَحرَ حِينَ طَما ... آذِّيهُ وبسُوطِ الرِّيحِ يَنْحَصِرُ
طِرْفٌ يَزِلُّ عَليهِ سِرْجُ فَارسِهِ ... وليسَ مِمَّا تَضمُّ الحُزمُ والعُذَرُ
كَأَنَّ رَاكِبهُ فِي مَتنِ ذِي لبدٍ ... غَضْبَانَ تَقدَحُ مِنْ أنْفَاسِهِ الشُّررُ
حَمَلْتَ نفْسكَ فِيه فَوقَ دَاهِيةٍ ... دَهيَاءَ لاَ مَلجأٌ مِنهَا ولاَ وزرُ
عُذِرَتْ لَو أنَّهُ ميْدَانُ مَعْركةٍ ... يَسمُو لهُ رَهَجٌ فِي الجَوّ مُنْتَشرُ
فِي حَيثُ لِلكرِّ والإقدامِ مُضْطرِبٌ ... وحَيثُ تَملكُ مَا تَأتِي ومَا تَذَرُ
عَساكَ خَلتَ حِبابَ الماءِ مِنْ زَرَدٍ ... تَعوَّدّ الخَوضَ فِيه طِرْفُكَ الأَثِرُ
أوْ قَلَّتَ فِي المَوجِ خِرصَانُ معْرضةٍ ... تُحَارِبُ الْجَيشَ أوْ مَصقُولةٌ بُتُرُ [(٢)].

يتذكر الشاعر مع ابن عباد كم ركب الأمير البحر في سبيل الله تعالى، تصحبه همته، وعزيمته

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٣٤٢.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ،أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى،٢٠٠٠م، ج ٢، ص ٣٧٩.

المتطلعة للنصر، فهي لا ترى إلا النصر، ولا تتطلع إلا للفتوحات، حتى لو كان البحر مثل الأسد في اضطرابه حينما يغضب، أو كان البحر كالداهية الدهياء التي لا ملجأ منها ولا مفر، "ويتعجب كيف أقدم المعتمد على هذه المغامرة، ولقد كان ذلك مقبولاً لو أنه في ميدان معركة، حيث الكر والفر، ويلتمس له سبباً في أنه خال البحر ميدان قتال تعود الخوض فيه والتمرس به[1] ".

وعاد الشاعر يشد على همة المعتمد ،ويصف حاله عندما جاز البحر :

فَسِرْتَ فَوقَ دِفَاعِ اللهِ تَهصِرُه بِرَاحَةِ الدِّينِ والتّقْوَى فَيَنْصَهِرُ
كَأَنَّمَا كانَ عَيناً أنتَ نَاظِرُها وكلُّ شَطٍّ بأشْخَاصِ الْوَرَى شُفُرُ [2].

وهذا ابن رشيق القيرواني يقول أبياته في القيروان، ويصدع صداها بين ملوك الطوائف، فقد قال ابن رشيق أبياتاً في بحرٍ هائج، وصف بها أحوال البحر، وقدر ركبه إلى صقلية، فعصفت بهم الريح، وتلاطمت عليهم الأمواج، وعظمت الأهوال، وكل هذا الأحداث لم تنسه ذكر المحبوبة، وتخيّل مناجاتها . يقول فيها :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ فِي السَّفينَةِ والــــرَّدَى مُتَوَقَّعٌ بِتَلاطُـــــــــــمِ الأَمْوَاجِ
وَالْجَوُّ يَهْطِلُ والرِّياحُ عَواصــــــفٌ وَاللَّيْلُ مُسْــــــــوَدُّ الذَّوائِبِ دَاجِ
وَعَلى السَّوَاحِلِ لِلأَعَادي غــــــارَةٌ يُتَوَقّعُونَ لِغـــــــــــارَةٍ وَهِيَـــــاجِ
وَعَلَتْ لأَصْحَابِ السَّفينَةِ ضَجّــــَـةٌ وَأَنَا وَذِكْـــرُكِ فِي أَلَذِّ تَنَـــــــاجِ[3].

في لحظة اليأس من الحياة، واليقين بالهلاك، يتشبث الشاعر ببصيص الأمل الذي يراه من بعيد، في عشقه لمحبوبته، فيتذكر محبوبته، وهو في خضم الحدث، حينما يقاسي آلامه، وتروعه

(١) المكان في الشعر الأندلسي (عصر ملوك الطوائف)، أمل محسن العميري، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٢ م، ص ٧٢.

(٢) الذخيرة، ابن بسام، ج ٤ ص ٧٧ .

(٣) زهر الأكام في الأمثال والحكم، الحسن اليوسي، تحقيق : محمد حجي، ومحمد الأخضر ،دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨١ م، ج ٢، ص ٨١ .

أهواله، في بحر عصفت به الريح؛ فتلاطمت أمواجه، وقد غشيتهم سحابة سوداء زادت من ظلمت الليل البهيم، يسمع أصواتهم، ولا يكاد يرى أصحابه، وقد علا الصراخ في المركب، وارتفعت الأصوات، وتخبط كل من كان على المركب، حتى أيقنوا بالهلاك، وابن رشيق هائم في بحر شوقه، يتذكر معشوقته، وهو في ألذ تناجي، ويذهب ابن رشيق مذهب عنترة بن شداد في تذكر محبوبته، وهو في أحلك الظروف، وأقربها إلى الهلاك، فهذا عنترة يتذكر محبوبته، والرماح تقطع من جسده، والسيوف تقطر من دمه، لأنه رأى لمعان السيوف، فتذكر مبسم محبوبته. يقول فيها :

وَلَقَدْ ذَكَرتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ   مِنّي وبِيضُ الهِندِ تَقطُرُ مِنْ دَمِي
فَوَدِدتُ تَقْبِيلَ السُّيوفِ لأَنَّهـــــــــــا   لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ الْمُتَبَسِّـــــــــــمِ[(١)].

وإذا كان عنترة يتذكر محبوبته في الوغى، وابن رشيق في عرض البحر بين الأمواج، فإنَّ ابن حيان الغرناطي- بعد قرنين من زمن ابن رشيق- يتذكر محبوبته، وهو يمخر البحر وبين لجته، فيقول :

لَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالْبَحرُ الْخِضَمُّ طَغتْ   أَمْوَاجُه وَالوَرىَ مِنهُ عَلى سَفَرِ
فِي لَيلَةٍ أَسْدَلتْ جِلبَابَ ظُلْمَتِها   وَغَابَ كَوكَبُها عَنْ أَعْيُنِ البَشَرِ
وَالمَاءُ تَحتَ وَفَوقَ المُزنِ وَاكفهُ   وَالبَرقُ يَستَلُّ أَسْيَافَاً مِنَ الشَّرَرِ
وَالفُلكُ فِي وَسَطِ الماءَينِ تحْسَبُها   عَيناً وَقَدْ أَطبَقَتْ شَفْراً عَلى شَفَرِ
وَالرُّوحُ مِنْ حَزَنٍ راحَتْ وَقَدْ وَردَتْ   صَدْرِي فَيَا لَكَ مِنْ وَردٍ بِلاَ صَدَرِ
هَذَا وَشَخْصُكَ لاَ يَنَّفكُ فِي خَلَدِي   وَفِي فُؤَادِي وَفِي سَمْعِي وَفِي بَصَرِي[(٢)].

وقال ابن حمديس أبياتاً في صبي يلعب في البحر، ينغمس في مائه، ويرتفع، ويشير أنْ أدركوني فإني غريق :

---

(١) ديوان عنترة بن شداد، مطبعة الآداب، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٨٩٣م، ص٨٤.

(٢) زهر الأكام في الأمثال والحكم، الحسن اليوسي، ج٢، ص٨٢. وينظر للاستزادة إلى ديوان الصبابة الباب السادس والعشرون (طيب ذكر الحبيب).

وسَابحٍ لاَعبٍ فِي بَحرِهِ مَرَحاً … تُشِيرُ كَفَّاه تَعْوِيذاً مِن الغَرَقِ
يَدعُو ولمْ يَكُ مُضطَّراً : خُذُوا بِيَدي … وَعِندهُ الفرْقُ بينَ الأمْنِ والفَرَقِ
فإنْ بَكيْتُ فإنّي قدْ ذَكَرْتُ بهِ … مَنْ جُرّعتْ مِنهُ كَأْسَ الموتِ بالشّرَقِ
رُدْتْ عَلى الْبَحرِ مِن كَفّي جَوهرَةٌ … ثُمَّ انْقَلبْتُ بِقلْبٍ دَائمِ الحُـــــرَقِ (١).

يظهر على هذه الأبيات طابع الحزن والأسى على جوهرة، وجوهرة هي جارية لابن حمديس، ماتت غريقة في المركب الذي عطب بهم عند خروجهم من الأندلس إلى أفريقية، فقد تذكر من فعل الصبي وهو يلعب، فعل الجارية وهي تغرق، فقال تلك الأبيات وهو يتخيل جاريته عندما كانت تغرق في البحر، ويرثيها في موضع آخر، مخاطباً البحر. يقول فيها:

أَذْكُرهَا والدُّمُـــــــوعُ تسْبِقُني … كَأنَّني لِلأَســــــــــــى أُجَـــــارِيهَا
يَا بَحْرُ أَرَخصـــــتَ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ … مَنْ كُنتُ لاَ للبِيــــــاعِ أَغلِيها
جَوهَرةٌ كــــــانَ خَاطِري صَدَفاً … لَها أَقِيهــــــــــا بِهِ وأَحْمِيهَا
أَبَتّهـــــا فِي حَشَــــــاكَ مُغْرَقَةً … وبِتُّ فِي سَـــــاحِلَيـكَ أُبْكِيهـــــا (٢).

يخاطب البحر، ويعاتبه على أخذه لجاريته، " ولم يكن بكاء ابن حمديس على جوهرة حزناً عارضاً، بل عاد إليه غير مرة، مما يدلّ على عمق أثر ذلك الفقد في نفسه(٣)"، وجعل ألفاظه من أجواء البحر، فهي جوهرة كالدانة، وهو كالصدفة حامياً لها، فجمال جاريته لا يحميه إلا قوته وبأسه، إلا أن قوته لم تسعفه أمام عصف الريح، ولجة البحر المتلاطم، فباتت جاريته غريقة في ظلمات البحر، وقام الشاعر يبكيها على ساحله.

وقال عبد الجبار بن حمديس في وصف البحر : " اجتمعت مع أبي الفضل جعفر ابن المقترح الكاتب بسبته، فذكر لي قول حسن بن رشيق يصف البحر :

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٣٢٤.
(٢) المرجع السابق ص ٥١٧ .
(٣) تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف والمربطين، إحسان عباس، ص ١٠٠.

الْبحْرُ صَعبُ المَذَاقِ مُــــــــــرٌّ لاَ رَجَعَــــــــــتْ حَاجَتِي إِليـــــهِ
أَلَيسَ مَاءً ونَحـــــــــنُ طِينٌ فَمَـــــــا عَسَى صَبرُنَا عَلَيـــــهِ.

فقال لي : يا أبا محمد، تقدر على اختصار هذا المعنى ؟ فقلت : نعم، وأنشدته :

لاَ أَركَبُ البَحرَ خَـــــــوفَاً عَليَّ مِنـــــهُ المعَاطِــــــــــــبُ
طِينٌ أنَا وهُـــــــــو مَـــــــاءٌ والطِّـينُ فِي المــــــــاءِ ذَائِبُ.

فاستحسن ذلك إذ كان على الحال، وأقام عني أياماً، ثم اجتمعت به، فأنشدني لنفسه في المعنى :

إنَّ ابـــنَ آدَمَ طِــــــينٌ فَالبحْـــــرُ مَــــــاءٌ يُذيبُهُ
لَولاَ الذِّي فيـــــهِ يُتلــــىَ مَـــا جَــــــازَ عِندِي رُكُوبهُ.

فأنشدته لي :

وأَخضَر لَولاَ آيةٌ مَا رَكبتُهُ ولله تَصرُّفُ القَضاءِ كَما شَاءَ
أقولُ حِذاراً مِن رُكوبِ عِبابِه أيَا ربِّ إنَّ الطِّينَ قدْ رَكبَ الماءَ.[1]".

لقد حاول الشعراء أن يجعلوا لهم دلالة فلسفية، تبرر لهم خوفهم من خوض البحر، وقد ذهب بعض الشعراء إلى معارضة بيتي ابن رشيق القيرواني، الذي يرى في البحر صعوبة المركب، ومر المطعم، وصعوبة المسلك، إذ جعل سبب خوف الناس من البحر في أنهم مخلوقون من طين، وهذا الطين لا يتحمل الماء، فيذوب معه، ويتفكك صلبه بين قطرات الماء، ويحذر أبو الفضل، وابن حمديس من ركوب البحر، ويذكرون ما جعله ابن رشيق سبباً في عدم ركوب البحر، ولكن لا يجيزون ركوبه إلا من أجل آية فيه تتلى، وهي قوله تعالى : { وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرٰىهَا وَمُرْسَٰهَآ

(١) ديوان ابن حمديس، ص٥٣٣– ٥٣٤.

إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} ﴿٤١﴾[1].

وقد يخرج الشاعر البحر عن كونه مصدراً من مصدر المائيات، ويستفيد منه في رسم صور ذات علاقة بمدلولات البحر من قوة واتساع وغيرها، فيجد ابن حمديس في البحر قوة الضرب، وشدة البأس، فيقف واصفاً سيفاً في مقطوعة له، ويعطيها بعض أوصاف البحر في عظيم أهواله، وطغيان مده على ما جاوره من ساحل، وهذا السيف إذا ما ارتفع ولمع تحت الضوء، فإنه كأمواج البحر لمعاناً. يقول فيها :

قَدْ أَرانَا مُكافِحُ الأُسْدِ سَيْفاً ... حَدهُ فِي طَلا عَداه ولُوجُ
فَرأيْنَا فِي دسَّتِه بَحْرَ بَأسٍ ... مُدّ مِنهُ إلى الضِّرابِ خَلِيجُ
وحَسبْنَا الفِرِندَ أَرجلَ نَملٍ ... عَبرتْ مِنهُ جُدُولاً لَا يَمُوجُ[2].

وقال ابن حمديس قصيدة يتشوق فيها إلى موطنه بصقلية، وقد حال البحر بينه وبين موطنه، يقول فيها :

وَراءكَ يَا بحرُ لِي جَنّـــــــــــةٌ ... لبســـتُ النّعيمَ بهـــا لا الشَّقاءَ
إذَا أنا حَاولتُ منهـــا صَباحـــــــاً ... تَعرضـــتَ مِن دُونهـــــا لي مَساءَ
فَلو أنّني كُنتُ أُعطي المُـــــــــنى ... إذَا مَنَعَ البَحرُ منهـــــا اللِّقَاءَ
رَكبتُ الهِلالَ به زُورقـــــــــاً ... إلى أنْ أُعَانقَ فيها ذُكـــــاءَ[3].

وللعرب أشعار كثيرة في الحنين إلى الأوطان، والأهل، والأحباب، ولقد أرجع عبد العزيز عتيق توسع شعراء الأندلس في الحنين على شعراء المشارقة إلى أمرين، أولهما: التقليد الذي جرى عليه الأندلسيون من الرحلة المطردة إلى المشرق لطلب العلم، وثانيهما: أن معظم من رحلوا من الأندلس

---

(١) سورة هود، وهي الآية التي يراها محقق الديوان .
(٢) ديوان ابن حمديس ص٧٧.
(٣) المرجع السابق ص٤.

– وما أكثرهم – كانوا من ذوي القلوب والأقلام الشاعرة[1]"، وأضيف سبباً آخراً في توسع شعر الحنين عند الأندلسيين، وهو انتقال الشعراء من مدنهم وقراهم، إما هرباً من عدو، أوملازمة الملوك والأمراء، والبحث عن سبل للمعيشة الرغدة.

لم يكن كل الشعراء نظرتهم للبحر وما فيه نظرة تشاؤمية، حيث إنَّ منهم من ينظر إلى البحر من منظور أوسع، قادر على استيعاب الحقائق، ووضع الأمور في نصابها، فهناك المتفائل في نظرته للبحر، وذلك على العكس ما كان عليه ابن خفاجة، ونظرته التشاؤمية، إذ ينظر إلى البحر، ورزقه إلى أنه بعيد المنال، وصعب المركب، ووسيلة للهلاك، ولكن إذا تأملنا البحر وجدنا أنعم الخالق- سبحانه وتعالى- فيه كثيرة، وأرزاقه وفيرة، فقد يسر الله تعالى فيه سبل الرزق للخلائق، فهذا البحر عظيم الأرزاق، وافر النعم ...

إنَّ هذا الدر الذي يستخرج من أعماق البحار؛ استخدمه الشعراء للربط بين جمال أسنان المحبوب، وبين بياض الدر ولمعانه، فقد لاحظ الشعراء أحوال البحر، وما يعيش في أعماقه، فقالوا به شعراً، وقد تنبه الشعراء إلى كل ما حولهم، وحاولوا ربط صور الطبيعة الغناء الجميلة بعضها ببعض، ونجد ذلك في شعر ابن حمديس، وذلك حينما تغزل بحسناء زارته على خوف من رقيبها، فأخذ يرسمها لنا على لوحة من الطبيعة المحيطة به، ويلون رسومه بالتشبيهات البليغة، ويزخرفها بالخيال الواسع، فحالتها الخوف كالظبية يطردها الذئب، ولونها الكافور بياضاً، وعطرها المسك، وريقها الجدول البارد، وأسنانها كاللؤلؤ بياضاً ولمعاناً، وزمن مكوثها عنده فترة جلسة الخطيب بين الخطبتين، فهي قصيرة في وقتها، بليغة في أثرها، يقول فيها :

زَارتْ عَلى الخَوفِ مِنْ رَقِيـــبِ ... كَظبيةٍ رُوّعــــــــــتْ بِذِيبِ
كَافورةٌ في بَياضِ لَـــــــونٍ ... وَمِسكـــــــــةٌ في ذَكِيٍّ طَيبِ
كَادتْ تَروِّي غَليلَ صَـــــــبٍّ ... فُؤادُه مِنــــــــــهُ في لَهِيبِ

---

(١) الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، ص ٢٧٠-٢٧٣.

مِن ثَغَبٍ بَاردٍ حَصـــــــــــاهُ مُنظَّمُ اللؤلـــــــــؤِ الشَّنيبِ
حّتى إذَا ما طَمعتُ مِنــــــــهُ بِحَسْوةِ الطـــــــــائرِ المُريبِ
ولّتْ فَقُلْ في طُلوعِ شَمــــــــسٍ قدْ أخَذتْ عَنـــــهُ في الغُروبِ
كَانَ زمانُ اللقَاءِ مِنهـــــــــــا أقصرَ مِنْ جِلسةِ الخَطيبِ[(١)].

ففي هذه الأبيات نجد أنَّ الشعر قد تصور ريقها في عذوبته بجدول الماء المنحدر من قمم الجبال، وصور لنا أسنانها في حسنها وجمالها كارتصاص الدرر في العقد. ويشبه في موقف آخر جمال أسنان جارية عنده بجمال الدر، وأعظم من ذلك، لذلك غار منها الدر الذي في البحر عندما علم بخوضها البحر، فأغرق الجارية إلى أعماقه، حيث إن الدر موطنه الأعماق، فأخذها إليه، ووضعها بين الدر، وقد قال عبد الجبار هذه القصيدة في رثاء جارية له، ماتت غريقة في البحر عند خروجهم من الأندلس إلى أفريقية. يقول فيها:

لاَ صبرَ عَنكِ وكيفَ الصَّبرُ عَنكِ وقدْ طَواكِ عَن عَينيَ الموجَ الذَّي نَشرِكْ
هَلاّ، ورَوضةُ ذَاكَ الْحُسنِ نَاضِرةٌ لاَ تَلحظُ العَينُ فيها ذَابلاً زَهَركْ
أمَاتكِ البَحرُ ذُو التَّيارِ مِن حَسدٍ لمّا دَرى الدُّرُّ مِنهُ حَاسِداً ثَغركْ [(٢)].

وفي قصيدة يمدح بها الأمير علي بن يحيى [(٣)]، جعل مطلعها في الغزل بحسناء، فاتنة الجمال، قد سحرت بنظرةٍ منها من شاهدها، فهي ذات شفاه لطيفة، إذا ابتسمت أبدت أسناناً تبرق كاللؤلؤ الثمين. يقول فيها :

صَادَتْكَ مهـــــــــــاةٌ لمْ تُصَدِ فَلواحِظُها شَرَكُ الأُسُــــــــــــدِ

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٦.
(٢) المرجع السابق ص ٢١٢ .
(٣) علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ،السلطان أبو الحسن الصنهاجي ،ملك الغرب ،ولد بالمهدية في صفر سنة تسع وتسعين وأربع مائة ،وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وخمس مائة ،تولى الملك عند وفاته والده ،ينظر ترجمته عن الصفدي في (الوافي بالوفيات ج٢٢ ص١٩٠) .

مَن تُوحـــي السِّحـــــر بناظرةٍ لا تُنْفَثُ مِنه في العُقَـــــــــدِ
لَمِياءُ تُضـــاحــــــكُ عَن دُررٍ وبُروقِ حَياً، وحَصى بـــــــــــردِ
يُندى بالمِسّـــكِ لِراشِفـــــــــه وسلافِ القَهوة والشَّهــــــــــدِ[1].

ويصور لنا في مطلع قصيدة غزلي، يمدح بها الأمير يحيى أسنان فتاة أعجبته، وأكثر ما لفت انتباهه لها أسنانها عندما ابتسمت عن العقدين المرصوصين من الجمان. يقول فيها :

سَنحتْ في السِّربِ مِن حُورِ الجِنانْ ظَبيةٌ تَبسمُ عنْ سِمطي جُمَانْ
وكأنَّ العَيْنَ مِنها تَجتلي بَـــــــــرداً، لِلبرقِ فيهِ لَمعانْ[2].

وهذه موشحة للأعمى التطيلي، يبين فيها جمال المبسم الذي شابه عقد الجمان، وحسن الطلة التي ضارعت بدر السماء، يقول فيها:

ضَاحكٌ عنْ جُمـــــانِ سَافرٌ عنْ بـــــــــدرِ
ضَاق عنهُ الزَّمـــــــانُ وحَواهُ صـــــــــــدرِي[3].

نجد أن الكثير من شعراء الأندلس قد افتتنوا بجمال المرأة ومحاسنها، لذلك أبدعوا في تشبيه مفاتنها بالأشياء الجميلة من حولهم، وأكثر ما شد انتباههم بياض الدر، ولمعانه، وندرة وجوده، ومشقة اقتنائه، فقد شبهوا ثغر الممدوح باللؤلؤ بجامع البياض، واللمعان، والحسن، والانتظام، "فالغزل الأندلسي على الرغم من تطوره شكلاً ومضموناً، وعلى الرغم من كون الشعراء أفردوا له قصائد مستقلة، فإننا نجد بعضهم استمر في جعله فاتحة للقصائد على عادة الجاهليين[4]"، كما رأينا في شعر ابن حمديس، وما نقرؤه في شعر ابن زيدون، وابن دراج. .. وغيرهم.

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ١٥٨.
(٢) المرجع السابق ص ٥٠٢ .
(٣) نفح الطيب ج ٧ ص ٧ .
(٤) المعتمد بن عباد شاعر المجد والانكسار، آمنة بنت منصور ،دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٣ م، ص ٢٧.

وأما ربط الشعراء للدمع الغالي بالدر، فقد اهتم العرب بالجمال، وبالمناظر الجميلة، واهتموا بتزيين الأشياء، وزخرفتها؛ حتى تخرج في أحسن حلة، فبنوا القصور، والمساجد وغيرها، وأبدعوا في تزينها، فبقت معالم خالدة في نفوس المسلمين يتفاخرون بها، ويتغنون بجمالها، ولم يقتصر اهتمامهم على المباني فحسب، وإنما تعدى ذلك إلى كلامهم، فينتقون الكلام كما ينتقون أطايب التمر، وينظمونه كما ينظم الدر في العقد، ومن شدة ولع شعراء الأندلس بالدر، ذلك الذي مكمنه البحر، لما فيه من جمال، ولما في استخراجه من الأعماق مشقة وعناء، تغنوا به، فذكروه في قصائدهم، فلم يغفل الشعراء عن تشبيه الدمع بالدر، فالدمع غالي، لا ينزل لأدنى الأسباب، ولا يرخص الدمع إلا في أم حنون، وأب عطوف، وأخٍ رحيم، وصاحبٍ وفيّ. يقول ابن خفاجة:

فَرُبَّ لُؤلؤِ دَمعٍ كُنتُ أذخَـــــرُهُ عِلقاً[١] أُغالي بهِ، أرخَصتُـــهُ فِيك[٢].

فهو قد ادخر هذا الدمع، وخبأه لقدر دمعه الغالي عنده، ولكن أرخصه في حق الأمير أبي بكر؛ لعلو منزلته عند الشاعر، فهو من القلة الذين يرخص فيهم دمعه، ولابن الحداد مطلع قصيدة قالها في الغزل، يقول فيها :

أَسالتْ غَداةُ البَينِ لُؤْلؤ أجْفانِ وأَجْرَتْ عَقِيقَ الدَّمْعِ فِي صَحْنِ عِقْيَانِ

فلما حان وقت البعد والفراق، ورأت عزمه على الرحيل، تساقطت دموعها كالآلئ، وانحدرت على خدها، فمر الدمع على وجنتها الحمر، فتشرب لونها، وأصبح كالعقيق الأحمر، وقطرات الدمع تبرق على خدها كالذهب الخالص، وليس ببعيد عن هذا المعنى قول ابن حمديس :

وَحَمّرَ دَمعيَ المِبيضِّ حُزْنٌ يَذُوب بَحرّه قَلبي المشُوقُ

---

(١) علقاً: نفيساً.

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٢٢٢.

(٣) ديوان ابن الحداد الأندلسي، تحقيق : يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص٢٩٨.

كَأَنَّ العينَ تُسْقِطَ مِنه عَيناً فلُؤلؤهُ، إذَا ذَرفتْ، عَقيقُ[1].

ويقول في موقف آخر:

أضْحَكَ الله مَن بَكى بِجمَـــانٍ رَحمةً للذِّي بَكى بِعقِيـــــقِ (٢).

ويقول ابن حمديس في موضع آخر، مشبهاً دموعه المنحدرة شوقاً لمحبوبه، وقد تغير لونها من بياض اللؤلؤ إلى حمرة العقيق:

شَـــــــــوقِي إليكِ مُجَـــدَّدٌ يُبْلِي جَديـــــدَ تَصـــــــبرِي
وجَوانِحِي يَجنحنَ مِـــــــــنْ حُـــــــــــرقِ الـهَـــــوى
نَقلتْ مِن الدَّررِ الدُّمــــــــوعَ إلى العَقِيـــقِ الأحْمـــــــــــــرِ
ولَبسْتُ فِيه مِن الضَّـــــــنى عَـرضَـاً يُـــلَازم جَوهـــــــرِي[3].

فالدمع كاللؤلؤ بياضاً، والخد كالعقيق حمرةً إذا كان ذلك الدمع من الجواري الحسان، أما الشاعر إذا أبكاه الشوق، ولج به الحنين، فإن دمعه يمتزج مع دمه الذي يسري بعشق صاحبه، فينهمر دمعه أحمر كالعقيق،وفي موضع آخر يشبه الدمع عند نزوله من العين، واختلاطه بالكحل، بالجمان الذي اختلط بماء اللازّورد:

جَرَى دمْعُها والكُحلُ فِيه كَأَنَّهُ جمَانٌ بِماءِ اللازّوردِ[4] مَشُـــوبُ[5].

وفي مقدمة غزلية لابن اللبانة يودّع فيها محبوبته، وقد انسكب الدمع على خده، وهاض

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٣٣٣
(٢) المرجع السابق ص٣٣٢.
(٣) المرجع السابق ص١٧٨.
(٤) اللازورد: من الأحجار الكريمة، لونها أزرق سماوي أو بنفسجي، يكثر في أفغانستان وأمريكا، يستعمل للزينة.
(٥) ديوان ابن حمديس ص ٣٨.

القلب لبعده، وتحرك اللسان من ألم فراقه، يقول فيها:

بَكتْ عِندَ تَوديعِي فَما عَلم الرّكبُ　　　أذَاكَ سَقيطُ الطِّلِّ أمْ لُؤلُؤٌ رَطبُ[(١)]؟

حان الرحيل وأيقنت بالفراق، ومفارقة الأهل والأصحاب، فانهمرت دموعها تبل الثراى وجداً على معشوقها الذي سوف تبتعد عنه، ويتساءل من في الركب عن حالها، والدمع يجري على خدها، فعند سقوط الدمع على وجنتها البراقة، وعلى خدها الكافوري، توهم الرائي أن ذلك الدمع لؤلؤاً من جمالها.

أما وصف الشعراء للكلام بالدر فذلك كثير في دواوينهم، فأعين الشعراء القناصة لأدنى المواقف اليومية، وقدرتهم على ربطها مع صور الطبيعية بعد مزجها بخيالهم الواسع، يرسم لنا صورة جديدة ليست ببعيدة عن مرآنا، ولكن هي بعيدة عن تصور ربط الشاعر لها، فيتبادر إلى أذهاننا من أول وهلة تساؤل فحواه، كيف أتى بهذه الصورة ؟ فهم ينتجون لنا صوراً جديدة، مستنبطة من الطبيعة المحيطة بهم، لذا نجد أن مسامع الشعراء ليست ببعيدة عن أبصارهم الثاقبة، فمسامعهم معتادة على الفن والجمال، ومدربة على اقتناص الأخطاء، وتذوق الجمال، فنجد أن أبا إسحاق الإلبيري يلتفت في هذه الأبيات إلى الثرثارين، والمتشدقين، ويذكر فضل الصمت والقصد في الكلام، إلا عن كلام فيه فضل، وتقى، وذكر للرحمن ﷻ :

ولَوْ أنَّني أدْعُو الكَلامَ أجَابنــــــي　　　كإجَابَةِ المَأسُورِ دَعوةَ آسِــــــــرِ
لكنْ رَأيتُ نَبيّنا قـــــدْ عَابَـــهُ　　　منْ كُلِّ ثَرثَارٍ وأشْدقَ شَاعـــــرِ
فَصَمَتُّ إلاَّ عَـــــن تُقًى ولَرُبَّما　　　قَذفتْ بِحارُ قَرِيحَتي بِجَواهــــــرِ[(٢)].

فالشاعر يدعو إلى الصمت، والزهد، وعدم الإكثار من الكلام، لأن من كثر كلامه كثرة

---

(١) ديوان ابن اللبانة الداني، تحقيق: محمد مجيد السعيد، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م، ص ٢٦.

(٢) ديوان أبي إسحاق الإلبيري ص ٩٣.

أخطاؤه، ولكنه إذا تحدث لا يتحدث إلا عن علم، فهو يغرف من بحر علمه، ويقذف من جوهر قريحته، وجوهر البحر الدر الثمين لا الخرز المهين. ولابن حمديس قصيدة قالها في مدح الحسن بن علي بن يحيى. يقول فيها :

كَأنَّ زُهْرُ الدَراري فَيه قدْ نُظِمَتْ ... كَما تُنظّمُ في أسْلاكِها الدُّررُ

يَا مَن تضَاعفَ فَيْضُ الجُودِ مِن يَدهِ ... كَأنَّما البَحرُ مِن جَدْوَاهُ مُختصِرُ [1].

ليس أي نظم فيه عمل، وليس أي شعرٍ فيه قيل، وليس أي در فيه عقد، بل اختار الدر النقي صافي اللون ناصع البياض، الذي جهز من أجل الممدوح، فهو أهل للمدح والثناء، وهو أهل للكرم والعطاء، فهذا البحر أمام كرمه وهباته كأنه مختصر من أعطياته، فيرى ابن حمديس تلك الكلمات كأنهن الدر في ارتصاصها، وتماسكها، وحسنها، وجمالها، فإذا سقطت درة من الدرر، فسد انتظام العقد وجماله، ولا يرى سلك ذلك العقد سوى الأذان المتيقظة، المولعة بالجمال. وقريب من هذا قول المعتمد بن عباد، الذي يجعل من كلماته الدرر الثمين، الذي استخرجها من بحر قريحته لينثرها على المسامع، وقد أبدع نظمها من بنات أفكاره، وجعل الوزن لها سلكاً، والقافية لها عقداً، يقول فيها :

نَثَرتُ دُرّ القَريـــضِ نَثـــــرا ... يَقُـــومُ ذِهني لَـــهُ بِسِــــــلكِ

فَقلُتُ لِلَّه دَرُّ ذهـــــــــــنٍ ... يُخرجُ دُرّاً مِنْ بَحر فَـــــــكِّ [2].

وابن حمديس في ختام قصيدة له في مدح المعتمد بن عباد، يصف حال المتزاحمين على باب المعتمد، فقد ناداهم كرم الممدوح إلى بساطه، وتسابقوا للنيل من أعطياته، فهم يغرفون من بحر المعاني العميق؛ ليقذفوا بِدُرِ القوافي الرزين، وهو يهدي لهم من بحر كرمه من الدر الغالي الثمين.

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٢٥١ .

(٢) ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، جمع وتحقيق :حامد عبد المجيد، وأحمد أحمد بدوي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠م، ص ٥٨ .

يقول فيها :

يَا مُعلياً بِعُلاهُ كلُّ مُنْخَفِضٍ ومُغنياً بِنداهُ كلُّ مُفتقِرِ
هلْ كانَ جُودُكَ في الأمْوالِ مُقتفِياً آثارَ بأسِكَ في أُسْدِ الْوغَى الهُصُرِ
نَادى نَداكَ بنيِ الآمَالِ فازْدحمُوا بالوَاخِداتِ عَلى الرّوْحَاتِ والبُكَرِ
كَما دَعا الرَّوضُ إذ فاحتْ نَواسمُهُ روّادَهُ بنَسيم النُّورِ في السَّحرِ
يَهدي لكَ البَحرُ مِما فيهِ مُعْظَمَهُ والبحرُ لا شكَ فيهِ مَعدنُ الدّررِ
إنَّا لَنخجلُ فِي الإنشَادِ بينَ يَدَي ربِّ القَوافِي الَّتي حُلّينَ بالفَقرِ
مَنْ ملّك اللهُ حُسنَ القولِ مِقولَهُ فلَو رآه ابنُ حُجْرٍ عادَ كالحُجرِ [1].

وقفوا على بابه طالبين لرجائه، ومتأملين عطائه، فقد دعاهم جوده وكرمه كما يدعو نسيم الروض رواده، فهؤلاء الشعراء يهدون له من بحر أفكارهم جواهر شعرهم، منتقين ألفاظهم ومعانيهم، مبدعين في تزيينها كعقد اللؤلؤ الأنيق، وهو يجازيهم من در بحره الذهب الصافي الثمين، الذي يقدر حجمه ومثقاله أذن الخليفة السامعة إلى بديع بيانهم.

وقد اهتم الملوك والأمراء بالعلم، والأدب، والشعر، والشعراء، فأدخلوا إلى الحياة الأدبية في الأندلس شيئاً من التنظيم، " فقد جعل للشعراء ديوان، قيدت فيه أسماؤهم، وقدرت أعطياتهم، بحسب مراتبهم من الشعر "[2].

وذهب ابن زيدون يكتب إلى أبي القاسم بن رفق، ويظهر له إخلاصه، ويرجو في ختام القصيدة أن يجيبه على قصيدته، ويرد عليها بما اعتاد منه، من قول فيه جودة في الأسلوب، وحسن في التأليف، وبلاغة في القول، فقد ارتفع وعلا صيته بين البلغاء، حتى عـلا شأنه، ومنزلته على سهل بن هارون، وعـلى عمرو بن بحر الجاحظ. يقول فيها :

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٢٠٨.
(٢) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس ،دار الثقافة، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٨٥م، ص ٧٦.

وَاكسُ مَتنَ القِرْطَاسِ دِيباجَ لَفْظٍ يُبهِرُ الفكرَ مِـــــنْ نَظيمٍ ونَثرِ
غُررٌ، مِن بدائعٍ، لا يَشكّ الدّهْرُ فـــي أنّهـــــا قَلائدُ درّ
تَتوالى عَلى النُّفُـــــوسِ، دِرَاكـــاً عَنْ فَتىً مُوسِرٍ، من الطَّبْـــعِ، مُثرِ
شَــــــدّ في حَلبَةِ البَلاَغَةِ، حَتَّى بَانَ فِيهَا عَنْ شَأوِ سَهلٍ وَعَمرِو
وَإذا أَنْتَ لمْ تُعجِّلْ جَوَابِـــي كَانَ هَذَا الكِتابُ بَيْضَةَ عُقْرِ[1]
فابْقَ في ذمّةِ السّلامةِ، مَا انْجابَ عــــــنِ الأُفقِ، عَـــارِضٌ مُتَسَرّ
وَعَليكَ السَّلامُ ما غَنّتِ الوُرْ قُ، ومَالَتْ بهَا ذَوائِبُ سِـــــدْرِ [2].

يدعوه إلى الكتابة على ظهر الورقة بديباج الألفاظ، وحلو المعاني، التي تبهر العقل، وتحيّرَ الفكر، وتبعث في النفس السرور شعراً كان أو نثراً، من البدائع النفيسة المحبوك نسجها، الماهر في نظمها، البليغ في انتقاء ألفاظها، حتى إذا قُرِأت أو سُمِعت لا يشك سامعها بأنها عقد من الدر في جمالها، وانتظامها، وحسن طلتها، فإن لم يلقَ لرسالته بالاً، وترك الرد عليها، ولم يرض عنه، كان هذا الكتاب كبيضة العقر، وسيكون آخر كتاب يرسله إليه.

وكتب الوزير الكاتب أبو الوليد بن المعلم[3] إلى المعتمد قصيدة، فأجابه عليها بقصيدة مطلعها :

حُمْتَ بخَفَّاقَةِ الجَنَاح، وقَدْ أمكَن وِردٌ، فلا يَطُل حَومُ [4].

فرد عليه الوزير بهذه الأبيات التي يظهر فيها إعجابه بما أجابه على قصيدته، فلا يعلم بأي

---

(١) بيضة العقر : أول بيضة تبيضها الدجاجة ،وقصد الشاعر أن كتابه هذا سيكون آخر كتاب يرسله إليه.

(٢) ديوان ابن زيدون، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ص ١٢٧.

(٣) هو أبو الوليد محمد بن عبد العزيز بن المعلم، يكنى بأبي بكر، أديب شاعر، يروي عن أبيه، وهو أحد وزراء المعتمد بن عباد، ينظر ترجمته عند الحميدي في (جذوة المقتبس ص٤١٥)، وابن سعيد في (المغرب ج١ ص١٨١) .

(٤) ديوان ابن عباد ص ٦٢.

شيء جميل يصفها به :

دُرّاً بَعَثتَ مُفصّـــلاً بِجُمـــــانِ أَوْ رَوضَـــــةً مِسكيَّة الريْحَـــانِ
لاَ بَلْ عُروساً قَد زَفَفتَ تولّـــدتْ مَا بَينَ فِكـــــرٍ ناقِدٍ وَبَنـــــانِ
سَمْعاً لأمرك إِذْ دعَوتَ إِلى الَّـــتي تَدَعُ القُلوبَ قَليلَةَ الأَحــــزَانِ[1].

لا يعلم بما يصف ما جاءه من أبيات أرسلها له ابن عباد، فقد احتار أهو كالدر في تناسقه، وعذوبة ألفاظه، أم كالروضة الندية التي يلاعب النسيم العليل رياحينها، فيفوح في الأرجاء العبق الذكي، ثم يدرك بعد ذلك أنَّ ما جاءه إلا قصيدة كالعروس، خرجت من فكرٍ مستعر، حاضرِ البديهة، وعاطفةٍ صادقةٍ، ولسانٍ قادرٍ على البيان والإفصاح. وفي موضعٍ آخرَ كتب المعتمد إلى ابن زيدون أبياتاً، وكان مجلس ابن زيدون منحطاً عن مجلس المعتمد بن عباد في القعود؛ إنفاذاً لأوامر أبيه المعتضد :

أَيُّها المُنْحَطُّ عَنّي مجلســــــــــاً وَلَهُ في النَفس أَعْلى مَجلِـــــــسِ
بِفـــؤادي لكَ حُبٌّ يَقتَضــــــــي أَنْ تُرى تُحمَلُ فَـــــوقَ الأرؤسِ[2].

فأجابه ابن زيدون بهذه الأبيات :

أسقَيطُ الطّلّ فَوقَ النّرجِسِ أمْ نَسيمُ الرّوضِ تحتَ الحِندِسِ
أمْ نِظامٌ للآلِ نسَقٍ جامِعٍ كُلَّ خَطِيرٍ مُنْفِسِ
أمْ قَرِيضٌ جَاءني عَنْ مَلِكٍ مَالِكٍ بالبِرّ رِقَّ الأنْفُسِ[3].

فجواب ابن زيدون على المعتمد بن عباد قريبٌ من قول الوزير أبي الوليد، فكلاهما افتتن بسحر كلامه، وبديع بيانه، فلا يعلم بما يصفه، حتى إنه ليتوهم له أنه يرى عقداً من اللؤلؤ النفيس

(١) ديوان ابن عباد ص ٦٢.
(٢) المرجع السابق ص ٥٧.
(٣) ديوان ابن زيدون، ص ١٤٩.

قد جمعت مع بعض، وأبدع في نظمها، فسرت الناظرين.

وقد كثر عندهم تشبيه الكلام الموزون الرزين، الذي فيه إبداع، وفيه من البيان، والدقة، و الانتقاء بفرز الدر واختياره. يقول ابن عباد :

كَلامُكَ حُرٌّ وَالكَلامُ غُـــــــلامُ وَسِحرٌ وَلَكِن لَيسَ فيهِ حَـــــرامُ
وَدُرٌّ وَلَكِن بَينَ جنبيكَ بَحــــرهُ وَزَهرٌ وَلَكِن الفُؤادَ كِمـــــامُ [1].

ولقد كان الشعراء في خشية دائمة من " العين الناقدة، وهذا أمرٌ مهمٌ، يدفعها لاختيار الحسن من القول مبنى ومعنى [2]"، ونلمس ذلك في انتقاء ابن حمديس لبنات مفرداته، بغوصه في بحور أفكاره. يقول فيها :

لمْ يَخرجْ الدرُّ الذّي زُيْنتُ بهِ إلاّ بغَوصٍ فِي البحُورِ قَريبِ
أمَّا بَناتِي المفْردَاتِ فإنَّها في الحسْنِ أشْهرُ مِن بَناتِ حَبيبِ[3].

وليس ببعيد عن هذا قول ابن اللبانة :

هُو الشِّعرُ مِن درٍّ رطيبٍ نَحتهُ وقدْ تَنحتْ الأشْعارُ مْن حَجرٍ صَلدِ[4].

لمعان الماء وصفائه، وسهولة انسيابه بين الرياض والبساتين، وصوت خريره، وهدير أمواجه تمتّع العين بمرآها، وتطرب الأذن بمسمعها، فإذا أبصر البحر ولجته، وتأمل لمعانه بشعاع الشمس، وضوء القمر تذكر اللؤلؤ الذي مكمنه ظلمات البحر، فبياض لون اللؤلؤ يذكرهم أسنان المحبوب، ولمعان الدمع على الوجنتين، يذكرهم بلمعان الدر وصفائه، ولقد اتخذ الشعراء من قيمة الدر،

---

(١) ديوان ابن عباد ص ١١٣.

(٢) المقومات الفنية في القصيدة الأندلسية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، عبد الله علي ثقفان، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ٢٠٠١ م، ص ٢٣٨.

(٣) ديوان ابن حمديس ص ٦٢.

(٤) ديوان ابن اللبانة ص ٥٢.

وندرته، ومشقة استخراجه وصفاً لكلامهم البليغ الموزون المنتقى، فالشعر يحتاج إلى إعمال ذهن، وتنقيح، وترتيب، وتقديم، وتأخير، ويحتاج إلى ميزان يزنه : وهو الوزن والقافية، وكذلك الدر في العقد، يحتاج إلى ترتيب، وإعادة نظر، كالبيت من الشعر، لذلك وصفوا حُسن القول بالدرر، فالدر يفرز حسب موضعه من العقد، وكما أنَّ في الدر مشقةً في استخراجه، فهو يحتاج إلى غواص ماهر يغوص في البحر؛ ليخرج الدر من أعماقه، فالأديب يغوص في بحر أفكاره؛ ليستخرج در المعاني، وينثرها على المسامع.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أنَّ بعض الشعراء قد أسرفوا في تشبيه الدر، حتى وصل بهم الحال إلى أن شبهوا لون الدر بلون البول -أجلكم الله - ، ومن أمثلة ذلك: قول ابن خفاجة في وصف مجلس أنس، يشرب فيه الخمر :

رُبَّ ابنِ ليلٍ سَقَانَا والشَّمسُ تَطلُـــــعُ غرّهْ
فَظَلّ يَسوَدُّ لَوناً وَالكَأسُ تَسْطَـــعُ حُمرَهْ
كَأنّهُ كُدسُ فَحْمٍ قدْ أوقِدَتْ مِنْـــهُ جَمرَهْ
وَ لِلمُــــــدَامِ مُدِيرٌ يَشُبّ جَمــــرَةَ خَمرَهْ
تَضَاحَكَتْ عَنْ حَبـــابٍ يُقبّلُ المـــاءُ ثَغرَهْ
فَظِلتُ آخُذُ يَاقُو تَةً وَأَصـــــرِفُ دُرَّهْ [(١)].

لعله لم يجد لوناً يماثل لون الخمر في الكأس إلا الياقوت في حمرته ولمعانه، ولم يجد ما يضاهي الأحجار الكريمة إلا اللؤلؤ، فالياقوت أحمر، واللؤلؤ أبيض يميل في بعض الأحيان إلى الصفرة، فكأنه يشرب الياقوت، ويطرحه بولاً كاللؤلؤ.

من الظواهر الطبيعية التي رصدوها لنا في مياه البحار، ظاهرة المد والجزر التي تصيب مياه البحار، فمياه البحر تمتد على طول الساحل، وترتفع لتغطي السواحل في أوقات معينة، ثم بعد

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٧٣ .

ذلك تنحسر في أوقات أخرى، ويظهر ذلك جلياً عندما يكون القمر بدراً، وقد جعلوا هذا المد والجزر لموج الليل الذي يغطيهم. يقول ابن خفاجة :

يَا ليلَ وجدٍ بنجدٍ أمَا لطَيفِكَ مَسْرَى؟
ومَا لدَمعي طَليقاً وأنجُمُ اللّيلِ أسْرَى؟
وقدْ طَمَى بحْرُ لَيلٍ لمْ يُعقِبِ المَدَّ جَزرَا
لا يَعبُرُ الطّرفُ، فيهِ، غيرَ المجَرةِ جِسرا [1].

يظهر في مقطوعة الشاعر الحزن والأسى، فالليل زمن التأمل، والتفكير، والوحدة، فأطلق الشاعر العنان لعواطفه؛ لتسيل معها دموعه، وكلما زاد الهم بصاحبه كما حل بشاعرنا طال ليله، فينتظر نور الصباح، ليشق ظلمة الليل، ويبدد الأحزان بنوره، ليشع بياضاً، ويزيل الكآبة، وظلمة الهم، والشاعر يتعجب من هذا الليل الذي حل بهم، فهو كالبحر الذي غطاهم بمده، ثم لم يتبع ذلك المد جزر كالعادة، بل طال عليه ذلك المد وهو الليل، وينتظر الجزر يأخذ معه ظلمة الليل، لينبثق نور الصباح، ولطالما كان الليل كالبحر عند الشعراء، فهو يرخي ستاره على نور الشمس؛ ليعيش الشاعر بين ظلامه لحظات التأمل والتفكير، ويختبر الليل صبره بأنواع الهموم، كما يقول امرى القيس :

ولَيلٍ كَمَوْجِ البَحرِ مُلقٍ سُدُولَهُ عَليَّ بأنْواعِ الهُمُومِ لِيَبتَلِي [2].

وابن حمديس يرى في الليل مد موج الظلام على الشمس، فيختفي نورها، وتحل الظلمة، وتنير النجوم، وإذا بدا نور الصبح بالشروق فكأنه موج البحر يأخذ أمواجه بالجزر :

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ١٥٥ .

(٢) ديوان امرئ القيس وملحقاته، شرح :أبي سعيد السكري تحقيق :أنور عليان أبو سويلم ،محمد علي الشوابكة ،مركز زايد للتراث والتحقيق، العين – الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ م ،ج ١ ص ٢٣٩ .

كأنَّ الثريَّا في انْقضَاض أفُولها وِشاحٌ مِن الظَّلماءِ حُلّ عنِ الخصرِ
كأنَّ انهزامَ اللَّيلِ بعدَ اقْتحَامِه تَموُّجُ بحرٍ ناقضَ المدَّ بالجَزرِ
كأنَّ عَصَا مُوسَى النَّبيِّ بِضربِها تُريكَ مِن الأظْلامِ مُنفَلقَ البَحرِ
كأنَّ عَمُودَ الصُّبحِ يُبْدِي ضِياؤُه لِعينيْكَ مَا في وَجْهِ يَحيى مِن البِشْرِ [(١)].

أخذ بوصف رحيل الليل، وإشراق شمس النهار، بانقضاء النجوم وأفولها، ويشبه أفول النجوم وخروج الصبح، بالوشاح الأسود إذا حُل عن خصر الحسناء، ليظهر بياض جسدها بعد أن كان مغطى بظلمة الوشاح، الساتر لمحاسنها، والليل كأنه جيش يمد عليهم في تموج كالبحر، ويقتحم المكان عليهم فجأة، ثم ينسحب بالتدريج كما دخل عليهم، فهو كموج البحر يغطي الساحل، ثم ما يلبث أن تأخذ أمواجه بالجزر، وتغادر رمال الساحل، لتشرق الشمس، وينتشر نورها في السماء، وهو في هذه اللحظات كأنه يرى وجه الأمير يحيى بن تميم بن المعز، وما في وجهه من البشر والإشراق.

لقد عرف الأندلسيون البحر، وتأملوه، وشاهدوا ظاهرة المدر والجزر التي تحرك مياه البحار والأنهار، حتى أنه قد بُنيت المدن والقصور على ضفاف الأنهار، و على شواطئ البحار، وكانوا على معرفة بحساب المد والجزر، حتى لا يدخل الماء على بيوتهم فيغرقها. يقول ابن حمديس :

ولمْ أرَ أرضَاً مِثلَ أرضكُمُ الَّتي يُقبّلُ ذيلَ القَصرِ في شَطها البَحْرُ
يَمدّ كَجيشٍ زَاحِفٍ فَإذا رأَى عَطاءً عَليّ كانَ مِن مَدّهِ جزرُ
أمَا يَخجلُ البَحرُ الأجُاجُ حُلولُه بِبحرٍ فُراتٍ مَا للجَّتهِ عِبرُ
جَوادٌ إذَا أسْدى الغَنىُ مِن يَمينِه تَحوّلَ عنْ أيمانِ قصّادِهِ الفَقرُ[(٢)].

يتعجب الشاعر من تلك الأرض التي بني عليها القصر، حيث كان القصر قريباً من البحر بما يكفي لتلامسه المياه عند مدها طرف القصر، وليس بالملامسة القوية التي يدخل فيها الماء إلى

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٢١٥ .
(٢) المرجع السابق ص٢٤١.

القصر ويغرقه، وإنما شبه تلك الملامسة بالتقبيل، فهي ملامسة ناعمة، تضيف إلى القصر شيئاً من الجمال والإشراق، ولم يكن لملامسة البحر لجانب القصر بهذه الصورة، إلا أنَّ البحر إذا أراد أن يتقدم بأمواجه إلى القصر، ويمتد عليها ويدفع بخيراته، نظر إلى عطاء صاحب القصر، فخجل وبدل المد منه إلى جزر، وانحسر ماؤه عن القصر، ويتعجب من البحر الأجاج، كيف يبقى في جوار بحرٍ قد طاب مشربه، وعلا شأنه، فموجه قد شمل الأرجاء بفيض كرمه وإحسانه.

وقد استخدم ابن حمديس ألفاظ المد والجزر، التي تصيب مياه البحر، في قصيدة له يجاوب عن بيتي شعر كتبهما إليه بعض شعراء المغرب، وكان الرجل المذكور قد سافر إلى مصر، ثم عاد إلى وطنه. يقول فيها :

طَلَعْتَ عَلى مِصرَ ونُورُكَ سَاطِعٌ ... فقَالُوا : هِلالٌ طَالِعٌ مِن مَغاربِهِ
وفِي المغْربِ البَحْرُ المحيطُ وقدْ عَلا ... عَلى نِيلِ مِصرَ مِنه مَدّ غَواربِهِ
وَلمَّا انْثَنى بِالجُزرِ أبْقى لَديهمُ ... أحَادِيثَ تُرْوَى مِن صُنوفِ عَجائِبِهِ
فَيا فَارسَ الشِّعرِ الذِّي مَاتَ قِرْنُه ... بموتِ زُهَيرٍ في اِرتِجالِ غَرائِبِهِ
لأَصبحتَ مِثلَ البَحرِ يزخرُ وَحدهُ ... وإنْ كثُرَ الأنهارُ مِن عَن جَوانبِهِ [١].

جعل الشاعر صاحبه الذي سافر إلى مصر كالبحر المحيط، الذي علا مده، وارتفع على ساحله، من المغرب الأقصى حتى وصل إلى نيل مصر، فصيته، وشعره، وعلمه قد غطى الأرجاء من خلال رحلته من المغرب إلى مصر، وامتد عليها، وجعل عودته من مصر إلى المغرب كالجزر (ولما انثنى بالجزر)، فدفع لهم عند مده بخيرات البحر، وأبقاها عندهم عندما عاد مع جزره، ورحيله عنهم.

ولقد كانت نظرة المجتمع الأندلسي للعالم تختلف بزيارته للمشرق، "فالعالم في أي علم من علوم العربية والدين لا يتم له علمه على الوجه الأكمل، إلا إذا رحل إلى ينابيعه الأساسية في

(١) ديوان ابن حمديس ص ٢٧ .

المشرق.[١]"

ومدح ابن زيدون أبا الوليد ابن جهور في قصيدة، وذكر فيها كرمه، وشبهه بمد البحر الذي لا ينقطع. يقول فيها:

مَا زَالَ يُونِقُ شُكرِي في مَوَاقِعِها كالمُزْنِ تونِقُ، في آثارِهِ، التُّرَعُ
شُكْرٌ، يَرُوقُ ويُرضِي طِيبُ طُعمَتِهِ، في طَيّهِ نَفَحاتٌ، بَينَهَا خِلَعُ
ظَنَّ العِدَا، إذْ أَغَبَّتْ[٢]، أَنَّها انقَطَعَتْ هَيهَاتَ لَيسَ لِمدّ البَحْرِ مُنقطَعُ [٣].

فشكره في ابن جهور مثمر، كالغيث على الروض، لا يزيده إلا خضرةً وإزهاراً، وهذا ما يخيّب آمال الوشاة والمعادين له، حيث إنه إذا غبّ في زيارته، فهو لم ينقطع، ولم تنقطع هذه الصِلة بينه وبين ابن جهور، فهي كأموج البحر عند المد، يدفع بعضها بعضاً.

وهذا ابن حمديس يمدح يحيى بن تميم، ويجعل شجاعته، وإقدامه كمد البحر إذا ارتفع موجه واصطخب، فلا يرده شيء، ولا يثنيه عن تقدمه أحد. يقول فيها:

ومَن ذا يَرُدّ البحرَ عَن فَيضِ مَدّهِ إذَا عَبَّ مِنه بِالجَنائبِ مَا عَبَّا
إذا مـــا أديرت بالسيــول من الظبى رَحى الحربُ فِي الهَيجَاءِ كانَ لهَا قَطبَا [٤].

وابن زيدون يهئ المعتضد بفصاد[٥]، ويتعجب من الشخص الذي قام بفصده، كيف لم يهُلهُ الموقف ؟ فهو أمام بحر هائج متلاطم الأمواج، قد طغى مده، وعلا، وارتفع. يقول فيها :

ليهنِكَ أنْ أحمدَتَ عاقبةَ الفصدِ فللّهِ منّا أجملُ الشّكرِ والحَمدِ

---

(١) تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، شوقي ضيف ،دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ص٦٢.

(٢) غبت: الماشية في الورد – غباً : شربت يوماً وتركت يوماً والرجل في الزيارة : زار في الحين بعد الحين، ومنه قولهم " زر غباً تزدد حباً " المعجم الوسيط . مادة الغين .

(٣) ديوان ابن زيدون ص ١٧٨.

(٤) ديوان ابن حمديس ص ٥٢ .

(٥) الفصد : شق العرق وإسالة الدم الفاسد .

ويَا عَجَباً مِنْ أنَّ مِبضَعَ فَاصِدٍ تلقّيتَهُ، لمْ يَنصرِفْ نابيَ الحَدّ
ومَنْ متولّي فصْدِ يُمناكَ، كيفَ لمْ يهلْهُ عبابُ البَحرِ في مُعظمِ المدّ[1].

فهو البحر في شجاعته، وإقدامه، وكرمه، وليس أي بحر، وإنما البحر الذي قد هاج ماؤه، وارتفعت أمواجه، لتمتد على ساحل أعدائه . وقال ابن حمديس قصيدة يمدح بها المعتمد ابن عباد، بعد عودته من محاصرة حصن لبيط، وهو قرب المرية، وكان المعتمد نزل عليه مع المرابطين، وأقام محاصراً له زمناً، حتى دخل الشتاء فقام عنه :

ورَحلتَ في جَونِ القِتامِ عَرمْرمٍ وكأنّهُ ليلٌ بوجْهِكَ مُقمرُ
ولئنْ قَدمِتَ وفيِ اعتِقَادكَ عَوْدَةٌ فالبَحرُ مِن عظم يَمُدُّ ويَجزُرُ
والفَتحُ مِن فَضْلِ الإلهِ، ويَومُهُ مُتقدّمٌ بالنَّصرِ أوْ مُتأخرُ [2].

الحرب كر وفر، فشبه الشاعر ترك ابن عباد لمحاصرة الحصن عند دخول الشتاء عليهم بجزر البحر الذي يعقبه المد، فهو وإن قام عن الحصن وتركه، فهو عائد إليه بجيش عرمرم، يزحف عليهم كمد البحر .

كما استخدم الشعراء البحر للدلالة على الكرم، فالبحر هو أحد عناصر الطبيعة المختلفة، التي ترعرعوا على ساحله، وانتفعوا بخيراته، وتنعموا بملذاته، وعرفوا كم له من أهمية في حياتهم السلمية والحربية، لذلك نجد الكثير من الشعراء يستدعون الطبيعة، ويطلقون صفات البحر على ممدوحيهم، "لما عرف عن البحر بأنه مكان فيه اتساع، ووفرة في الماء، ولما يحمله في باطنه من الخيرات الكثيرة للعباد، لذلك استدعاه رغبة في استدعاء معانيه السابقة، إذا ما توافر شيء منها في ممدوحه، فسعة كرم الممدوح، وكثرة عطائه، ورغبته في تقسيم أمواله على الناس، وعلى وافديه من

---

(١) ديوان ابن زيدون ص ٦٧ .
(٢) ديوان ابن حمديس ص ١٩٤.

الشعراء، يشبه- إلى حد كبير- ما ذكرنا من معاني البحر السابقة[1]"، فهم يجدون في ممدوحيهم كل جميل، فهم أهل للكرمِ والعطاء، وأهل للحنكة والدهاء، ويلاحظون فيهم بعد النظر، وغزارة المعرفة، ونلمس ذلك في قول ابن زيدون، وهو يمدح المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية. يقول فيها :

مَوَاهِبُ فَيّاضِ اليَدَيْنِ، كَأنّمَا من المُزْنِ تُمرَى أوْ من البحرِ تُغرفُ [2].

عظيم الجود والعطاء في هباته، فهو كسحابة المزن، مَن شاهدها تفاءل خيراً ؛لأنه يعلم أن معها الخير الكثير، والعطاء الغزير، فأيما روضٍ أصابته نور، وأيما بستان نزلت عليه أثمر، وهذا الممدوح كالبحر لا ينضب ماؤه، كل ما أخذت منه زاد كرماً وجوداً. ويقول ابن زيدون في موقفٍ آخر :

جَوادٌ مَتى اسْتعجَلْتَ أَولى هِباتِهِ كَفَاكَ مِنَ البَحْرِ الخِضَمّ عُبَابُ [3].

جوادٌ كريم، كلما أتيت إلى بابه أعطاك من بحره الزاخر، ومتى طلبت عطاياه كفاك عن خوض غمار البحر؛ لتنال المراد، فيكفيك بموجه منه، ليسد بها حاجتك، ويروي مرادك، ويعطيك ما يزيد على آمالك.

وقريب من هذا، قول ابن حمديس في مدح المعتمد بن عباد، يقول فيها:

لاَ تلمُهُ فِيِ عَطايَاهُ الَّتي إنْ تَرُم مِنهنّ نَقصاً تَزددُ
فَنداهُ البَحرُ، والبَحر مَتى تِعْصفِ الرِيّحُ عَليه يُزْبِدُ[4].

يخاطبهم ويدعوهم إلى عدم لومه في عطاياه، فمهما تأملت من عطاه، كان المعتمد أكثر مما توقعوا، فهو كالبحر، كلما زادت عليه الريح ارتفعت لجته، واصطخب، وعلا موجه على ساحله

---

(١) المكان في الشعر الأندلسي، أمل العميري، ص ٨٤.
(٢) ديوان ابن زيدون ص ٢٠٠.
(٣) المرجع السابق ص٣٠.
(٤) ديوان ابن حمديس ص ١٤١ .

؛ليقذف بخيراته.

ويقول في موقف آخر :

فَرَفْعُ النجْمِ في عُلياكَ خَفْضٌ   وَفَيْضُ البَحرِ في نُعمَاكَ رشْحُ[١].

النجم عند علو قدره ومنزلته منخفض، والبحر أمام كرمه وعطائك كأنه رشح، فلا أجعله كالنجم علواً، فأحط من قدره، ولا كالبحر كرماً، فأبخسه حقه، وإنما هو أعلى من ذلك منزله، وارفع من ذلك قدر. ويقول ابن زيدون في مدح ابن جهور :

أيّهَا البَحْرُ، الّذِي مَهْمَا تَفِضُ   بالنّدى يُمناهُ، فالبَحرُ وشلْ[٢].

يهب من غير منّة، ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر، فالبحر إذا فاض ماؤه، وارتفعت أمواجه، ليست بالشيء الذي يذكر أمام كرمه وجوده، فكأن البحر يخلو من الماء، إذا هم قارنوه ببحر كرمه وجوده.

ولقد أجاد شعراء الأندلس في وصف من أرادوا مدح كرمه بالبحر، ونستشعر ذلك في قول ابن حمديس، وهو يمدح علي بن يحيى في قصيدة له:

هُنالِكَ أَلْقى المْجتدُونَ عِصيّهُمْ   بِحيثُ استرَاحُوا مِن مُطاوعَة الكدِّ
لَدى مَلكٍ يُربي عَلى الغَيثِ جُودُهُ   وَيَغْرَقُ مِنه البَحرُ في طَرَفٍ الثَّمد[٣].

فمن استجدى الأمراء، وجد ضالته عند أبي الحسن، وكفاه بهباته عن الترحال طلباً إلى ما

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ١٠٨ ، الرشح: كل ما يرشح من العرق ونحوه. وفي حديث القيامة: "حتى يبلغ الرشح آذانهم". المعجم الوسيط مادة رشح.

(٢) ديوان ابن زيدون ص٢٢٦ . الوشل : الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره، المعجم الوسيط مادة وشل.

(٣) ديوان ابن حمديس ص١٥١ .

عند الأمراء من أعطيات، فهذا الأمير ليس كالغيث كرماً، ولا كالبحر جوداً، وإنما هو من يعلم السحاب، ويربيها على كيفية أن تجود على الرياض، وهذا البحر العظيم الذي يضرب به المثل في انتثار أجزائه، وتباعد سواحله، يغرق في بحر جود الأمير، فهذا الأمير هو رمزٌ للكرم والعطاء. وفي موقف آخر يمدح بها الأمير. يقول فيها :

ذُو عَطاءٍ لَو أنّهُ كانَ غَيْثَاً   أوْرَقَتْ في المحُولِ مِنهُ الصُّخورُ
تَحسبُ البَحرَ بَعضَ جَدوَاهُ لَوْلا   أنَّهُ في الوُرُودِ عَذبٌ نَميرُ[1].

إن كرم الأمير لا ينفع الصديق فحسب، وإنما يتعداه إلى غيره، فهو عام شامل كالغيث، وهو محيي للأرض الموات، فلو أصاب كرمه صخرة أورقت خضرة، ونورت أزهاراً، ولو أصابتك أعطياته لرأيت البحر بعضاً من كرمه، إلا أنَّ بحر جوده عذب سائغ للشاربين. ويقول ابن حمديس في موقف آخر يمدح الأمير علي بن يحيى :

مَنْ ذَا يُجاودُ مِنه كَفّاً كفُّهُ   والبَحرُ فِي مَعرُوفِه ضِحضَاحُ[2].

وهذا شاعر المعتمد بن عباد يمدح المأمون بن عباد في موشحة له ويجعل يديه تفيض بالمكرمات كالبحر، ويستهل موشحته بالغزل ووصف الخمر. يقول فيها:

هَلا عَذُولِي قدْ خَلعْت العِذَارَ   لاَ اعْتِذَار   عَن ظبَا الأُنسِ وشُربِ الْعقَارِ
مَا العَيشُ إلَّا حُبُّ ظَبِيٍّ أَنِيسِ
مُهَفهفٌ أَحْوىَ وحَثُّ الكُؤُوسِ
مِنْ قَهوَةٍ تَحكِي شُعَاعَ الشُّموسِ
كأَنَّها فِي كَأسِهَا إذْ تُدارُ   شُعْلةُ نَارٍ   يَقْتلُهَا الإبرِيقُ قَبلَ السُّوارِ

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٢٤٦ . والنمير من الماء :الطيب الناجع . المعجم الوسيط مادة نمر .
(٢) المرجع السابق ص ١٠٤.

شَيئَانِ قَلبِي فِيهِمَا ذُو غَرامِ

القَولُ بِالغَيْدِ وشُربِ المُدَامِ

فَلسْتُ أَصْغِي فِيهِما لِلْوَامِ

لاَ والذَّي تَوجَ تَاجَ الفُخَّارِ   بَحْر البِحَارِ   بِبحرٍ جَدْوَاهُ وحَامِي الدَّيارِ

المَلكُ المأْمُونُ ذُو المُكْرَماتِ

الوَاحدُ الفَردُ الجَزِيلُ الصِّفاتِ

كَمْ مَادحٍ أَحيَا وكَمْ قدْ أمَات

تَنهلُ يُمنَاهُ عَليْنا بِحَار   ثمَّ اليَسَار تَجلُو دُجَى العُسْرِ بِبذْلِ اليَسَارِ [1].

ويهنئ ابن الحداد المؤتمن بن المقتدر بن هود بمولود كنجم سطع في سماء المجد، ليحل في بني هود، فقد ترعرع في بيت كرم وجود، ورضع الشجاعة والكرم من والديه. يقول فيها :

فَبَشِّرْ سَمَاءَ السَّنَا والسَّنَاءِ   بنجم هُدىً لَاحَ في آل هُودِ
بِمُقتَبَسٍ من شُمُوسِ النَّفُوسِ   وَمُقْتَدَحٍ من زِنادِ السُّعُودِ
هِلَالٌ تَألَّقَ من بَدرِ سَعْدٍ   وَمُزْنٌ تَخَلَّقَ من بَحْرِ جُودِ [2].

فهذا المولود هلالٌ من ذلك البدر، الذي تألق في سماء الجود، والكرم، والشجاعة، وسحابة مزن من ذلك البحر الجواد، فهو ابن بدرٍ في تألقه، وابن بحر في جوده، فهذا المولود فرع من ذلك الأصل الطيب.

قد يخرج البحر عن معناه الحقيقي، إلى معانٍ مجازية متعددة. يقول ابن اللبانة :

وبَحرٍ سِوى بَحرِ الهَوى قَدْ رَكبْتُهُ   لأَمرٍ كِلا البَحرَينِ مَركبُهُ صَعْبُ [3].

---

(١) جيش التوشيح ،لسان الدين ابن الخطيب ،تحقيق هلال ناجي، مطبعة المنار، تونس، ص٧٠ .

(٢) ديوان ابن الحداد ص٢٠٣.

(٣) ديوان ابن اللبانة ص ٢٧.

بحار ابن اللبانة كثيرة، فقد ركب بحر الهوى، ولم يجده بأيسر من بحار الدنيا، فكلاهما مدعاة للشقاء، والتأمل، وطول الانتظار. وهذا ابن حمديس يمدح الحسن بن علي بن يحيى، ويجعله كالأسد في بحر الوغى :

هَزبرٌ عَلى بَحرٍ مِن الحَربِ مُفعمٌ   عَلى جِسمِه نَهيٌ وفِي يَدِه نَهرُ
وقدْ حَال بَينَ الرُّومِ والبَحرُ فَالتَجوْا   إلىَ القَصرِ حَتَّى جَاءهُم بِالرَدى القَصْرُ[(١)].

إن كثرة الجنود في أرض الوغى، واصطفافهم في نظام، وحركتهم المقننة، بين سائر على سهل، وجاري على حزن، يتحركون في ثبات بين صاعد ونازل، فيتخيل إلى الرائي وهو يراهم بأمواج البحر يحركها الريح، فقد لاحظوا في البحر الاتساع، والتماسك، وقوة الضرب بأمواجه، وما بالبحر من أهوال، ومخاطر، لذلك حاول الشعراء ربط صور الجيوش المقاتلة لمدوحيهم بالبحر، كما في قول ابن حمديس:

سُلّتْ صَوارِمُهُ الجِـــــدادُ ففلّقَتْ   هَاماً عَليها للجِيـــــــــاد عثَارُ
فِي جَحفلٍ كالبَحرِ مَاجَ بضمّرٍ   فَتَكَتْ عَلى صَهوَاتِهـــــا الأذْمَارُ [(٢)].

ومن الشعراء من يشبه كثرة السيوف، وارتفاعها في الحرب بالبحر، فكأنه يرى بحراً من الحديد، تتلاطم أمواجه:

ومُقـــــامُ بأسٍ في الكَريهةِ قُمتهُ   فَسَبحتُ فِي بَحــرِ الحَديدِ الأَخْضرِ [(٣)].

وكذلك يقول ابن خفاجة في موقف آخر :

فيا رُبَّ وَضّاحِ المحاسِنِ أشقـــــرٍ   رَمَيتُ بِهِ الهيجَا وَقَـــد فَغرَت فَمَا
وَبَحرِ حَدِيدٍ قد تَلاطَمَ أَخضرٍ   إذا عَصَفَت رِيحُ الجِيادِ به طَمَى[(٤)].

(١) ديوان ابن حمديس ص ٢٥٢.
(٢) المرجع السابق ص٢٦١.
(٣) ديوان ابن خفاجة ص ٥٠.
(٤) المرجع السابق ص ١٧٤.

النـهر :

إن طبيعة الأندلس الخلابة، والتي كست ووديانها، وجبالها، كانت ملهماً للأدباء، ومنهلاً ينهلون منها صورهم وتشبيهاتهم، وينمون من خلال الطبيعة خيالهم، ويربونها على البساطة والحرية، فقد افتتن شعراء الأندلس بالأنهار، كما افتتنوا بغيرها من عناصر الطبيعية الأخرى، إلا أن أشعارهم في الأنهار قد فاضت بها دواوينهم، فالمطلع على دواوين شعراء الأندلس، وإن لم يكن على دراية بجغرافية تلك البلاد، فإنه يلاحظ أنهم يعيشون في بيئة مائية، كثيرة الجداول والأنهار،ولاغرو في ذلك، فأرض الأندلس مليئة بالأنهار الجارية، والبحيرات الدائمة، ومنابع المياه العذبة، ومع كثرة أنهارها، وعيونها وعذوبة مائها، يقال: إن المسافر لا يحمل معه الماء، وهو ليس بحاجة إلى حمل الماء معه؛ لأنه سوف يمر بجداول ماء وأنهار، وقرى بنية على ضفاف الأنهار في طريق سفره، فقد ذكر ابن اليسع أن المسافر في الأندلس : " لا يتزود فيها أحد ماء، حيث سلك لكثرة أنهارها وعيونها، وربما لقي المسافر فيها في اليوم الواحد المعاقل والقرى ما لا يحصى، وهي بطاح خضر، وقصور بيض. انتهى [(١)]".

ومما قيل عن أرض الأندلس، وكثرة أنهارها، ما ذكره صاحب النفح عن مساحة أرض الأندلس، وعدد الأنهار التي تجري فيها، يقول في كتابه : " وقال بعض المؤرخين: طول الأندلس ثلاثون يوماً. وعرضها تسعة أيامٍ. ويشقها أربعون نهراً كباراً، وبها من العيون والحمامات والمعادن ما لا يحصى، وبها ثمانون مدينةً من القواعد الكبار، وأزيد من ثلاثمائةٍ من المتوسطة، وفيها من الحصون والقرى والبروج ما لا يحصى كثرة، حتى قيل :إن عدد القرى التي على نهر إشبيلية اثنا عشر ألف قريةٍ، وليس في معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدنٍ وأربعاً من يومه إلا بالأندلس، ومن بركتها أن المسافر لا يسير فيها فرسخين دون ماء أصلاً، وحيثما سار من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات، والشعاري، والأودية، ورؤوس الجبال لبيع الخبز ، والفواكه، والجبن،

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٩ .

واللحم، والحوت، وغير ذلك من ضروب الأطعمة [١]. ".

نجد أن أرض الأندلس شاسعة، مترامية الأطراف، فيتبادر إلى ذهنك من أول وهلة أنها صحاري جرداء، تسفي بها الرياح، وتتطاير أتربتها في الأرجاء، إلا أن الله- تبارك وتعالى- قد حباها تلك الأنهار التي تشق أراضيها ؛لتزيد من خصوبة تربتها، وتسقي بساتينها، فيثمر شجرها، وتورق أغصانها.

وقد ذكر المراكشي في المعجب بعضاً من أنهار الأندلس الكبار المشهورة، منها :

- "فأول ذلك مما يلي المشرق نهر طرطوشة، وهو نهر عظيم، ينصب من جبال هناك إلى مدينة طرطوشة، ثم يصب في البحر الرومي.
- ثم نهر مرسية، وهو يصب أيضاً في البحر الرومي، منبعه من جبل شقورة، وهو قسيم نهر أشبيلية، منبعهما واحد، ثم يفترقان، فينصب هذا إلى أشبيلية، وهذا إلى مرسية.
- ثم نهر أشبيلية الأعظم. ..الذي تنصب فيه قبل وصوله إلى أشبيلية أنهار كثيرة، فيعظم حتى يصير بحراً[٢]"، " تصعد فيه السفن الكبار من البحر الأعظم، ترسي على باب المدينة[٣]".

وفي حديث صاحب الإحاطة عن جبل غرناطة، ذكر ما ينصب من جبلها شلير من الأنهار "وينساب منه ستةٌ وثلاثون نهراً من فوهات الماء، وتنبجس من سفوحه العيون، صح منها الهواء، واضطردت في أرجائها، وساحاتها المياه، وتعددت الجنات بها والبساتين، والتفت الأدواح، وشمر الرواد على منابت العشب في مظان العقار مستودعات الأدوية، والترياقية.[٤]"

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٦ .

(٢) المعجب في تتلخيص أخبار المغرب، أحمد المراكشي، تحقيق : محمد سعيد العريان،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث، القاهرة، ص ٤٦١.

(٣) المرجع السابق ص ٤٥٩.

(٤) الإحاطة ،ج١ ص ٩٦.

إن أنهار الأندلس عديدة، ومياهها غزيرة، فهي تمتد عبر المدن الأندلسية، ونجد أن نهر أشبيلية وحده يمر على ما يقارب اثنى عشر ألف قريةٍ، ونلاحظ أن المدن والقرى تبنى على ضفاف الأنهار، وذلك بهدف أن ينعم أهل هذه المدن والقرى بخيراتها، ويشربوا من مائها، ويسقوا بهائمهم، ويشقوا القنوات إلى حدائقهم وبساتينهم، وفي حديث صاحب النفح عن نهر غرناطة، نجده يقول : " وقد اختصت بكون النهر يتوزع على ديارها، وحماماتها، وأسواقها، وأرحاها الداخلة والخارجة، وبساتينها، وزانها الله تعالى بأن جعلها مرتبة على بَسِيطها الممتدّ، الذي تفرعت فيه سبائك الأنهار بين زبرجد الأشجار [(١)]"، فاكتست أرضهم بساطاً أخضراً، وطابت ثمارهم وحقولهم، حتى إن المطلع على آدابهم، ووصفهم لطبيعتهم، يرتسم في ذهنه أنه يسير في أرض خضراء، لا تجد فيها البقعة الجرداء الخالية من الأشجار، فكأنما أهلها عاشوا في جنة غنّاء، فقال فيها ابن خفاجة :

يَا أهْـلَ أنـْدلسٍ للهِ دَركُمُ ... ماءٌ وظلٌ وأنهَارٌ وأشْـجارُ
مَا جَنةُ الخُلـدِ إلَّا في دِيَاركُمْ ... وهذه كُنتُ لو خُيِّرتُ أخْتارُ
لاَ تَتقُوا بَعدهَا أنْ تَدخُلُوا سَقَراً ... فليْسَ تُدخَلُ بَعدَ الجَنَّةِ النَارُ[(٢)].

يخاطب أهل الأندلس، ويذكرهم بهذا النعيم الذي يعيشون فيه، فكأنما الله- عز وجل- اصطفاهم ليعيشوا في جنة الأرض، التي قد زينت لهم بالأنهار ،وبالمياه العذبة، وبالأشجار الملتفة التي طاب ثمرها، وراق فيؤوها، فاتخذوا القصور، ومجالس الأنس على ضفاف أنهارها، ويتخيل الشاعر من هذا النعيم، الذي هم فيه سارحون أن لا شيء يفوق هذا النعيم حسناً وجمالاً، فهم في جنة الخلد، متنعمين بهذا النعيم المقيم، ولو خُيّر بين الجِنان لاختار أرض الأندلس، فهي جنته التي يرى فيها نعيمه، ثم يعود ليهنئ أهل الأندلس بهذا النعيم، ويبشرهم بالجنة، حيث إن أهل الجنة لا يخرجون منها إلى النار، فليس بعد الجنة التي أقاموا فيها نارٌ يقادون إليها.

تغنى الشعراء بالأنهار وبالمياه الجارية؛ لما لها من رونق وجمال، ولما في مشاهدتها من متعه،

(١) نفح الطيب، ج ٣ ص ٢١٨.
(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٣٦٤.

فهي تحمل هموم يومهم بين تيارات أمواجها، وتسير بأحلامهم عبر بساتينها، ورياضها، وتسرح بخيالهم بين أزهارها، فتفيض قرائحهم من جمالها،ومن الذين أجادوا في وصف جمال منظر النهر، وهو يجري من بين تلك البساتين، والرياض المكسوة باللون الأخضر ابن خفاجة. يقول فيها:

للهِ نهرٌ سَالَ في بَطحَاء	أشْهى وُروداً مِنْ لَمَى الحَسْنَــــــاءِ
مُتَعَطفٌ مِثلَ السِّوَارِ كَأَنَّهُ	والزَّهرُ يكنُفُهُ مَجَرُ سَمَـــــــاءِ
قَد رَقَّ حَتى ظُنَّ قَرساً مُفرَغاً	مِـــــــن فِضَّةٍ فِي بُردَةٍ خَضرَاءِ
وغَدَتْ تَحُفُ بِهِ الغُصُونُ كأنّها	هُدبٌ تَحُـــــــفُ بِمُقْلَةٍ زَرقاءِ
ولرُبما عَاطيتُ فِيهِ مُدامةً	صَفراء تَخضِبُ أيدِي النُدَمَاءِ
والريحُ تَعبَثُ بالغُصُونِ وَقَدْ جَرى	ذَهَبُ الأصِيلِ عَلَــــى لجِينِ المَاءِ [١].

هذه الأبيات من المقطوعات الشعرية التي أفردها الشاعر في وصف النهر ، ولم يقرن معها غرضاً آخر، فالشاعر هنا يستلهم جمال محبوبته في الطبيعة، وقد استهل الشاعر قصيدته بالتعجب من منظر النهر، وما أجمله من منظر، حيث صوره لنا ابن خفاجة بأسلوب جميل، وتشبيهات حسية قريبة إلى الذهن، يجعلك تسافر معه عبر تلك العصور؛ لتشاهد هذا الجمال، وكأنه حاضر أمام عينيك، وتشاهده معه في ذلك الموقف، كل هذه المشاهدات الدقيقة من حس متوقد، يرصد أدق التفاصيل، ويمعن النظر في الطبيعة، وعاطفة صادقة، وذاكرة قادرة على الاستحضار، وقريحة جاهزة للوصف والإبداع، فقد "نوه القدمى والمحدثون ببراعة ابن خفاجة الأندلسي في وصف الأزهار والرياض [٢]"والأنهار، حيث وصفه المقري بقوله :" وأبو إسحاق بن خفاجة كان أوحد الناس في وصف الأنهار، والأزهار، والرياض،والحياض، والرياحين، والبساتين[٣]"، فقد تلذذ ابن خفاجة بماء النهر، فوجده أشهى، وألذ، وأجمل، وأمتع وروداً من شفاه الحسناء، فماء النهر عذب في مطعمه، جميلٌ في منظرة، حلو في انسيابه، يجري على تلك البطاح التي تنقي

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٣٥٦ .

(٢) الروضيات في الشعر الأندلسي ،طاهر سيف غالب، ج ٢ ص ٥٤.

(٣) نفح الطيب، ج ١ ص ٦٨١.

ماءه، ليطيب مطعمه، ويصفي كدره، فماء النهر ينساب في طريق متعرج، كأنه يبحث عن الرياض والبساتين، ليقبل ثراها، ويروي عطشها، لتزداد خضرة على خضرتها، وجمالاً على جمالها، وقد جاد الربيع بأزهاره، فتناثر البياض على ضفتي النهر، فكأنما تشاهد نجوم المجرة على الأرض قد حطت، فالزهر يحيط بضفتي النهر، كإحاطة النجوم بالمجرة كثرة وجمالاً، وقد راق منظر النهر، وطاب لونه حتى يظن الرائي له- وهو على ذلك البساط الأخضر- أنه ينظر إلى بردة خضراء، قد ألقي في وسطها قطع فضة.

ووقف الشاعر مفتوناً في مياه النهر، وينظر إليها من جانب آخر، ويربطها بمفاتن المرأة الحسناء ويصور المشهد لنا، فيرى في تلك الأغصان التي تنمو على ضفتي النهر، والماء ينساب من بينها كالعين من حولها الأهداب، فقد اعتاد شعراء الأندلس على تجسيد مفاتن المرأة في وصفهم للطبيعة، "فالمرأة كانت وما زالت تمثل قيمة جمالية، فضلاً عن كونها معنى سامياً من معاني الارتباط الروحي في حياة الإنسان العربي، لذلك فقد كان الشعراء إذا أرادوا أن يعلوا من شأن الطبيعة، ويرفعوا من قدرها، ويعبروا عن إعجابهم بها، وعشقهم لمحاسنها، شبهوها بالمرأة [(١)]".

ولا تطيب عنده هذه الرياض إلا في مجلس أنس، يجتمع فيه بأصحابه، ويزينوه بشرب الخمر، ومعاقرة الشعر على ضفة النهر، وبين أحضان الطبيعة، والشمس أخذة في الغروب، وأصيلها يملأ الأفق، والرياح تلعب بالأغصان من حولهم، والماء الفضي قد تحول إلى لون الذهب من صفرة نور الأصيل، فهذه المناظر ألهبت عاطفة الشاعر، وأوقدت خياله، فأكثر من الصور والتشبيهات، فصور الطبيعة في هذه الأبيات كثيرة، والأوصاف جميلة، والألفاظ سهلة المتناول، وليس هذا بغريب على ابن خفاجة، الذي شغف بالطبيعة، واندمج معها، وامتزج بعناصرها المختلفة، واستغلها في شعره، فهو يقول عن نفسه مستعملاً ضمير الغائب :"إكثار هذا الرجل في شعره من وصف زهرة، ونعت شجرة، وجرية ماء، ورنة طائر، ما هو إلا أنه كان جانحاً إلى هذه

---

(١) الروضيات في الشعر الأندلسي، طاهر سيف غالب، ج ٢ ص ١٥٠.

الموصوفات لطبيعة فطر عليها وجبلة، وإما لأن الجزيرة كانت داره، ومنشأه، وقراره. ..حتى غلب عليه حب ذلك، فصار قوله فيه عن كلف لا تكلف.[1]"

وقد شبه ابن خفاجة النهر في بعض المواضع باللمى، يقول فيها :

نَهرٌ، مَـــا سَاغَ اللَّمَى، سَلسَالُ وصَباً بَليلٌ، ذَيلُهـــا مِكسَالُ
ومَهَبُّ نَفحَةِ رَوضَةٍ مَطلُولَـةٍ في جَلهَتَيهـــا للنسِيمِ مَجَالُ.[2]

لطالما تغنى العرب بشفاه الحسان، وحسنها، وجمالها، وضربوا بها الأمثال في الرقة والحلاوة، فللهِ در هذا النهر الذي يقارب لذة طعمه شفاه الحسان في عذوبته، وحلاوته، ورقة مشيه، فهو يجري كمن تمشي الهوينا، فالنهر في جريه ليس كالسيل العارم، الذي يجرف ما في طريقه، ويدمر ما واجهه، ويقتلع كل زرع صادفه، فيتلف المحاصيل، ويخرب الممتلكات، وإنما يجري في مجراه بكل هدوء وانسيابية، ولا يتعدى حوضه، ثم لا يكتفي بأن يصف لنا النهر وانسيابه، بل يدخلنا في جوه الجميل، ونسيمه العليل، فهذا النهر يجري بين روضه قد أصابها المطر الخفيف الذي لطف جوها، ولم تكثر أشجار هذا الروض، فتمنع النسيم، وتحبسه عنهم، بل كان في جنباتها متسع للنسيم؛ كي يمر عبر الندى، ويلاعب الأزهار، فتطيب رائحة الروض، ويروق ملامسته حواسك، فيكتسي المكان بعبق الرحيق، والنسيم العليل.

يتفكر الشعراء بمناظر الطبيعة، ويطيلوا النظر فيها متأملاً جمالها، فقد أعجب بعضهم بنور الشمس، فتأملوها في الغدو والآصال، فتحركت مشاعرهم، وفاضت قرائحهم على صفار الذهب المنتثر تحت ظلال الدوح، المنتشر على ضفاف الأنهار، ليستمتعوا بشعاع الشمس الذي يدخل خلسة من بين أوراق الأشجار؛ ليغرس شعاعه على صفحة الماء، فيغير من لونه الفضي، ويكسوه الصفارة المائل إلى الحمرة. يقول ابن خفاجة :

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف، إحسان عباس، ص ١٦٦.

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ١١٩ .

وقد غَشِيَ النبتُ بطحاءَهُ كبَدوِ العِذَارِ بِخَدٍّ أَسِيلِ
وقدْ وَلَّتِ الشَّمسُ مُحتَثّةً إلى الغَربِ ترنُو بِطَرفٍ كَحِيلِ
كأنَّ سَنَاهَا عَلى نَهرِهِ بقايَا نَجيعٍ بسَيفٍ صَقِيلِ [(١)].

لقد أحب ابن خفاجة الجواري الحسان، وأكثر من ربط مفاتنهن بالطبيعة، وذلك على الرغم من أنه "ظل صرورة لم يتزوج قط[(٢)]"، فقد أعجب بمنظر أغصان النبات الدقيقة، وقد نمت على البطاح، فطار به الخيال إلى خدود العذارى، وما ينموا عليها من شعر رقيق، ووقف في وقت الأصيل؛ ليشاهد جمال منظر النهر ، وقد غشيه حمرة شمس الأصيل، وكأنه سيف قد تلطخ بالدماء.

قد لاحظت بعض الدراسات أن الغالب على شعر الأندلسيين، هو الاهتمام بتصوير الطبيعة "وتشخيصها، وبيان الناحية الضاحكة منها، لذلك فقد انصرفوا عن ذكر عواطفهم، وتجاوبها مع الطبيعة، حتى أن ابن خفاجة- وهو أشعر من وصف الطبيعة عندهم- لم يستطع أن يشترك في هذا التجاوب، وفي هذا الحس الطبيعي إلا بقصيدته في وصف الجبل...، أما باقي شعره في الطبيعة فكان شغفاً بمحاسنها، ووصفاً حسياً لمباهجها، يعينه الخيال، وتزينه الصور البيانية، والبديعية[(٣)].". ويرى إميلوا جارثيا أن في الشعر الأندلسي بعض القصر في العاطفة، فقد "كان فقيراً من الناحية العاطفية، فيما خلا فلتات قليلة. فلم يصدر هذا الشعر عن فيض العاطفة الصادقة إلا في النادر، والغالب عليه تكرار صور بعينها في الوصف أو المديح.[(٤)]"، وليس ببعيد عن هذا ما يشير إليه المستشرق آنخل جنثالث في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي عن مقالة لـ(غرسية غومس) في الشعر الأندلسي، حين قال " إن الشعر الأندلسي طرق فنون الشعر كافة :من الزهد إلى الهجاء، ونظم

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٣٧٨.
(٢) تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف، إحسان عباس ،ص ١٦٤.
(٣) في الأدب الأندلسي، جودت الركابي، ص١٤٦.
(٤) الشعر الأندلسي، إميليو جارثيا، ترجمة: حسين مؤنس، دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٨م، ص ٥٧.

شعراء الأندلس قصائد الحماسة، والنسيب، والمدح، والرثاء، والوصف بصفةٍ خاصة.

وذهب إلى أن هذا الشعر كان – بصفةٍ عامة – فقيراً من الناحيتين الفكرية والعاطفية، تغلب عليه قلة الصدق "[١].

فقد زعموا أن الكثير من شعراء الأندلس لم يلتفتوا إلى عواطفهم وإحساسهم، بل شغفوا بالطبيعة ومفاتنها، فيرون أنها أسرت عقولهم، وسحرت أبصارهم....

لعل كلام جودت الركابي، والمستشرقين الأسبان فيه شيء من التجني على الشعر العربي في الأندلسي، إذ أطلقوا عليه أوصافاً وأحكاماً عامة، قد توجد عند البعض دون غيرهم من الشعراء، فإذا كانوا يقصدون بالعاطفة الخيال، فالشعر الأندلسي مليء بالأخيلة، وإن كانوا يقصدون بالعاطفة المشاعر والأحاسيس، فدواوينهم تزخر بالعاطفة، فقد جعل الشعراء من الطبيعة متنفساً لهم عن مكنون مشاعرهم، وملجأ لهم عن كدر الحياة، إذ إن الشاعر يعمل على " إحلال كل مافي نفس الإنسان، وقلبه، وعقله من مشاعر في الطبيعة، ومزج كل أولئك بما فيها من جمال التصوير والتوقيع، فالطبيعة غير مقصودة لذاتها، والأدب الجميل هو مزج تفكير الإنسان، ومشاعره بما في الطبيعة من تصوير وتوقيع[٢]".

فأين هؤلاء المستشرقون من قول ابن زيدون، وهو يتذكر ولادة بين الرياض والبساتين.

إنّي ذكرْتُكِ، بالزّهراء، مُشْتاقاً	والأُفقُ طلقٌ ومَرْأى الأَرضِ قدْ رَاقَا
وَللنّسيمِ اعْتِلالٌ، في أصَائِلِهِ	كأنّهُ رَقّ لي، فَاعْتَلّ إشْفَاقَا
والرّوضُ، عنْ مَائِه الفضّيّ، مُبتسِمٌ	كَما شقَقتَ، عَنِ اللَّبّاتِ، أطْواقَا.[٣]

(١) تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل جنثالث بالنثيا، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ص٤٣.

(٢) شعر الطبيعة بين المشارقة والأندلسيين عرض وتحليل ونقد وموازنة، رفعت التهامي عبد البر، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ص٤٨٠.

(٣) ديوان ابن زيدون ص ٢٠٢.

وأين هم من ابن حمديس حينما يبث أحزانه في أحضان الطبيعة، ويشركها معه في همومه، عندما يبكي صقلية، ويفتقد جاريته التي ماتت غريقة في أعماق البحر، فكلما شاهد البحر تأججت مشاعره، وفاضت قريحته.

أَذْكُرهَـــــا والدُّمُوعُ تسْبقُني كأنَّني للأَسَى أُجَارِيهَـــــا
يَا بَحرُ أَرخَصْتَ غَيرَ مُكترِثٍ مَنْ كَنتُ لَا لِلبيَاعِ أَغْلِيهَا
جَوهرةٌ كانَ خَاطــــرِي صَدَفاً لهَا أقِيها بِه وأَحمِيهَـــــا
أَبَتّها فِي حَشَـــــاكَ مُغْرَقَةً وبِتُّ فِي سَاحِلَيـكَ أُبْكِيهـــــا (١).

والنماذج على مشاركة الشعراء للطبيعة في عواطفهم كثيرة ...

من الذين أبدعوا في وصف النهر ابن حمديس، فقد رسم لنا صورة لنهر يجري، ويرتفع صوته بالأنين من الجروح التي أصابته من أطراف الحصى، وما يحمله بين تياراته من هموم الناس، التي يلقونها بين أمواجه؛ لتلقيها بعيداً عنهم، فوصف النهر وصفاً جميلاً، ممتعاً في صوره وأخيلته، حيث جعل الشاعر النهر أثناء جريه عبر البطاح، وكثرة ملامسته لأطراف الحصى، وطول جريانه عليها يصاب بالجروح، فيتألم بذلك الأنين الذي أصابه من جروحه النازفة، فيرسل آهاته لتعبر عن أوجاعه بصوت الخرير ، الذي يصدره وهو يلامس أطراف الحصى.

يقول ابن حمديس :

وَمُطَّرِدِ الأجزاءِ يَصقلُ مَتْنهُ صَبا أعْلَنَتْ للعَينِ مَا فِي ضَمِيرِهِ
جَريحٌ بأطْرافِ الحَصَى كلَّما جَرى عَليهَا شَكا أوْجَاعَهُ بِخريرِه
كأنَّ الدُّجى خَطَّ المجرّة بيننَا فأقبلَ يُلقي نفْسَه في غدِيرِهِ
شَربنا على خَافَاتهِ دُورَ سكرةٍ وأقْتَلُ سُكْراً مِنهُ لَحْظُ مُديرِه

(١) ديوان ابن حمديس، ص ٥١٧ .

كأنَّ الدُّجى خَطُّ المجرّة بيننَا   وقدْ كُلّلَتْ حَافاتِهِ ببدورِه [(١)].

جاءت صورته للنهر حزينة، باكية متألمة من أوجاع أتعبته، وهموم أرهقته، على عكس ما كان معهود من قصائد الشاعر الأخرى التي قالها في النهر، فلقد كانت قصائده في النهر مليئة بالحياة، وتنعم بالاستقرار، وتطرب بالطبيعة، إلا أنه أظهر لنا وجهاً آخر في هذه الأبيات، فالحزن والألم هما اللذان دفعا بالشاعر إلى الطبيعة؛ ليجعلها تشاركه همومه وأحزانه، ثم يبحث عن مسلي يسليه، وينسيه همومه، فيجد راحته في مجلس سُكرٍ، يتعاقرون الخمر فيه.

ولقد أحب الأندلسيون مجالس الأنس، واهتموا بتزيينها في وسط الطبيعة، وبين الأنهار، فقد فُطر الناس على حب المناظر الجميلة، والاستمتاع بتأملها والتفكر بعجيب صنع الخالق لها، فكيف إذا صادف ذلك حساً مرهفاً، وعاطفةً صادقة، وقريحة مستعدة للغوص في بحر المعاني؛ لاستخراج عجائب الدرر، فهذا ابن زيدون يمدح، ويصف مجلس أنس في روض، وعلى جانبه نهر:

يا أيّهَا المَلِكُ الجَلِي   لُ، يُكِلُّ ألسنَنا جَلالِكْ
انْظُرْ إلى مُحْتَلَنَا   قـــد زانَ سَاحتَهُ احتلالُكْ
نَهْرٌ وَرَوْضٌ، نحْنُ بَيْنَهُ   مَـــــا تفيّئنَا ظِلالُكْ
قَدْ فَاضَ في هذَا نَدَا   كَ، ونعّمتْ هَذا خلالُكْ [(٢)].

طاب محلهم الذي نزلوه، وزاد رونقاً وجمالاً بنزول الملك فيه، في تلك الرياض اليانعة، وبين البساتين المثمرة، وماء النهر يمر عليهم، ويشق روضهم، ويلامس بأمواجه أطراف مجلسهم، ليلطف جوهم، ويملأ المكان بصوت خريره، الذي يتناغم مع شذى الطير، ولحن المعازف، فيأتي النسيم عبر النهر مداعباً الأزهار، لينشر الفرحة والرائحة الذكية في أرجاء المجلس، ونلاحظ أن مجالس ابن زيدون لا يُكثر فيها من ذكر الخمر ، الذي اعتدنا أن نسمع به في مجالس ابن حمديس، الذي يقول فيه سيد نوفل : " إن هذا الشاعر تتوثق الصلة عنده بين الطبيعة والخمر؛ فهي تجلي محاسن

(١) ديوان ابن حمديس ص ١٨٦ .
(٢) ديوان ابن زيدون ص٢٢٧.

الطبيعة أمامه، وتثير بوضوحها، وبغموضها إلى الخمر"[١].

اهتم شعراء الأندلس بالطبيعة، وافتتن بعضهم بجمالها، وأحبوا ما فيها، فهذا ابن حمديس يعجب بمنظر نهر، وقد علت صفحته فقاعات هواء . يقول فيها :

ولَابسٍ نُقَبَ الأعْراضِ، جَوهَرهُ ... لهُ انْسِيابُ حُبابٍ رَقشُهُ الحَبَبُ
إذَا الصِّبا زلقتْ فيهِ سَنابكُها ... حَسبتهُ مُنصُلاً فِي مَتنهِ شُطَبُ
وردتُهُ ونُجومُ اللَّيلِ مَائلةٌ ... كَما تدَحْرَجَ دُرٌّ مَا لهُ ثُقَبُ
وَمغْربٍ طَعْنتهُ غَيرَ نَابيةٍ ... أسِنَّةٌ هي إنْ حَققتَها شُهبُ
ومَشْرقٍ كِيمياءُ[٢] الشَّمسِ في يَدهِ ... فَفضةُ المَاءِ منْ إلْقَائِها ذَهبُ [٣].

اجتمع في نهره صفات الجمال، والخصال الحسان، فقد أتى على النهر والليل أسدل ستاره على الأفق،واشتبكت النجوم في السماء، وانعكس نورها على صفحة الماء الجاري، فكأنما الدر يتدحرج من بين أمواجه، ولاح في الأفق نور الصباح من بعيد آذناً بأفول نور النجوم، وبزوغ شعاع الشمس، التي أرسلت رماحها من بعيد، لتغرسها في مياه النهر الفضية؛ لتحولها إلى ذهب أصفر.

ويقول ابن حمديس في موضع آخر يصف نهراً :

ومروٍ صَدى الرّوضاتِ يَسحبُ دَائباً ... عَلى الأرْضِ مِنهُ جُملَةً تَتَبَعّضُ
إذَا مَا جَرَى واهتزّ للعينِ مُزْبِداً ... حَسِبْتَ به فُرواً مِن النّسْرِ يُنفَضُ
وتنسَابُ منهُ حَيّةٌ غير أنَّها ... تطولُ علَى قَدرِ المَساب وتَعرُضُ
وتحسبُهُ إنْ حَبّكّتْ مَتْنَهُ الصَّبا ... عَموداً عَلاهُ النّقشُ وهُو مُفضَّضُ
لهُ رِعْدَةٌ تعتادُهُ في انحِدارهِ ... كَما تبْسطُ الكفُّ العنَانَ وتقْبضُ

---

(١) شعر الطبيعة في الأدب العربي ،سيد نوفل ،مطابع مصر ،القاهرة، ١٩٤٥ م ،ص ٢٧١.

(٢) والمقصود بالكيمياء عند القدامى :علم يعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنية وجلب خاصية جديدة إليها ،المعجم الوسيط مادة (كين) .

(٣) ديوان ابن حمديس ص ٢٥ .

كأنَّ له في الجِسمِ رُوحاً إذَا جَرى   بهِ نَهضةٌ والجِسمُ بالرُّوحِ يَنهضُ
ومَا هوَ إلا دَمعُ عَينٍ كأنَّها   لِطولِ بُكاءٍ دَهرِها لا تُغمّضُ [1].

تفنن الشعراء في الوصف، وأبدعوا في التشبيه، فرسموا لنا صورة من طبيعة الأندلس الفطرية، التي تعيش حولهم، وعلى مرآى من أبصارهم، فهذا النهر في سرعة جريه كالأرنب الهارب من قبضة النسر، وفي انسياب جريه، وتعرج ممراته كالحية السريعة، فقد أعطانا الشاعر صور من أحضان الطبيعة مليئة بالتشبيهات الجميلة، وبعد أن فرغ من وصف جري النهر ومجراه، أخذ في وصف لونه الفضي الذي علاه حباب الماء فزخرف شكله المتناغم مع أمواجه المرتعدة، ويرى في العين التي ينبع منها النهر ما هي إلى عين قد طال بكاؤها، فلم يغض ماؤها، ونلاحظ في الكثير من قصائد ابن حمديس الحزن والآسى، فيكثر من ذكر الدمع إذا رأى الماء. فيقول في موضع آخر :

نظرتُ إلى حُسْنِ الرياض، وغيمُها   جَرَى دَمْعُهُ منهنّ في أعْينِ الزّهْرِ(٢).

ويشبه في موضع آخر دموعه الكثيرة بالأنهار :

ولَولا مُلوحةُ ماءِ البُكا   حَسِبْتُ دموعيَ أنهَارها
ضَحكتُ ابنَ عشرين مِن صَبوةٍ   بكيتُ ابنَ ستِين أوزارهَا
فَلا تَعظمنّ لَديكَ الذُّنُوب   فَما زالَ ربُّك غفَّارُها [3].

ومواضع الدمع كثيرة عنده، لعل ذلك يرجع إلى بعده عن دياره، أو يتذكر جاريته التي ماتت غريقة في ماء البحر وهو يراها، أو يعلن بهذه الدموع التوبة، ويرجو من الله تعالى أن يغفر بها ذنوبه، ويغسل بهذا الدمع خطاياه التي أشغلته عن الآخرة، وحببته بالدنيا.

ما أجمل الأنهار، وما أجمل الاستمتاع بمشاهدتها، وهي تجري بين البساتين الخضر، ويحف ضفتيها الأزهار الكثيفة، يقول ابن زيدون:

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٢٩١.
(٢) المرجع السابق ص ١٩٢.
(٣) المرجع السابق ص ١٨٣.

كَأنَّ عَشِيَّ القَطْرِ في شاطىء النَّهْرِ وقدْ زهرَتْ فيهِ الأزاهرُ كالزّهرِ
ترُشّ بمَاء الوردِ رشّاً وتنثني لِتَغْلِيفِ أفْواهٍ بِطَيِّبَةِ الخَمْـــــرِ [1].

لا عجب أن يكثر الأندلسيون من وصف الطبيعة، فقد أعجب ابن زيدون بمنظر النهر وهو يجري، والزهر يتمايل راقصاً مع بعضه بعضاً، والسماء ملبدة بالغيوم، وتجود عليهم بقطرها، ولا يتم هذا الجمال عند إلا بوجود الخمر الذي يدفع الشاعر إلى قول الشعر؛ ليستمتع به أولاً، ويطلق بهذا الشعر شحنات احتبست داخل عقله ووجدانه، لتتفجر من خلال كلماته وخياله إبداعاً، ثم يبحث بعد ذلك عن رضى المتلقي الذواق للأدب، الذي يجد في شعره تعبيراً صادقاً عن خلجات نفسه، وقريب من هذا الجو الذي يعيشه ابن زيدون، نجد ابن خفاجة يقول في مجلس أنس على نهر:

أَلَا رُبَّ يومٍ لي بِبابِ الزَّخارِفِ رَقيقِ حَواشي الحُسنِ، حُلوِ المَراشِفِ
لَهوتُ بِهِ والدَّهرُ وسْنانُ ذَاهلٌ و غُصنُ الصَّبا ريّان لدنُ المعَاطفِ
أُعَاطي تَحايا الكأْس، والآس فِتيَةً تخايلُ سودَ العذرِ بيضَ السوالفِ
وذَيلُ رِداءِ الغَيمِ يَخفِقُ، والصَّبا تخُبُّ، ومَوجُ النّهرِ ضَخمُ الرّوادِف [2].

لا زال الشعراء في بحث مستمر عن أماكن يتأملون فيها الحياة، ويمرحون فيها، ليكتسبوا منها تجارب جديدة، تثري مخزونهم الأدبي بصور مستوحاة من الواقع، ممزوجة بالخيال الواسع القادر على استحداث صور جديدة ومشوقة، فقد ذهب ابن خفاجة إلى مكان معروف بـ(باب الزخارف) ليشاهد الحسان، ويتعاطى السم الزعاف، ويتذكر أيام الصبا، حيث كان يشرب فيه الخمر حتى يفقد عقله ويسكره، فيرى العذارى البيض سوداً، على نهرٍ تدافع أمواجه، وقد أظلتهم سحابة ممطرة، يسوقها الريح في الأفق لتسقيهم من قطرها، فنجدهم متنعمين بالمجلس الأنيق، والجو الرقيق بصحبة الخمر العتيق، فمثل هذه المجالس التي يخالطها الخمر، وغيرها من مجالس الفسق والمجون، هي من ساهم في إضعاف قوة الأمة الإسلامية في ذلك الوقت؛ حتى سقطت دولة

(١) ديوان ابن زيدون ص ١٤٤ .
(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٢١٠.

الإسلام، وبدلت راية التوحيد على تلك الأراضي التي رفع فيها صوت الحق لأكثر من ثمانية قرون.

ومجالس الأنس من الناحية التاريخية بدأت كظاهرة اجتماعية في أواخر الدولة الأموية في الأندلس، "ثم أخذت هذه الظاهرة في الشيوع والانتشار في عصر ملوك الطوائف، ومن هذه المجالس ما كان يعقد في المساء فيدوم طوال الليل، ومنها ما كان يعقد في الصباح فيدوم طوال النهار. وكلا النوعين من مجالس الأنس كان يشترك في وصف أمور بعينها، ثم ينفرد كلاهما بعد ذلك بأمور. كانا يشتركان في وصف الخمر وسقاتها وأدواتها، من كؤوس وأباريق، ثم تنفرد مجالس الليل بوصف مجالي السماء من كواكب ونجوم، بضيائها ولألائها. كما تنفرد مجالس النهار بوصف مجالي الأرض، ممثلة في رياضها وأزهارها، وأنهارها وجدولها، وغير ذلك من مباهج الأرض التي تقع تحت أبصارهم، وينفعلون بها (١)."

وهذه المجالس، وما فيها من خمر،وسقاة ، وجوار، وغلمان. .. جعلت في الكثير من القصائد مقدمة للولوج إلى الغرض المقصود، ممزوجة بالطبيعة الأندلسية المرحة من حولهم، فاستبدلوا الوقوف على الأطلال، والدمن، والديار الخربة، وصورتها الكئيبة بصور الطبيعة المبهجة، يقول ابن عمار في مدح المعتضد في مقدمة وقف فيها لشرب الخمر في روض توشت بزهرها، وتقلدت بجواهرها، وكساه الربيع حلل الجمال، وزخرفه ببديع الألوان، وقد شق النهر طريقه عبر الرياض :

أدِرِ الزُّجاجةَ فَالنَّسيمُ قدْ انْبرَى … والنَّجمُ قدْ صَرَفَ العَنانَ عَن السَّرَى
والصُّبحُ قدْ أهْدى لَنا كَافورَهُ … لمَّا استردَّ الَّليلُ منَّا العَنبرَا
والرَّوضُ كالحَسنا كساهُ زَهرُهُ … وشياً وقلَّدَهُ نَداهُ جَوهرَا
أوْ كالغُلام زَها بوَردِ رياضِهِ … خَجلاً وتاهَ بآسَهنَّ مُعذّرَا
روضٌ كأنَّ النَّهرَ فيه مِعصَمٌ … صَافٍ أطلَّ عَلى رداء أخضَرَا (٢).

---

(١) الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، ص ٣٠٨.

(٢) الذخيرة، ابن بسام، ج ٢، ص ٢٨٨ .

أصابه نفحات من النسيم العليل، فأمر الساقي بأن يدير عليهم كؤوس الخمر، ويسقيهم منها، ثم أخذ بوصف جمال الرياض، والنهر الذي يشقها، ففي هذه القصيدة "ضرب متجدد من ضروب المديح، الذي استهل بشيء طريف، وهذا الطريف هو وصف الطبيعة بصورته البهيجة الذي حل محل الأطلال"[١]، ويقول ابن عمار في موقف آخر، مخاطباً المعتمد بن عباد، ويصور فيه انسياب النهر على روض قد فاحت نسائمه بعبق الأزهار ليلاً، وهم يتبادلون أطراف الحديث العطرة في مجلس الأنس والسرور، والريح تحمل نسيم الرياض إليهم، وتعود بعطر حديثهم، فهذا النسيم يدور بينهم، ويبادلهم عطر حديثهم بأنفاس الرياض، كمن يمشي بالنميمة بينهم:

وليْلٍ لَنا بالسُدِّ بينَ معَاطِفٍ ... مِن النَّهر ينسَابُ انسِيابَ الأرَاقِمِ
بِحيثُ اتخذِنا الرَّوضَ جَاراً تَزورُنا ... هَداياهُ فِي أيْدي الرّياحِ النَّواسِمِ
يبلّغُنَا أنفاسَهُ فنردُّهَا ... بأعطرَ أنْفاسٍ وأذْكى لناسِمِ
تَسيرُ إلينَا ثمَّ عنَّا كأنَّها ... حَواسدُ تمْشِي بينَنا بالنَّمائمِ[٢].

طابت رياض الأندلس، وطاب نعيمها، فكم من نهر جرى بين بساتينها ورياضها؛ ليشق أرضها، ويروي عطشها، وفي هذا المعني يقول ابن اللبانة:

أمــــا عُلِمَ المعتـــدُّ باللّـــهِ أنني ... بحضْرتِــه في جَنّـــةٍ شَقَّهـــا نَهــــرُ
ومـــا هُو نهرٌ أعشَبَ النّبت حَولَــــه ... ولكنَّــــه سَيفٌ حمَائلُـــهُ خُضْــرُ[٣].

إن العين تتلذذ بهذه المناظر، كما تطرب الأذن عند سماع وصف مثل هذه المشاهد، لذلك يبحث الناس عن أجمل الأرضي، لينعموا بأجمل المشاهد، فهذا ابن اللبانة يصف مجلسه عند المعتد بن المعتمد، فكأنه يجلس في بستان كالجنة من جماله، وكثرة أشجاره، وطيب ثماره، والنهر يمر من وسطه، وما أجمل منظر لمعان الماء على ذلك البساط الأخضر، حتى إنه ليتوهم على الرائي لهذا المنظر أنه ينظر إلى سيف ألقي على بساط أخضر، وما أكثر تشبيه شعراء الأندلس لصفاء

---

(١) الأدب الأندلسي، الشكعة، ص ٣٤٦.

(٢) الذخيرة، ابن بسام ج٢ ص ٢٨١.

(٣) ديوان ابن اللبانة ص ٦٥.

النهر، ونقائه، ولمعانه بالفضة، حيث يصف الوزير الكاتب أبو الأصبغ[1] روض قد تنوعت فيه النواوير من أقحوان، ونرجس ، وورد على نهر من فضة مسبوكة قد جرت في روضهم. يقول فيها :

يَا مَنْ تأَمَّلَ رَوضاً ... بهِ النَّوّاوِيرُ غَضَّـــــــهْ
وَعايَنَ الحُسْنَ منهـــــا ... قدْ زيَّنَ البَعْضُ بَعْضَهْ
فالأُقْحُـــــوَانُ بَيـــــــاضٌ ... كـــأنه سِمـــــــطُ فِضَّـــــهْ
والنَّرجِـــــسُ الغَضُّ تِبرٌ ... في صُفرَةٍ مِنه مَحْضَـــــهْ
والـــــوَرْدُ مـــاءٌ وَنَارٌ ... سالَا على وجْهِ بَضَّـــــهْ
ضِدَّانِ في صَحنِ خَدٍّ ... قـــــدْ أُلّفا بَعْدَ بُغْضَهْ
والنَّهـــــر سبْكُ لُجينٍ ... جَرَى فَزَيَّنَ أَرْضَهْ [2].

لقد تسابق الشعراء على وصف الربيع ومباهجه، وما يحل معه من نواوير وأزهار ، ورياض وأمطار، حيث جعل بعض الباحثين الطبيعة الأندلسية من جملة الأسباب التي أدت إلى نهضة الشعر في الأندلس، فقد جعل بعضهم نهضة الشعر في الأدب الأندلسي في عدة أمور، منها ما يلي:

١. طبيعة بلاد الأندلس، وما فيها من المناظر الخلابة، والأمطار المتصلة، والأدواح الظليلة، والأنهار الجارية، والسهول الخصبة، والجبال المكسوة، والمروج الموشاة بألوان الزهر، والقصور الشاهقة، والرياض الغناء، والغواني الحسان. كل ذلك أكسب الوجدان لطفاً، والمعاني دقة، والألفاظ جمال وروعة.
٢. عناية الملوك والأمراء بقرض الشعر ، حملت الشعب جميعه على الإقبال عليه، حتى أصبح قول الشعر زينة لكل أديب، وجمال لكل عالم.
٣. كثرة جمهرة العرب في الأندلس، وتمكن السلطان في أيديهم، وشدة محافظتهم على تقويم

---

(١) أبو الأصبغ بن عبد العزيز الوزير ،أديب شاعر ،من شعراء القرن الخامس ،أنشد هذه الأبيات لأبي الوليد الحميري الإشبيلي ،ينظر ترجمته عند الحميدي في (جذوة المقتبس ص٥٧٤) ،والضبي في(بغية الملتمس ١٥١٨) .

(٢) البديع في وصف الربيع ،أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب الحميرى الإشبيلي، تحقيق عبد الله عبد الرحيم عسيلان،دار المدني ،جدة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ م، ص ٥١.

لسانهم [١].

إن الكثير من شعراء الأندلس كانوا وثيقي الصلة بطبيعتهم، فنجدهم يقصدون الأنهار في حال فرحهم وحزنهم، وفي حال انشراحهم وانقباضهم، ويتخذون من ضفتيه مكاناً لمجالس أنسهم، فالمتأمل منهم يقضي الوقت الطويل متفكراً في هذه الطبيعة عند حركتها وفي سكونها. يقول ابن خفاجة:

أَلا أَفصَحَ الطَّيرُ حَتّى خَطَب وَخَفَّ لَهُ الغُصنُ حَتّى اِضطَرَبْ
فَمِل طَرَباً بَينَ ظِلٍّ هَفا رَطيبٍ وَماءٍ هُناكَ اِنثَعَب [٢].

فقد شد انتباه الشاعر ذلك الطير الذي يقفز بين الغصون، ويغرد بأجمل الألحان، لتلامس حساً مرهفاً وأذناً متذوقة، فكأنما الطير تكلم، وشرع بالغناء، وكيف لا يحلوا له الغناء والطرب، وهو بين أغصان الأشجار، يأكل من أنواع الثمر، وتحت ظل الأوراق، وأمامه ذلك النهر يجري، وتتكسر تياراته على الصخور، فيملأ صوت الخرير الأرجاء، ليسد بصوته الهدوء الباعث للكآبة. ويقول ابن خفاجة في موضع آخر يصف أزهار وأغصان، ينحدر منها الندى بجوار نهر :

وَكِمامَةٍ حَدَرَ الصَباحُ قِناعَها عَن صَفحَةٍ تَندى مِنَ الأَزهارِ
في أَبطَحٍ رَضِعَت ثُغورُ أَقاحِهِ أَخلافَ كُلِّ غَمامَةٍ مِدرارِ
نَثَرَت بِحِجرِ الأَرضِ فيهِ يَدُ الصِبا دُرَرَ النَدى وَدَراهِمَ النُوّارِ
وَقَدِ اِرتَدى غُصنَ النَقا وَتَقَلَّدَت حَليَ الحَبابِ سَوالِفُ الأَنهارِ
فحَلَلتُ حيثُ الماءُ صَفحَةُ ضاحِكٍ جَذلٍ وحَيثُ الشّطّ بدءُ عِـــــــذارِ [٣].

كلما اتجه الشعراء إلى الطبيعة، ووجدوا في صفاء الأنهر ، وانسيابها راحة للبال، ومتعة

(١) قصة الأدب في الأندلس، محمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة العهد الجديد ، مصر، ١٩٥٦م، ص ٥٦.

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٦٨.

(٣) المرجع السابق ص ٣٣٦.

للأبدان، فوصف لنا الشاعر تلك الأشجار، وقد اكتست بالأزهار، فغلب لونها على الأوراق، وقد غطى نوارها الندى المتساقط عليها، وأبانها نور الصباح، وكل هذا وهي بجوار نهرٍ قد أينعت أزهاره كالدراهم، وانحدر الندى منها كاللآلئ، وبدا للشاعر صفحة النهر ضاحكة من ما هي فيه من نعيم، فتأمل الشاعر النهر وهو يضحك، والدر يلمع، ورأى ما ينموا على ضفة النهر من أغصان، كما ينموا على خذ العذارى الحسان من شعر رقيق، فجمال الطبيعة ذكره بجمال الحسان.

لقد أحب الملوك تخليد ذكراهم بقصائد تبقى على مر الأيام، وأجزلوا الأعطيات، فكثر المدح والمداحين، وطلاب العطاء، فهذا ابن الحداد يستجدي المعتصم بقصيدة يمدحه فيها ،ويقول :

ويَا لكَ مِنْ نَهرٍ صَؤُوْلٍ مُجَلجِلٍ	كأنَّ الثَّرَى مُزْنٌ به دائِمُ الرَّعْدِ
إذَا صَافَحَتْهُ الرِّيحُ تَصْقُلُ مَتْنَهُ	وتَصنَعُ فِيه صُنْعَ دَاودَ في السَّردِ
كأنَّ يَدَ المَلْك ابنِ مَعْنٍ مُحَمَّدٍ	تُفَجِّرُهُ من مَنْبَعِ الجُودِ والرِّفْدِ [(١)].

فهذه الأبيات بدوية السمات، مشرقية الهوى والنمط، أندلسية المنشأ، يشبه الشاعر فيها ممدوحه بالنهر، ويعطيه بعض صفات الإبل الصؤول المجلجل، ليبين ما بالنهر من غزارة في الماء، وقوة في الجري على البطاح، فالنهر الصؤول :هو النهر الدفاع، كثير الماء، فيفيض ويغرق من حوله، والمجلجل :هو القوي، الذي يسرع في جريه، ومعه أصوات عالية مخيفة، تتخيل مع هذه القوة والجبروت قبح منظر النهر، ووعورة مسلكه، إلا أنه على الرغم من سرعة جريه، وغزارة ما به من ماء، فقد حسن منظره، وطاب طعمه، فإذا لاعبت الريح صفحة الماء فكأنها تصقل عن السيف ما أصابه من صدى، لتبدل لونه إلى الصفاء والنقاء، فهذا النهر يلمع كالفضة في نقائه.

وبعد أن انتهى الشاعر من بيان قوة النهر، وفيضان ما به من ماء، وجمال منظره، أخذ يمدح المعتصم بهذا النهر، ويرى أن هذا النهر ليس بشيء أمام عطائه وكرمه، فمن يده تتفجر أنهار الكرم والجود، فهو نبع للعطاء، وأهل للاستجداء، فجعل الشاعر الطبيعة من حوله تشاركه في صنع

---

(١) ديوان ابن الحداد ص١٩٩.

مدائحه في ممدوحة، " فمشاركة الطبيعة لشعر المديح هي ظاهرة مشرقية قبل أن تكون أندلسية، فقد كان أول من حاول ذلك- ولكن في حذر شديد- مسلم بن الوليد، ثم بدا ذلك واضحاً كل الوضوح في شعر أبي تمام والبحتري، عندما كانا يمدحان العباسيين... فقد ضمن كل منهما مديحته عدداً غير قليل من الأبيات التي يصف بها الطبيعة في الليل، غير أن الأمر في شعر الأندلس يختلف اختلاف بيناً، فإذا كانت محاولات مزج الطبيعة بالمديح عند المشارقة تجري في حذر شديد ...، فإنها عند الأندلسيين صريحة واضحة [١]."

وللطبيعة الجميلة بين الأصدقاء حياة أخرى، فهي منبع ذكرياتهم، وتذكرهم بأيامهم الخوالي التي قضوها في مجالس أنسهم، يتجاذبون أطراف الأحاديث بينهم في محبة وصفاء، ولعل ابن اللبانة خير من يمثل ذلك، فاستمع إليه وهو يعبر عن صدق محبته وإخلاصه للملك المأسور المعتمد بن عباد في أغمات، حيث يقول :

فَوقَ شَاطِئٍ وَادِيها رياضُ ربِّي   قدْ ظَلَّلَتها مِن الأنْشَامِ دَوحَاتُ
كأنَّ وَاديها سِلكٌ بلبَّتِها   وغَايةُ الحُسنِ أسْلاكٌ ولبِّاتُ
نهْر شَربتُ بعبريهِ عَلى صُـــــور   كانتْ لَها فيَّ قبلَ الرَّاحِ سَوْراتُ
وكُنتُ أورقُ في أيْكاتهِ ورَقاً   تَهوى ولِي مِن قَريض الشِّعر أصْواتُ
وكـــمْ جَريتُ بشَـطِّي ضِفَيتْـــهِ إلَى   مَحاسِنٍ للهَوى فِيهنّ وقَفاتُ [٢].

فالشاعر يستعيد ذكريات الماضي، ويتذكر ما كان في ديارهم من بساتين، ورياض، وأدواح كانت تظلهم، ويتذكر معه ذلك النهر الذي كان يشق أرضهم، ويزينها كالعقد على عنق الحسناء، ويتذكر كم كان يجلس على ضفته، ويتأمل أوراق الشجر، ويقول الشعر ، ويتغنى به.

وإذا نظرنا إلى الفتن والحروب في الأندلس، وجدنا أنها كانت سبيلاً للمصائب والنكبات،

---

(١) الأدب الأندلسي، الشكعة، ص ٣٤٥.
(٢) ديوان ابن اللبانة ص٣٩ .

والفرقة بعد الجماعة، فكم فقدوا فيها من صاحب غالٍ، وأخٍ عزيز، وابن بار بوالديه، ويظهر ذلك في قصيدة لابن عباد، يرثي فيها ولديه المأمون، والراضي، وقد رأى قمرية نائحة على سكنها، وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغماً :

بَكَت أَنْ رأتْ إلفَين ضَمهُما وَكرُ ... مَساءً وَقَدْ أَخنى عَلى إلفِها الدَهرُ
بَكَتْ لَم تُرِق دَمْعاً وَأَسْبلتُ عَبرَةً ... يُقصّرُ عَنها القَطرُ مَهما هَما القطرُ
وَناحَت فَباحَت وَاِستَراحَت بِسرّها ... وَما نَطقَت حَرفاً يَبوحُ بِهِ سِرُّ
فَماليَ لا أَبكي أَمِ القَلبُ صَخرَةٌ ... وَكَم صَخرَةٍ في الأَرضِ يَجْري بِها نَهرُ
بَكَت واحِداً لَم يُشجِها غَيرُ فَقدِهِ ... وَأَبكِي لأَلّافٍ عَديدهُمُ كُثرُ
بُنيَّ صَغيرٌ أَو خَليلٌ مُوافِقٌ ... يُمزّقُ ذا قَفرٌ وَيُغرِقُ ذَا بَحرُ [(١)].

فالمعتمد يصور حاله في تلك القمرية الحائرة التي اضطرب حالها، ولم تبخل ببكائها، واستراحت من همها الذي كانت تكنه في صدرها، وتتجرع مآسيه في قلبها، فلم تجد حلاً للتعبير عن حالها، والبوح بمعاناتها إلا بالبكاء، بينما يتعجب الشاعر من نفسه الأبية، وقلبه العصي على الدمع، فكيف لا يبكي، ويستريح من همه الذي أرهقه، ويعترف بدمعه حسرة على فراق ابنيه؟!، ويتساءل في نفسه: هل قلبي حجر لا يحس ولا يهرق الدمع للفراق؟، فيتعجب من قلبِه الذي لا يدمع، والحجر تتفجر منه الأنهار، ويرجع لمصاب القمرية، فهي تبكي لفقد واحد، وهو يتحسر لفراق ابن همام، وصاحب وفيّ يركب البحر من أجله ، ويقطع المفازات في حبه.

الدنيا لا تدوم لأحد، ولا يدوم لها حال، فكم من ملك رفعت له علامات، فلما علا شأنه مات، وكم من دولة سطع شمسها، ثم يأفل نورها، فهذا ابن عباد يتذكر قصوره في الأندلس، ويتحسر على فراقها :

بَكى المُبارَكُ في إثرِ ابنِ عَبّادِ ... بَكَى عَلى أَثر غِزلانٍ وَآسَادِ

---

(١) ديوان ابن عباد ص ٦٨.

بَكَت ثُرَيّاهُ لا غُمَّت كَواكِبُها بِمِثلِ نَوءِ الثرَيّا الرائح الغَادي
بَكىَ الوَحيدُ بَكى الزاهي وَقُبَّتُهُ وَالنَهرُ وَالتاجُ كُلٌّ ذُلُّهُ بَادي
ماءُ السَماءِ[1] عَلى أَبنائِهِ دِرَرٌ يا لُجَّةَ البَحرِ دومي ذَاتَ إِزبادِ [2].

كل شيء يبكي لفراقه، ويتألم لمصابه، فهذه قصوره (المبارك، والثرياء، والوحيد، والزاهي)، تبكي لمفارقته، وتتحسر لابتعاده، فهو الحامي لها، والراعي لأمورها، فقبة القصر، والنهر، والتاج، ظهر ذلها وانكسارها عليه، فهي تبكيه شوقاً، وأملاً بعودته من أسره، فهو الذي طالما أشعرها بالعز والكرامة، "والشاعر حينما يعدد هذه الأماكن، فهو لا يقصد من وراء ذلك قصداً تقريرياً، مجرداً لأحداث تاريخية، أو ليعلمنا بامتلاكه لها، ولكن نظراً لما كان لهذه المواضع من خصوصية عنده، ولأنه شعر بفقدها حقاً، أراد أن يبحر معها مرة أخرى عبر دائرته الشعرية، ولكي يظهر مدى التصاقه بها قلب الأمر، وجعلها تبكي عليه، وتحن إليه، وليس العكس، وفي هذا توظيف جيد للمكان، إذ إن إناطة البكاء إلى الأمكنة تشير إلى حتمية الفقد وإلى الرغبة العارمة في الارتباط بها والعودة إليها مرة أخرى، إذ شهدت تلك البلاد بأماكنها، وأنهارها، وقصورها عزه، وعز ملكه.[3]"

إن الأصحاب لا يعرفون إلا في وقت الشدائد، فما أكثرهم في الرخاء، وما أقلهم في وقت الحاجات، ولعل ابن اللبانة لم ينس صاحبه، ويتذكره في مرضه، فقد قال في صاحب ميورقة، وقد ألم به ألم:

شَكى لِشَكواكَ حتَّى الشَّمسُ والقمرُ وباتَ دُرُّ الدَّراري الزُّهر يَنتشـــــرُ
وراحـــــتْ الرِّيحُ لا يذْكُو لَها عَبــقٌ وأصبـــــحَ الرَّوض لا يُندِى لهُ زهرُ
وقلّصَ الظلّ في فصْل الرَّبيعِ لنَـــا فَكـــادتِ الأَرضُ بالرَّمضَاءِ تسْتعرُ

(١) أسرة بني عباد تنسب إلى النعمان بن المنذر الذي كان يكنى بابن ماء السماء .
(٢) ديوان ابن عباد ص ٩٥.
(٣) المكان في الشعر الأندلسي ، أمل محسن العميري ،ص ٧٧.

والمَاءُ غَاضَ لنَا غَيضـــــاً فمَا نبعتْ عَينٌ ولاَ سَــــال في بَطْحَائِها نَهرُ[١].

فكثرة مشاهدة الشعراء الأندلسيين للطبيعة، والاستمتاع بمباهجها، كل ذلك أولجها في قلوبهم، حتى أضحت الموجه لأقوالهم، والمعبر عن تصرفاتهم، فنجد أن ابن اللبانة استخدم ألفاظ البيئة في قصيدته؛ ليدل على حزن الطبيعة لمرض أصاب صاحبه، فهذان النيران يشتكيان لشكواه، ويغتمان لغمه، والريح لا رائحة لها، وكيف تطيب رائحتها والقفار قد أقفرت، والأزهار قد ذبلت حزناً على مرضه، ولا ظل يرتجى في أرض مشى عليها، واختفى عنها، حتى كادت الأرض أن تستعر بالرمضاء، وتحرق من عليها، والماء غاض لفقده، فلم تنبع عينها، ولم يجرِ نهرها، فقد جعل الشاعر الطبيعة تتألم لفقده ، وتظهر الحزن، "فالطبيعة بسمة، ومتعة، وأمل، وإشراق، والشكوى حسرة، ويأس، وكآبة، وحزن، ولكن الشاعر الأندلسي الموهوب استطاع أن يجمع بين الضدين، وأن يؤلف بين النقيضين[٢] "، فقد استطاع الشاعر الأندلسي أن يوظف الطبيعة المرحة المبتسمة في شعر الرثاء، والحنين، والشكوى، كل هذا من تعلق الأندلسيين بطبيعتهم، وحبهم لها.

وقد توسع شعراء الأندلس في ذكرهم للنهر ، حتى وصل بهم الحال أن صاحبهم في حياتهم اليومية، فهم يشاهدونه في الصباح والمساء، في حال ذهابهم وإيابهم، يأكلون من خيراته، ويسقون به ممتلكاتهم، ويتسامرون على ضفافه، لذلك نجد أن بعض ألفاظ النهر وظفت توظيفاً حقيقياً، والبعض الآخر غلب عليه خيال الشاعر ؛ فوظفه توظيفاً مجازياً :

- فابن خفاجة عندما وصف أندلسه الحبيب لامس الواقع، وذلك في قوله :

يَا أهْلَ أنْدلسٍ للهِ درّكـــمُ مـــاءٌ وظلٌ وأنهارٌ وأشْجارُ [٣].

و قوله:

---

(١) ديوان ابن اللبانة ص ٦٧.

(٢) الأدب الأندلسي ،الشكعة ص ٣٤٩.

(٣) ديوان ابن خفاجة ص ٣٦٤.

أَمَا وَالتِفاتِ الرَّوضِ عَنْ أَزرَقِ النَهرِ   وَإِشْرافِ جَيدِ الغُصْنِ فِي حِليَةِ الزَهرِ[1].

وكذلك ابن عمار في قوله :

رَوضٌ كأنَّ النهرَ فِيه مِعْصَمٌ   صَافٍ أطلَّ عَلى رِداءٍ أخضَرا [2].

- على أن توظيف المجاز أكثر شاعرية، كما نجد ذلك في بيت ابن حمديس، حينما قال :

هزَبرٌ عَلى بحْرٍ مِن الحَربِ مُفعمٌ   عَلى جِسمِه نَهيٌ وفِي يـــدهِ نهرُ [3].

فممدوحه كالأسد الضاري في المعارك، قد أرتدى درعاً، وتقلد سيفاً، يفتك بالأعداء، ويسيل من أجسادهم الدماء، حتى سالت الأرض كالنهر من جروحهم النازفة.

ويقاربه قول ابن اللبانة :

كَلنِي إِلَى أحَدِ الأَبْناءِ يُنعشُـــــــــــني   مَا لمْ يكنْ ليَ بَحرٌ فليكنْ نهـــــــرُ [4].

يبحث عن بحر العطاء في خزائن المعتمد، ويتأمل الغنى عنده، فإذا لم يحصل على مبتغاه عنده؛ ذهب إلى أحد أبنائه، واستدر نهر كرمه بقصائده.

أما ابن حمديس، فلا ينفك عن حسه الشاعري، فيلجأ إلى التشبيه الصريح لممدوحه بالبحر في غزارة مائه، وكأن غيره أنهار، ويظهر ذلك في قوله :

لأَصبحتَ مِثل البحرِ يَزخرُ وَحدهُ   وإنْ كَثر الأَنهَارُ مِن عَن جَوانبهِ [5].

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٢٣ .

(٢) الذخيرة، ابن بسام، ج ٢، ص ٢٨٩ .

(٣) ديوان ابن حمديس ص ٢٥٦.

(٤) ديوان ابن اللبانة ص ٧٠

(٥) ديوان ابن حمديس ص ٢٧.

فجعل صاحبه كالبحر، يزخر بآدابه وحده، وجعل من دونه من القوم كالأنهر، وإن كثر عددهم، فهم لا ينالون مقامه.

وغيرها من الأمثلة الكثير، ولقداكتفيت ببعض النماذج.

إن المتصفح للدواوين الأندلسية، يجدها فائحة بعبق الأزهار، غارقة في غمرة الألوان، متأملين أدق التفاصيل في الطبيعة، فهذا ابن خفاجة يصف ورداً انقلب لونه من الحمرة إلى الخضرة الباهتة، مستخدماً في تشبيهاته ألفاظاً من الطبيعة المائية المحيطة به، يقول فيها :

هَل ساءَهُ أَنَّ آلَ آساً وَردُهُ وَتَعَطَّلَت مَن فيهِ كَأسٌ تُشرَبُ
فَكَأَنَّ صَفحَتَهُ وَنَدَّ عِذارِهِ ماءٌ يَثورُ بِصَفحَتَيهِ طِحلِبُ [1].

فأراد أن يشبه لون الورد بعد ذبوله، وتحول لونه، فبحث في جواره؛ فوجد الطحلب الذي ينبت في الماء قريب الشبه من لونها، فهذا الورد بعد صبوته وعذوبته ذبل، وذهب رونقه، كالماء الذي أصابته الطحالب؛ ففقد عذوبته.

لم يقتصر ذكر شعراء الأندلس لأنهار الدنيا؛ بل تعدى ذكرهم لأنهار الجنة الخالدة، وعيونها الجارية، فإن ابن حمديس يصف حاله مع محبوبٍ عصي عليه بعبارة رشيقة، تبث النشوة في روع قارئها، وذلك عندما يقول :

كـــمْ ذَا يُغَيّرِني هـــوا لَكَ بخَلقـــكِ المتغـــيّرِ
نَقَضَتْ حَلاوةَ مَوردِي مِنه مَـــــرارةُ مَصـــــدرِي
ومنعتَني مِن لَثـــم فِيك جَـــنَى الرِّضابِ المُســـكرِ
أبجنّةِ الفِردَوسِ أُحـــرَمُ شُربَ مَـــاءِ الكَوثرِ [2].

(١) ديوان ابن خفاجة ص ١٩٠.

(٢) ديوان ابن حمديس ص ١٧٨ .

يتعجب من حاله، فهو في جنةٍ مع محبوبه الممتنع، ويُمنع من شرب ماء الكوثر، فهو يرى فيه الجنة التي قد منع فيها شرب الكوثر ؛ فأصابه العطش.

وقد يقصد بالكوثر الشيء الكثير ، أو النهر الجاري في مدحه، يقول عبد الجبار في موضع آخر ،مشبهاً كرم المعتمد بن عباد :

أعْطتكَ رِيحانَ الثَّناءِ حَديقةٌ ... ظَمئتْ ولكنْ قَلَّما تسْتمطرُ

وأنَا العَلِيمُ بأنَّ طُولكَ شَاملٌ ... وذَراكَ رِحرَاحٌ[1] وَجُودَكَ كَوْثَرُ [2].

فحكمه عام على مملكته، وعلمه جاري في جميع شؤونها، وهو صاحب الخصال الحميدة، والطباع الكريمة، فقد غطت على من حوله، فهي كالنهر الجاري ماؤه لا ينضب ما به من ماء، ولا يقصده أحد؛ إلا وارتوى من فيض جوده.

ولقد أحب العرب الخيل، وحرصوا على انتقاء أجودها، وأكرمها نسلاً، فهي وسيلة تنقلهم، وأداة خلاصهم في يوم الوغى، فالفارس يندمج مع فرسه؛ لتكر معه وتفر، وتقدم على الموت ولا تتأخر، ولطالما تغنى بها ابن خفاجة، وذكر صفاتها وألوانها، وحاله مع فرسه التي تقطع الديار ، وتمخر البحار والأنهار. يقول فيها :

وَحَنَّ إلى شُقْرٍ فَخفَّ على السُّرى ... يَخوضُ خَليجـــــــاً أَو يَجوبُ كَثيبا

يَؤُمُّ بِها أَرضاً عَلَيَّ كَريمَـــةً ... وَمُرتَبَعاً فيها إِلَيّ حَبيبـــــا

وَنَهراً كَما اِبيَضَّ المُقَبّلُ سَلسَـــــلاً ... وَجِزعاً كَما اِخضَرَّ العِذارُ خَصيبـــــا

وَرُبَّ نَسيمٍ مَرَّ يخطرُ عاطِـــــــراً ... رَقيقُ الحَواش لا يُحَسُّ دَبيبـــا

وَجَدتُ بِهِ مِن ذَلِكَ الماءِ بَلَّةً ... وَمِن نـــــــورِ هاتيكَ الأَباطِحِ طيبا[3].

---

(١) رحراح : أي فيه سعة ورقة، وعيش رحراح :واسع ،معجم الصحاح مادة رحح .

(٢) ديوان ابن حمديس ص ١٩٧.

(٣) ديوان ابن خفاجة ص ١١٢.

السيل:

لقد امتازت شبه الجزيرة الأندلسية بكثرة الأنهار ،والجداول، والغدران، ومصبات المياه، إلا أنها لا تدوم على حالها طوال العام، ففي بعض الفصول تجف بعض المنابع، وتنضب مياه الجداول، وتنحسر مياه الأنهار، وفي بعض فصول السنة يصفي ماؤها، ويطيب مرآها، فتجري في كل سلاسة وانسياب، إلا أنها إذا زادت الأمطار عليها، واستمرت لبضعة أيام، قد تتحول هذه المصبات ذات المناظر الجميلة إلى سيلٍ عارم، يدمر ما أمامه، ويجرف ما مر على طريقه، فتهلك الحرث والنسل، وتخرب المدن، وتدمر المباني، وتحاصر الناس، ولقد تنبه الشعراء لهذه المناظر في جميع أحوالها، في حالة هدوئها وانسيابيتها، وفي حال فيضانها وتدميرها، فهذه المناظر يتعايشون معها، فهذه الأنهار، والجداول، والأودية تطوق مدينتهم، وتمر على حدائقهم وبساتينهم، لذلك لم يغفلوا عنها، وتحدثوا عنها في أشعارهم، فهذا ابن خفاجة يصف حال مطرٍ نزل بهم؛ حتى كادت السماء أن تغمر بمطرها الكل. يقول فيها :

أَلَا طَمَّ بَحرُ أَتِيٍّ طَما ... وَجدَّ انكِفاءُ سَماءٍ تَجُود
فَأَهوَتْ تَخُرُّ هُناكَ البُنى ... كَما تَتَلَقّى المُلوكُ الوُفُود
وَمالَتْ كَأَنَّ عَلَيها صَلاةً ... فَبَعضٌ رُكوعٌ وَبَعضٌ سُجـــود[1].

فكأن البحر قد داهمهم بهذه الأمطار التي تنزل عليهم بغزارة، فحوصروا تحت وطأة المطر، وجريان السيل، فخرت من غزارة الأمطار المباني، وتدمر العمران، وأصبحت المدينة في فوضى عارمة، وكثر الخراب والدمار، فكأن مباني المدينة في انهيارها، وسقوطها، وانحناء جدرانها، مستعدة لاستقبال الملوك، فهي في نزولها وانحنائها إلى الأرض تبين خضوعها،ويشبه مبانيها بعد هذا السيل العارم بحال المصلين، فمنها الواقف على حاله، ومنها ما تدمر جزء منه، وانحنى كالراكع، ومن هذه المباني ما خر على الأرض كالساجد، فنلاحظ الدمار، والفوضى، والخراب الذي سببه السيل في هذه

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٣٠٨.

الأبيات، فقد وصف الشاعر ذلك الموقف، ورسمه بكل احترافية، وأروع تشبيهات، ونجد الشاعر في موقف آخر يصف منظراً قريباً من المنظر السابق، الذي سببه السيل بأبيات بعيدة عن الكآبة، والتحسر على ما أحدثه السيل من دمار وهلاك، ولا تخلوا أبياتها من الدعابة والطرافة. يقول فيها :

أمَا ومَسيلٍ سَائِلِ الغَيثِ كالسَّطرِ   يَؤُمُ قَرَاراً دَائِرِ المَاءِ كالعَشرِ
وَقَدْ غَمَرَ القِيعاَنَ ماءٌ مُصندلٌ   كما أترعَ السَّاقِي الزُجاجَةَ بالخَمرِ
لقدْ أُبتُ بينَ الرَّعدِ والقَطرِ أشْتكي   بِسمْعِي مِن وَقرٍ وظَهرِي مِن وَقرِ
وهَا أنَا مَبلولُ الجَناحِ مِن الحَيا   بِصوبٍ وَمَذعُورُ الفِراخِ مِن الوَكرِ
بِدارٍ سُقتها دِيمةٌ إثرَ دِيمةٍ   فَمَالتْ بها الجُدرانُ سَطراً عَلَى سَطرِ
فَمِن عارضٍ يسقِي، ومِن سَقفِ مَجلسٍ   يُغني، ومِن بيتٍ يَميلُ مِن السُّكرِ [(١)].

فالشاعر يصف أثر السيل على المدينة بأسلوب لطيف، فيه شيء من المرح والبهجة، فيرسم لنا صورة المطر وهو ينزل عليهم، وقد غمر أراضيهم وقيعانهم؛ حتى فاضت بالسيل، كما يملأ الساقي الكأس بالخمر، وهذا السيل لم يأتِ إلا من مطر دام عليهم أيام، فهذه الديمة تسكب عليهم في كل حين، حتى مالت جدرانهم، وهوت أسقفهم، وتدمرت ممتلكاتهم، والمطر لازال يتساقط عليهم، والرياح تعصف بهم، حتى خرت أسقفهم بقطرات المطر المتساقط عليهم داخل دورهم، فتحدث نغمات تهتز لها المباني، وتخر على إثرها الجدران كالسكارى، فكأنها تغني بصوت الهلاك والدمار، وقد ابتعد الشاعر في هذا الموقف، الذي يستدعي الحزن والآسى عن الكآبة، واتجه إلى الدعابة والمرح، وقلما كانت الطبيعة لديه قاتمة عابسة، "فلاتكاد تجده يصف منظراً محزناً، أو شيئاً قبيحاً، أو يصف نفساً منقبضة، أو يتكلم عن بؤس الأيام، وأهوال حوادثها، فشعره صورة لحياته النفسية، المملوءة بالسرور ، والإعجاب بالجمال[(٢)]."

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٣٠٧ .

(٢) المفصل في تاريخ الأدب العربي في العصور القديمة والوسيطة والحديثة، أحمد الإسكندري، أحمد أمين، علي الجارم، عبد العزيز البشري، أحمد ضيف، تقديم حسان حلاق، دار إحياء العلوم، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية ،٢٠٠٤ م ص٣٥١.

وقد يخرج السيل عن معناه الحقيقي إلى معانٍ مجازية مختلفة قد لا يكون فيها السيل مصدراً من مصادر المياه بل يعكس صور السيل في قوته واندفاعه وبطشه ...، ونشاهد ذلك عند ابن خفاجة وهو يصف حاله مع خصومه وأعدائه، كأنهم سيل تلاطمت أمواجه، واندفعت نحوه بكل قوتها، ولكنهم لم يجدوا منه إلا أن زادته إصراراً، وتماسكاً، وقوةً، فهو صامد لهم ، معاند لمرادهم:

و دَفعتُ في صَدر الرَّدى عَن مَطلبٍ ... بَيني وبينَ الدَّهـــــرِ قِـــــراعُ
وقَبَضتُ ذَيلي رَغبَةً عَن مَعشَرٍ ... عُوجِ الطِّباعِ كأنَّهم أَضلَاعُ
جَارِينَ في شَوطِ العِنادِ، كأنَّهُم ... سَيلٌ، تَلاطَمَ مَوجُهُ، دَفّاعُ
يَرمُونَ أعطافي بنَظرَةِ إحنَةٍ ... وَقَدَتْ كَمَا تُذكي العُيُونَ سِباعُ
أفرَغتُ من كَلِمِي عَلَى أكبادِهِمْ ... قَطراً، لهُ أسماعُهُمْ أقماعُ
ووصَلْتُ مــا بيني وبينَ مُحَمَّدٍ ... حَتَّى كأنّا مِعصَمٌ وذِراعُ [(١)].

فهو في صراع وخصومة مع بعض القوم الذين يحسدونه على اتصاله بابن عائشة، ويحاولون إبعاده، واقتلاعه من مكانه، كما يقتلع السيل ما وجده في طريقه، ولكن الشاعر وصل ما بينه وبين صاحبه، فكأنهم يدٌ واحدة، أحدهم المعصم، والآخر الذراع، فلا ينفصلان عن بعض.

وهذا ابن حمديس، يشبه خروج نور الصبح بالسيل المتلاطم، الذي يجرف كل شيء أمامه. يقول فيها:

والصُّبح قَدْ دَفَعَ النّجوم عُبَابـــه ... كأنَّه سَيلٌ يَسُوقُ حبَابـــــــــا [(٢)].

فالصباح يدفع بنوره نجوم المساء، كالسيل الذي يدفع معه فقاعات الماء، ويدحرجها حتى تختفي عن الأنظار، وقال في موقف آخر :

والدُّجى يَرنـــــــو إلى إصْبَاحِهِ ... بِعيونٍ مِن نُجومِ الجَوّ حُـــــولِ

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٢٢٤.
(٢) ديوان ابن حمديس ص ٧.

خَافَ مِن سَيلِ نَهــــــارٍ غَرَقاً فتولّى عَنه مَبلـــــول الذُّيولِ[١].

فكأن نجوم الليل قد خافت الغرق من سيل النهار، فتولت هاربة عنه، وهي تجر أذيالها المبتلة من طرف سيل الشروق والإصباح.

دفعت الطبيعة الأندلسية الشعراء إلى التركيز فيما حولهم، فتأملوا كل شيء يعيش فيها، فلا يكمل جمال الطبيعة إلا بما يعيش فيها، ونلمس ذلك في قصيدة لابن حمديس، يصف بها خيلاً أعجب بألوانها، وسرعة جريها، وانسيابية حركتها :

يَعدُو ولَا ظِلٌّ لَه فَكأنَّهُ بَرقٌ فَيا لِلبرقِ مِن مَركُوبِ
أوْ أَشهبٍ مِثل الشّهابِ ورَجمِهِ شَخصَ المُرِيدِ بِمُحرقٍ مَشبُوبِ
لَا فَرقَ مَا بَين الصَّباحِ وبَينهُ إلاَّ بِعدوٍ مِنه أوْ تَقريبِ
أوْ أصْفرٍ مِثلَ الْبهارِ مُغيّرٍ بِسوادِ عَرْفٍ عَن سَوادِ عَسيبِ
أوْ أشْعَلٍ لِلون فِيــــــه شُعلَةٌ تُذكى بِريحٍ مِنه ذَاتُ هُبوبِ
وكأنَّه مِرداةُ صَخــــرٍ حَطّــــــهُ مِن عَلوَ سَيلٌ مَاجَ في تَصويبِ [٢].

في الخيل ما يأسرك إلى تأمل جمالها، وقوة بأسها، فقد افتتن الشعراء بها، فإذا جرت أمامه لا يكاد يراها، ولكن لعله يستطيع أن يلمحها وهي تعدو، فكأنها برق لمع أمام ناظريه بسرعتها، ثم اختفى، وهذه الخيل مع سرعتها وقوتها، فهي على ألوان مختلفة، فقد شبهها الشاعر بما يشاهده من الطبيعة، فمنها: الأسود، والأشهب، والأصفر، والأشعل، ومع سرعة هذه الخيل، وجمال لونها، فهي خفيفة في حركتها، وسريعة في تغيير موضعها، فكأنها صخرة زحزها السيل من مكانه، وألقاها معه من قمة الجبل، فهي تتدحرج يمنة ويسره، فلا تكاد أن تراها إلا وقد غيّرت موضعها، وقد قارب في تشبيهه لسرعة الخيل، وحركتها بتشبيه امرئ القيس لفرسه، حين قال:

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٤٠٤.

(٢) المرجع السابق ص ٦١.

مِكَرٍّ مفرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً   كجلمودِ صخْر حَطَّهُ السَّيلُ مِن عَلِ[١].

فصورة ابن حمديس قريبة من تصوير امرئ القيس لفرسه، "ولا عيب في أن يأخذ اللاحق من السابق، لأن مسألة التأثر والتأثير مسألة طبيعية في الثقافة، والفكر الأدبي، ولكن بشرط أن يعيد اللاحق ما أخذه من معنى، أو فكرة، أو صورة، فيخرجها إخراجاً جديداً، ويطبعها بطابعه الخاص، ويصبغها بلون إحساسه؛ فيلبسها ثوباً جديداً، وكأنها قيلت لأول مرة[٢]."

ويقول ابن حمديس في موضع آخر، يصف فيه سرعة جري الخيل، وحركتها، وقوة بأسها بالسيل:

ومَديدِ الخُطى كَأَنّكَ مِنه   تَضعُ اللبدَ فَوقَ تَيّارِ سَيْلِ
قَيدُ وحْشٍ، مَلاذُ خَائرٍ وَهنٍ   وَقرَى مَعْقلٍ، وحَارسُ لَيلِ
أسِبْقُ الرِّيحَ فَوقه فَإِذَا مَا   فَتّها أمْسَكتْ بِفضلةِ ذَيلي[٣].

لقد أراد الشاعر في هذه الأبيات أن يبين قدرة الحصان، فهو سريع في عدوه، خفيف في حركته، فهذا الحصان في سرعته، وامتداد خطاه، كالصوف الذي سقط في مجرى السيل، فلا أنت تستطيع أن تمسك بهذا الصوف، أو حتى أن تلحق به، فهذا الحصان كالصوف، يجري بسرعة مع السيل، ويجول يمنة ويسرة عبر تياراته .

لقد دقق الشعراء النظر في السيل والطبيعة من حولهم، فبعد تأملهم لها وجدوا في السيل بعض الخصال الحميدة والصفات الجميلة التي تدل على القوة والشجاعة والإقدام، فهو إذا سال دمر ما في طريقة، فلا شيء يقف أمامه إلا وهلك، لذلك وصف الشعراء شجاعة من أرادوا مدحه بالسيل، يقول ابن حمديس:

ذَاقُوا بِه كلَّ ضيقٍ لَا انْفسَاحَ لهُ   تصَافَنوا فِيه طرقَ المَاءِ واقتَسَمُوا
جَهّزتَ حزَماً إلَيهِم كلَّ ذِي لُجِبٍ   تُحُمّ بالضَّربِ هِنديّاتُهُ الْخذَمُ

---

(١) ديوان امرئ القيس ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢) الروضيات في الشعر الأندلسي، ج ٢ ص ١٠٣ .

(٣) ديوان ابن حمديس ٤٠١.

عَرَمْرَمٌ مُقْدم الفُرسَانِ تَحْسَبُهُ سَيْلاً يُحَدثُ عمَّا فَجّرَ العَرِمُ [(١)].

فقد شبه إقدام الأمير علي بن يحيى؛ عند فتح حصن الأجم بالسيل العرم، فهو في مقدمة جنده لا يهاب الموت، مُقدمٌ على أعدائه غير مدبر، لا يثنيه شيء عنهم إلا واقتلعه من طريقه، فذاق الأعداء من شجاعته الويلات، وتكبدوا أشد المعانات.

قد يخرج السيل عن كونه مصدراً من مصادر المياه إلى كونه صورة ترمز للشيء الكثير،فهذا ابن عباد بعد الأسر يتذكر حاله، وشجاعته في الحرب،وما كان يفعل بالأعداء حتى تسيل الأرض من دمائهم، ثم يتذكر حاله وما آل إليه من بعد ما كان يحمل السيف أصبح يحمل قيوده. يقول فيها :

لَكَ الحَمدُ مِن بعدِ السُيوف كُبــولُ بِساقيَّ مِنها في السُجــون حُجــــــــولُ
وَكُنّا إِذا حانَت لِحَربٍ فَريضَــــــةٌ وَنادَت بِأَوقاتِ الصَــلاة طُبــــــــولُ
شَهِدنا فَكَبَّرنا فَظَلَّت سُيوفُنــــــا تُصَلّي بِهاماتِ العِــدى فَتُطيــــــــلُ
سُجودٌ عَلى إِثرِ الرُكـــــوعِ مُتابَعٌ هُناكَ بِأَرواحِ الكُماةِ تَسيــــــــلُ [(٢)].

فهو يحمد الله تعالى على ما حل به من مصاب، وما نزل به من بلاء واختبار، فبعد الملك والحكم أصبح مقيد مسجون، يجر الأغلال التي تأسر يده، وهو الذي كان في ساحة الوغى، لا يرى سيفه إلا مجرداً يفتك، ويحطم في دروع الأعداء، فتسيل دماؤهم وأرواحهم في الأرجاء، فكأن سيفه يطيل الصلاة على أعناقهم، فمنهم من يجثم على ركبتيه راكعاً من جروح أصابته، فلا يمكث طويلاً حتى يخر ساجداً على وجهه مقتولاً.

سيوفهم إذا سُلت سالت الدماء معها، وتناثرت أشلاء القتلى في كل مكان، وكثر الخراب والدمار. يقول ابن حمديس :

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٤٦٥.

(٢) ديوان ابن عباد ص ١١١.

مَاءٌ ونارٌ مَنايا الأُسْدِ بَينهُما   مَا سُلَّ للضَربِ إلاَّ سَالَ واضْطرمَا
فِي كُلّ جَيشٍ تُثيرُ النَّقعَ ضُمّرُهُ   يَا جُنحَ لَيلٍ بَهيمٍ ظَلّلَ البُهَمَا [1].

فالدم يسيل من تلك السيوف البتارة، التي تشتعل على رؤوس الأعداء، وتقطع في أعناقهم، وليست أي عنق، وإنما تحرص على ملاحقة الشجاع منهم، لتقطف رأسه، فكيف بالجبان منهم، فهم أبطال الحروب، من غُمُد سيوفهم تنبع الدماء، وعلى حدها يسيل النجيع، وفي موقف آخر يمدح ابن عباد، ويذكر كم سالت على أرض المعارك من دماء الجرحى، ونجيع القتلى حتى ارتوت الأرض من دمائهم، وسالت.

يَسْطو بغضَبٍ إذَا ما هَزّ مَضْرِبَهُ   يومَ الضّرابِ لِعيني سَاهِدٍ رَقَدَا
لا يشرب الروحَ من جثمان ذي زردٍ   حتى يرى الحدّ منه يأكلُ الزّردَا
أسلتَ سيلَ نجيع مِن عداكَ بهم   في الأرض مِنهم فغَادرت الثرَّى عَمِدًا [2].

إذا ضرب يضرب بقوة وبطش، فهو لا يقتل عدوه حتى يرى حد سيفه يحطم الدروع، وينغرس في الأجساد، ويقطع اللحم، ليتلطخ سيفه بدم أشلائهم، وتسيل الأرض دماً من جروح قتلاهم.

يستغل كثير من الشعراء ما وهبهم الله- تبارك تعالى- من قدرة على القول في التّقرب من الناس، وكذلك في تنفيرهم من أعدائه، فيصورهم بأسلوب يجفل الناس عنهم، فهم يحاولون أن يبعثوا برسائلهم ومطالبهم من خلال قصائدهم، فهذا ابن زيدون يمدح ابن عباد، ويعرض بأعدائه، ويطلب منه قطع كل أسباب الشر. يقول فيها :

فَاحسِمْ دَواعيَ كُلّ شَرّ دُونَهُ   فالدّاءُ يسْرِي إنْ عدا لا يَحسَمُ
كمْ سَقطِ زندٍ قدْ نما حتى غَدا   برُكانَ نارٍ كلَّ شيءٍ تَحطِمُ
وكَذلكَ السّيلُ الجِحافُ فإنّما   أُولاهُ طَلٌّ ثُمّ وَبْلٌ يَثْجُمُ
وَالمالُ يُخرِجُ أهْلَهُ عَنْ حَدّهمْ   وافهَمْ فإنّكَ بالبَواطِنِ أفهَمُ [3].

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٤٧٢.

(٢) المرجع السابق ص ١٧١.

(٣) ديوان ابن زيدون ص ٢٨٣.

فالشاعر يعرض بأعدائه عند ابن عباد، ويرى إن لم يكن لهم شوكة الآن، فسوف تقوى مع مر الأيام، فالنار من مستصغر الشرر، والسيل العرمرم أوله مطر ، ثم وابل شديد، تسيل الأرض على إثره، فيجرف ما جاء في طريقه.

من ألم الفراق تنهمر الدموع، وعلى قدر المحبة تسيل الدموع، فنجد ابن حمديس تنزل دموعه وجداً على محبوبته كالسيل، إذ طلع عليهم نور الصبح ففرق أنسهم، وشتت بعد الوصال شملهم. يقول فيها:

وكَأَنَّها شَمسٌ على غُصْنٍ مترنّحِ التَّقويمِ والميلِ
قَالتْ، وقدْ عانقْتها سَحَرا لِمَ زُرتنا في آخر الليلِ؟
فأجَبتُها، وغمرتُها قبُلاً هَذا أوانُ إغارةِ الخَيلِ
حَتى إذَا بَزَغتْ شَبيهتُها كالتَّاج فَوقَ مَفارق القيْلِ
نَزعَتْ كَنزع الرُّوحِ مِن جَسدِي عَني قِلادة سَاعدٍ غَيْل
فَنهضتُ أشرّقُ بالدُّموع كَما شَرِقَ الفَضاءُ بكثرة السَّيلِ[١].

والمزج بين الطبيعة والمرأة أمر شائع لدى شعراء الأندلس، فكأنها شمس في الجمال، والجسم مترنح كغصن البان، فقد زارها الشاعر في أخر الليل طالباً لوصالها، وراجياً الأنس معها، فما لبث حتى بزغ نور الفجر الذي ألزمه مفارقتها، فخرج عنها كما تخرج الروح من جسده، وفارقها وهو لا يعلم متى يحين وصالهما من جديد، فتساقط الدمع على خديه كالسيل متألماً لفراقها، وراجياً لوصالها، فقد تعلق الشعراء بمن أحبوا، وكتبوا قصائد بمن عشقوا، ورسموا لهم صور الجمال، وأبدعوا في تزينها بأطيب الكلام، وعذب القوافي .

أما المدائح، فقد وظفت فيها الطبيعة من حولهم، فشبهوا الجود بالبحر ،والنهر ، والجدول، وهنا يشبهونه بما يسيل، لما فيها من الغزارة، وكثرة العطاء، فهي كالأمواج يدفع بعضها بعضاً. يقول

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٣٦٣.

ابن اللبانة :

بَأسٌ كَما جَمدَ الحَديـــــدُ وراءَهَ   كَرَمٌ يسيلُ كما يسيـــــــلُ الزئبقُ
لا تعجبُ الأمـلاكُ كثرةُ ما لهـــمْ   النبعُ أصْلبُ والأراكـــــــةُ أوْرقُ
ضِدَّان فيـه لمعتدٍ ولُمعتــــــفٍ   السيفُ يجمعُ والعـطاءُ يُفْـــرقُ [(١)].

فالبأس كالحديد صلابة وقوة، إذا عزم على أمر لا يثنيه عنه شيء، ويقابل هذه القوة والغلظة الكرم الحاتمي، الذي يسيل على أصحابه كما يسيل الزئبق، وما أكثر ما تغنى الشعراء بهذه الخصلتين: الكرم، والشجاعة ؛لأنهما من الخصال المتلازمة في نظرة الشاعر، فقد علل ذلك بأن السيف هو الذي يجمع الغنائم، والكرم يفرقه بين الناس.

وفي معركة الزلاقة أصيب المعتمد بن عباد بجروح في وجهه ويده، فقال أبو بكر بن عبادة المري:

وقَالُوا: كَفُّه جُرحـــتْ، فَقلنا   أَعاديه تُواقِعهـــــا الجِراحُ
ومَا لمرتدِ الجِراحةِ مَـــا رأيتمُ   فَتوهِنُها المَناصــــل والرّماحُ
ولكنْ فاضَ سَيلُ البَـــأسِ مِنها   فَفيها مِن مَجــــارِيه انْسِياحُ
وقدْ صَحَّت وسَحَّـــــت بالأماني   وفَاض الجُودُ مِنها والسّمَاحُ [(٢)].

فاضت سيول البأس على نصله من عزمه وهمته، فلم يضعف ولم يفر، وإن أثخنتها الجراح، فيده تفيض بالبأس، كما كانت تفيض بالجود والعطاء.

(١) ديوان ابن اللبانة، ص ١٠٠.
(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة ج٢ ص ١١١ .

الجدول :

لقد خلق الله- سبحانه وتعالى- الكون، وجعل أغلبه الماء، فالإنسان، والحيوان، والنبات لا معيشة ولا بقاء لهم من دون ماء، لذلك بحث الناس منذ قديم الزمان عن مصادر المياه الدائمة، والصالحة للشرب؛ ليبنوا عندها مدنهم، ويزرعوا أرضهم، ويرعوا أنعامهم، وقد حرصوا على أن يكونوا بجوار الأنهار التي ترفدها الجداول من كل مكان، فيبقى ماؤها يجري طوال العام، وهذا الجدول هو : "النهر الصغير [١]" يرفد ماؤه الأنهار الكبيرة.

وقد عرج شعراء الأندلس على هذه العنصر من الطبيعية، كغيرها من عناصر الطبيعية المختلفة، وذلك بحكم مشاهدتهم لها في حياتهم اليومية، فقد كثرت الجداول في الأندلس؛ لكثرة الأمطار والثلوج الذائبة، وقد حرص أهل النفوذ والمناصب في الأندلس على أن تبنى قصورهم ودورهم على الجداول، فيمر ماء الجداول من بينهم، فيروي حدائقهم، ويملأ المكان بصوت خريره، ويشرح الصدر بنسيمه العليل، وفي حديث ابن بسام في الخريدة عن مبارك ومظفر[٢] تطرق إلى وصف دارٍ لرجل من أصحابهما، يقول فيها : "بلغني أنه دُخل دار رجلٍ من أصحابهما، يعرف بمؤمل القشالي، ووقع البصر بها من سروها، واكتمال النعمة فيها على ما لم يشاهد مثله قط في قصر الإمارة بالحضرة العظمى قرطبة، وأخبر المحدث أنه رأى في فرش مجلسه مطارح من صلب الفنك الرفيع، مطرزة كما تدور بسقلاطوني بغدادي، وأنه كان يقابل ذلك المجلس شكل ناعورة مصوغة من خالص اللجين من أغرب صنعة، يحركها ماء جدول يخترق الدار أبدع حركة، إلى أشياء تطابق هذا السرو من جودة الآلة، والآنية، والمائدة، وجمال الخدم، ورقة الأسمعة، وفخامة الهيئة ما لا شيء فوقها[٣]".

---

(١) معجم الصحاح، الجوهري، مادة جدل.

(٢) مبارك ومظفر ،ملكهم في مدة ملوك الطوائف ،خادمان من الموالي العامرية ،وكان من العجائب إشتراكهم في الملك ،ينظر ترجمتهم عند لسان الدين الخطيب في (الأحاطة ج٣ ص ٢٩٢)،وابن سعيد الغرناطي في (المغرب في حلى المغرب ج٢ ص٢٤٤)

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ج ٣ ص ١٧.

فقد حرص أهل الأندلس على أن تخترق الجداول دورهم، وتجمل مجالسهم، وتمر من تحت أقدامهم، وقد أبدع الشعراء في وصف الجداول، فقد ذكروها في أشعارهم، وجعلوها إما وصفاً حقيقياً لذلك الجدول، أو مجازياً، ومروا على لفظه فقالوا به مفرداً، أو مثنى، أو مجموعاً، فمن البساتين ما يمر بها الجدول، ومنها ما يمر بها أكثر من ذلك.

لقد جعل الأندلسيون مجالس أنسهم وسرورهم بجوار تلك الجنان الخضر، التي تشقها الجداول الزرق، فتضفي إلى المكان رونقاً وجمالاً، وتبعث في النفس السرور والارتياح، فهذا ابن حمديس يصف الخمر بعد شربه، ويصف المجلس الذي كان يشرب فيه بجوار الجدول. يقول فيها :

إذَا قبضَ الإبرِيقُ مِنهُ سُلافةً ... تَقَسّمَها الشُّرَّابُ حَوليْهِ بِالقُعبِ
شَربنا وللإصْباحِ في اللَّيل غُرّةٌ ... تزيدُ اندِيَاحَاً بينَ شَرْقٍ إلى غَرْبِ
عَلى روْضَةٍ تَحيا بحيّةِ جَدْوَلٍ ... يفيءُ عَليهِ ظلّ أجْنحَة القَضبِ [(١)].

شربوا حتى كاد يخرج نور الشمس، وبياض الصبح يلوح في الأفق، في روضة جرى عليها جدول الماء، لتحيى به البساتين، وتنور به الأزهار، ويطيب ظل الدوح عندها، بين أشجار قد قلمت وزينة للحضور، وقد اهتم الشعراء الأندلسيون وغيرهم بالاستمتاع بالطبيعة، والمناظر الطبيعية، كما نجد ذلك في قول ابن حمديس :

نَحنُ في جَنَّةٍ نُباكِرُ مِنها ... سَاحِلِيْ جَدْوَلٍ كَسِيفٍ مُجَرَّدْ
صَقَلَتْ مَتْنَهُ مَداوسُ شَمسٍ ... مِن خِلال الغُصُون صَقلاً مُجدَّدِ
ومُدامٍ تَطيرُ في الصَّحن سُكراً ... فتُحَلّ العقُودُ منها وتَعقدِ
جِسمُها بالبَقاءِ في الدنّ يَبلى ... وقُواهَا مَع اللّيَالي تَجَدَّدِ
وإذا الماءُ غَاصَ في النَّار مِنها ... أخْرجَ الدُّرَّ من حبَابِ مِنضَدِ
يَا لهَا مِن عَصيرِ أوّلِ كَرمٍ ... سَكرَ الدّنُّ مِنه قَدماً وعَربدِ

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ١٩.

جَنَةٌ مَجّتِ الحَيا إذَا سَقاهَا   مُصْلحٌ مِن غَمَامِه غَيرُ مُفسدِ
قدْ لبِسْنا غَلائلَ الظِّلّ فِيها   مُعْلَماتٍ مِن الشُّعاعِ بعَسجدِ
ورَأينا نَارِنجُها فِي غصُونٍ   هَزّتِ الرّيحُ خُضْرَها فَهي مُيّدِ [(١)].

فاختار الشعراء أجمل الأماكن التي تحتوي على أجمل المناظر، لينشطوا خيالهم، ويستثيروا قرائحهم، وما أجمل منظر ذلك الجدول الذي يحف ضفتيه الأزهار، ويغطي أرضها البساط الأخضر، ويمتلأ المكان بظل الأشجار، لكنهم لا يدعون مجالسهم من دون سُكر، وشرب خمر، فيصف شاعرنا حالهم، وكؤوس الخمر تدور عليهم بين ضفتي الجدول، وعلى تلك الرياض.

ولا يزال الناس في بحث مستمر عن أماكن جديدة، ورياض بكر، لم تطأها قدم، وبساتين لم تعرف من قبل، فهذا ابن خفاجة ينزل في مكان قد وضع من حمى السلطان. يقول فيه :

ومُرتبعٍ حَططتُ الرَّحــــلَ مِنهُ   بِحـيثُ الظِّلُّ والمــــاءُ القَــــرَاحُ
تخـــــــرَّمَ حُسنَ مَنظَـــرِهِ مَليكٌ   تخـــرَّمَ مُلكَهُ القَـــــدَرُ المُتـــــاحُ
فَجَـــــريةُ مـــاءِ جــــدولهِ بكاءٌ   عليهِ وشَدوُ طائـــــرهِ نِيـــــاحُ [(٢)].

إنَّ حب التملك، ومراعاة المصالح العامة، جعل الملوك يحرصون على حد الحدود، وترسيم الحمى، وقد يدخل من ضمن الحمى المناظر الجميلة، والرياض الفسيحة، فيقف الشاعر على هذا الروض، الذي كانوا يحلون به في فصل الربيع مع صحبه، بين ظل الأشجار المديد، ومجرى الماء العذب، فحُرمت عليهم هذه الرياض، ومنعوا من تلك المناظر، فالشاعر لا يرى من جري الجدول إلا بكاء على من كانوا يحيون الجدول بالسهر، ولا يسمعون من شدو الطائر إلا نياحاً على مفارقه الزوار. وفي موقف آخر يصف الشاعر طيفاً زاره، ويتأمل معه إبداعات الطبيعة :

ثُمّ انثنى والسُّكرُ يَسحَبُ فَرعهُ   ويَجُرّ، مِن طَرَبٍ، فُضُولَ رِدَاءِ

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ١٢٥.

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ١٣٧.

تَندَّى بِفيهِ أقحوَانةُ أجْرَعٍ قدْ غَازلتها الشَّمسُ غِبَّ سماءِ
وتَميسُ فِي أثوَابهِ رَيحانةٌ كَرَعَتْ عَلى ظمإٍ بِجدولِ مَاءِ[1].

ثم عاد ذلك الطيف، كما جاء يسحب سواده لاقتراب الصبح، وهو طرب هائم على وجهه، وقد فاح من نداه وشذاه ما عطر الأجواء، كريح الندى على الرياض بعد هطول المطر، وقد تأمل الشاعر وهو في تلك الرياض الندية ريحانة تتبختر بحلتها، وتتزين بنوارها، وحق لها التبختر والتزيين، وهي قد تربعت على عرش الجمال على ضفة الجدول، تشرب من مائه في كل حين. ولأحمد بن برد الأصغر (توفي بعد ٤٤٠) مقطوعة يصف فيها رياض الرصافة، وبساتينها، وما حوته من طيور، وأشجار، وجدول ماء. يقول فيها:

سَقى جَوفَ الرُصافةِ مُستهِلٌّ تُؤلّفُ شَملَهُ أيدِي الرّياحِ
مَحَلٌّ ما مَشَيتُ إليْهِ إلَّا مَشى فيَّ ابتهَاجِي وارتيَاحِي
كَأنَّ ترنُّمَ الأطْيَارِ فِيه أغَانٍ فَوقَ أوتَارٍ فِصَاحِ
كأنَّ تَثني الأَشْجارِ فِيهِ نَصلُ عذَارِى قدْ شَرِبنَ سُلافَ رَاحِ
كأنَّ الجَدولَ المنْسَابَ نَصلٌ صَقيلُ المَتنِ هُزَّ إلى كِفَاحِ
كأنَّ رِياضَه أبرادُ وَشي تَعَطفُ فوقَ أعْطافٍ مِلاَحِ [2].

في الطبيعة راحتهم وابتهاجهم، لذلك يدعو الله- عز وجل - بأن يسقيها الغيث؛ لتدوم خضرتها وعذوبتها، وقد أصاب الشاعر الطرب لسماعه صوت الطيور وهي تغني على الأشجار، لتتمايل الأغصان راقصة من طربها، كأنها النشوان من فرط سكر، وتتلذذ عين الشاعر بمنظر الجدول وهو يجري على البردة الخضراء، التي طرزتها وأبدعت في تزيينها يد الطبيعة بأنواع الزهور والأشجار. وهذا أبو بحر يوسف بن عبد الصمد[3] يصف حديقة قد غردت فيها الطيور، وغنت بكل لحن،

(١) ديوان ابن خفاجة ص ١٥٤.
(٢) الذخيرة، ج ١ ص ٣٩٩ .
(٣) يوسف بن أبي القاسم خلف بن أحمد بن عبد الصمد ،كان زمن ملوك الطوائف ،ورثا المعتمد بن عباد ،ينظر ترجمته عند ابن سعيد في (المغرب ج٢ ص١٦٩) ،وابن بسام في (الذخيرةج٣ ص٦١١).

وسال على بطحائها جدول ماء، كأنه الفضة في صفائه ولمعانه. يقول فيها :

وحَديقَةٌ مُخضرَّةٌ أثوابُها ... في قُضْبها للطَيرَ كُلِّ مُغردِ
نَادمتُ فِيها فِتيةً صَفحاتُهمْ ... مِثل البُدورِ تُنير بينَ الأسْعُدِ
والجَدولُ الفِضّيُّ يَضحك مَاؤهُ ... فكأنّه في العَينِ صَفحُ مهنّدِ
وإذَا تَجعّد بالنَّسيمِ حَسِبتَه ... لِما تراهُ مُشبهاً لِلمبرَدِ
وتَناثرَتْ نقَطٌ عَلى حَافاتهِ ... كَالعقْدِ بَينَ مَجمَّعٍ ومُبَدَّدِ
وتَدحْرجتْ للنَاظرينَ كَأنّها ... دُرٌّ نثيرٌ في بِساطِ زَبرْجدِ[(١)].

هذه المقطوعة تصف جمال حدائق الأندلس، وتبين ما كان عليه أهل الأندلس من حبهم للحدائق، ومدى اهتمامهم بتزيينها، حيث كانوا يحرصون على قضاء أجمل الأوقات مع صحبتهم بها، فقد غرس في الحدائق أصناف الأشجار ، وأنواع الأزهار، مما يشد انتباه الشاعر لأنواعها الكثيرة، بألوانها العديدة، وثمارها المتنوعة، ويتعجب من حال بعضها، ومناظرها الخلابة، التي تسر العين بمرآها، وتلهب القريحة بنضارتها، وهذا ابن خفاجة يصف أراكة على ضفة جدول. يقول فيها :

وَأَراكَةٍ ضَرَبَت سَماءً فَوقَنا ... تَندى وَأَفلاكُ الكُؤوسِ تُدارُ
حَفَّت بِدَوحَتِها مَجَرَّةُ جَدوَلٍ ... نَثَرَت عَلَيهِ نُجومَها الأَزهارُ
فكَأَنَّها وَكَأَنَّ جَدوَلَ مائِها ... حَسناءُ شُدَّ بِخَصرِها زُنّارُ[(٢)].

فكأن الأراكة قد ضربت خيمة فوق رؤوسهم بظلها الواسع، الذي غطى جانب الجدول، وقد ملأت الأزهار المتساقطة مجرى الجدول، فكأنك ترى نجوم السماء على صفحة الماء، حتى أضحى الجدول في إحاطته للحديقة شبهاً بالحزام الذي يشد على خصر الحسان؛ فيزيدها حسناً إلى حسنها.

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٥٣٣.

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٣٥١.

وإن تسمية ابن خفاجة لبعض الأشجار، مثل: "السرح، والأيك، والأراك، فإن ذلك امتثالاً للتقاليد الكلاسيكية، فأنواع الأشجار هذه. ..تنبت في جزيرة العرب لا في الأندلس، ولذلك فهو يسمي الأشجار هنا من باب التقليد(١)"، والتقليد هنا " ليس بدعاً أن يخضع الشعر الأندلسي في بعض مظاهره للمؤثرات المشرقية خضوعاً تاماً، فقد ساعد على ذلك عوامل كثيرة، لعل من أهمها أن الأساس الأول للثقافة والأدب في المشرق والمغرب هو القرآن الكريم، وعلوم الدين، واللغة، والأدب الجاهلي.

ثم إن العنصر البشري الذي كون الأدب في المشرق، هو نفسه- تقريباً- الذي كونه في الأندلس... لذلك من الخطأ أن نتحدث عن تقليد المغرب للمشرق، وأن نرى في تأثير أحدهما على الآخر مجرد تقليد ومحاكاة، ذلك لأننا ندرس أدباً هو جزء من الأدب العربي في المشرق؛ بل هو امتداد طبيعي له، فإذا قلنا: إنَّ الأدب العربي نهر جار ، فالأندلس رافد من روافده؛ لا نهر مستقل مواز له. .. ولئن دفع الأدب الجاهلي الأدب المشرقي، فالأدب المشرقي دفع الأدب الأندلسي(٢). "

ومن الذين سايروا التقاليد أبو حفص عمر بن شهيد(٣)، وذلك في وقوفه على الأطلال، فهو يدعو خليليه- على عادة الشعراء القدامى- في الوقوف على الأطلال، ليحيي الرياض التي أحاطتها الجداول. يقول فيها :

سَقَى كلُّ غَيثٍ صَادقِ البَرقِ وَابلِ ... منَابت نُوَّارِ الرُّبى والخَمائلِ
فروَّى غُصوناً كالقُدود تطلَّعّت ... مِن أوْراقِها في مِثلِ خُضْرِ الغَلائلِ
خَليليَّ عُوجَا بي عَلى الرَّبعِ دَارسَاً ... نُحَيِّ رياضاً أحدَقَت بِجدَاوِلِ
مَلاعِبَ كاسَاتٍ ونُزهةَ أعيُنٍ ... ومَسْلى لِمُشتاقٍ وذِكرى لِغَافلِ(٤).

---

(١) الروضيات في الشعر الأندلسي، طاهر سيف غالب، ج ٢ ص ٥٧.

(٢) اتجاهات الشعر الأندلسي، نافع محمود، ص ١٠١ .

(٣) عمر بن الشهيد التُجيبي ،أبوحفص ،شاعر مشهور بالأدب ،كثير الشعر ،متصرف في القول ،مقدم عند أمراء بلده ،وكان في عام ٤٤٠هـ بالمَرِيَّة ،ينظر ترجمته عند الحميدي في (جذوة المقتبس ص٤٣٨) ،والضبي في (بغية الملتمس ١١٦٩) ،وابن بسام في (الذخيرة ج١ ص٥١١) .

(٤) الذخيرة، ج ١ ص ٥٢٤ .

فالشاعر هنا يدعو خليليه ليعرجوا به على ديار أحبته البالية، ليقف متذكراً رياضهم وجدول مائهم التي كان يمر بها في صباه، ويتذكر أيام صباه الخوالي، وسروره فيها،وهو هنا يشابه تقاليد القدامى في وقوفه على الأطلال، وتذكره منازل الأحبة، إلا أنه هنا لم يثر في أبياته ما يبعث إلى الحزن والأسى، وإنما جعل من الطبيعة باعثاً للبهجة والانشراح، وبهذا يغذوا المكان خير ملعب للشرب واللهو.

ومن المناظر الجميلة التي أبدع ابن خفاجة في رسمه، وإخراجها لنا في أجمل حلة، قد زينت ببديع البيان، وأجمل المعاني والصور. يقول فيها :

وَقَد هَزَّ مِن عِطفَي نَديمٍ وَخوطَةٍ … أَنينُ حَمامٍ أَو غُلامٌ يُطَرِّبُ
وَجِزعٌ بِأَنداءِ الغَمامِ مُفَضَّضٌ … وَذَيلٌ عَلَيهِ لِلعَشِيِّ مُذَهَّبُ
وَقَد جالَ مِن كَأسِ السُلافَةِ أَشقَرٌ … يُسابِقُهُ مِن جَدوَلِ الماءِ أَشهَبُ
بِرَوضٍ كَأَنَّ الغُصنَ يَزهى فَيَنثَني … بِهِ وَكَأَنَّ الطَيرَ يُسقى فَيَطرَبُ
قَدِ اِرتَجَزَ الرَعدُ المُرِنُّ بِأُفقِهِ … فَأَملى وَجالَت راحَةُ البَرقِ تَكتُبُ[1].

ووصف الشعراء حالهم في تلك الرياض، وعلى ضفة الجدول يدار عليهم بكؤوس الخمر التي تلقى في الجدول؛ لتصل إلى صاحبها على الجهة الأخرى، فيمتزج لونها بلون الجدول الذي اختلط لونه بين سواد ظل الأشجار، وبياض نور الشمس، ولا يحلوا المجلس إلا بالطرب والغناء، فيتمايلون كما تتمايل الأغصان طرباً، ويصغون إلى تغريد الطير حولهم؛ فتزيدهم طرباً وفرحاً، فكأن الطبيعة بأسرها قد شاركتهم المجلس، فقام الرعد يرتجز قصيدته، وراح البرق يكتب.

ويتغزل ابن خفاجة في موقف آخر بروضة شقها جدولان، يقول فيها:

فكَأَنَّ ما بَينَ الغُصـــونِ تَنـــــازُعٌ … وكأنّمـــــا بَـــــينَ المِياهِ جِـــــدالُ

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٣٠١.

وَأَرَبَّ يَبْرُدُ مِـــن حَشـــاهُ مَكرَعٌ خَصِرٌ يَسُـــحُ وَتَلعَـــةٌ مِخضـــالُ
مابَينَ خطَّى جَدوَلَينِ كَأَنَّمـــــا بُسِطَت يَمـــينٌ مِنهُمـــا وَشِمـــالُ[1].

فكأن الجداول قد احتضنت الروض، ورعته بمائها وخيراتها، حتى نما شجرها، وأينع ثمرها، وأخضرّ عشبها. وهذا ابن زيدون يتذكر ما مضى من أيامه مع أبي القاسم بن رفق بين تلك الرياض والبساتين، وقد كانا يسيران بين الرياض والحدائق، فيمران في أثناء سيرهما على الكثير من الجداول. يقول :

أَينَ أَيّامُنا وَأَينَ لَيالٍ كَرِياضٍ لَبِسنَ أَفوافَ زَهرِ
وَزَمانٌ كَأَنَّما دَبَّ فيهِ وَسَنٌ أَو هَفا بِهِ فَرطُ سُكرِ
حِينَ نَغـــدو إِلى جَداوِلَ زُرقٍ يَتَغَلغَلنَ في حَدائِـــقَ خُضرِ
في هِضابٍ مَجلُوَّةِ الحُســـنِ حُمرٍ وَبَوادٍ مَصْقولَةِ النَبتِ عُفـــرِ[2].

إن كلام الشاعر هنا يوحي بإظهار الحسرة على سالف أيامه الجميلة مع أبي القاسم، حيث كانت تلك الأيام كالرياض المزهرة، المتبخترة بجمال أزهارها، وفجأة انقطع الوصل، وحل الجفاء بينهما، فكأنما قد أصاب علاقتهما النعاس، أو أصبحت هائمة على وجهها من فرط السكر، ويرجع، ويتذكر ، ويذكر صاحبه عن تلك الرياض التي كانوا يجوبونها، وتلك الجداول الزرق التي كانوا يتسامرون حولها، ويشربون من مائها، وجعل الشاعر تشبيهاته من عناصر الطبيعة المحيطة به والتي يشاهدها أمامه، فعلاقتهما كانت كالرياض المزهرة، ثم ما لبثت حتى أصابها النعاس، ودب فيها الكسل، وبدأت تتخبط كالمفرط بالسكر.

لقد شاركت الجداول حياتهم اليومية في الأندلس، فهي أمام ناظرهم في كل حين يمر من وسط دورهم، ويشق بساتينهم، ويروي حدائقهم، لذلك جاؤوا على ذكره في أشعارهم، وتعددت استخداماتهم له، فقد استخدموا لفظه حقيقة- كما مر بنا- واستخدموه مجازاً في مواطن عدية،

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ١١٩.
(٢) ديوان ابن زيدون ص ١٢٥.

واستخدامات كثيرة، ومنها قول ابن حمديس وهو يصف سيفاً :

وذِي رَونقٍ ترْتاعُ مِنهُ كَأنَّما عَروسُ المنَايا فِيه للعَينِ تُجتلَى
صَمُوتٍ عَن النُّطقِ المُبين لِسانُهُ فإنْ قَرَعَ البَيضَ اليَمانيّ وَلْوَلا
جَرَى وَالتظَى سَلاًّ فَقلتُ: تَعجباً مَتى فَجّرَتْ كفٌّ مِن النَّارِ جَدْولَا
لِهامِ العِدَى مِنه سُجودٌ عَلى الثَّرى إذَا مَا اغْتدَى مِنه رُكوعٌ عَلى الطَّلا [(١)].

فالشاعر هنا يتخيل عند رؤيته للسيف، وهو بيد الشجاع في يوم الوغى، كأنه جدول من النار يوجهه في نحور الأعداء. ويقول في موقف آخر مشبهاً لمعان السيف بلمعان الجدول :

وأَبيضَ تَحسَبُ فِيهِ الفِرندَ يُثيرُ هَباءً عَلى جَدولِ
إذَا دُعيَ الموتُ بالهزّ مِنه أجَابَ بصَلصَلَةَ الجَلْجَلِ
ومَا سُلّ للضَرْبِ إلاَّ أسَالَ عَلى خَدّه أدْمعَ المُقتِلِ [(٢)].

فمتى سلت سيوفهم التي كالجداول رقة ولمعاناً؛ أسالت معها دماء الأعداء، وخير من يمثل ذلك ابن اللبانة، وذلك عندما وصف حال الجنود وهم متحصنون بالدروع، مدججون بالسلاح، قابضون على سيوف مرهفات، كالجداول في استقامتها، وفي لمعان صفحتها. يقول فيها:

زُرْتُ المُصلَّى يَومــهُ فِي جَحفَـــلٍ أَعلَامُـــهُ للعَالَمِيـــن مَوَائـــــــلُ
غُدرُ الحَديـــــدِ عَليهمُ وكَأنَّمـــا بِأكُفهـــمْ للمُرهَفاتِ جَـــــــداولُ
وأتاكَ جَيشُهمُ عَلى الْجَيشِ الـــذَّي يَختالُ بالمَحمُولِ مِنهُ الحَامِـــــــلُ
ومِن الجَنائبِ فِي الطَّرِيقِ جَنَـــائِبُ حَسنتْ فَقلنــــا إنَّهـــنّ عَقائِلُ[(٣)].

وقد كثر استعمال الشعراء للجداول في الدلالة على جوده سيوفهم، فهي في رقة، وقوة،

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٣٨٣.
(٢) المرجع السابق ص ٣٨٣ .
(٣) ديوان ابن اللبانة ص ١١٥.

واستقامة، وجمال، ولم يقف وصفهم له عند هذا الحد، بل تعدوا إلى غير ذلك، فقد جعلوا سيوفهم إذا سلت؛ سالت معها الدماء كالجداول، وشرق الفضاء بها من كثرة القتلى والجرحى، الذين تسيل دماؤهم على الأرض، فتكون بكثرتها جدولاً من الدماء، تسبح فيها أطراف الأعداء المقطعة، والأشلاء الممزقة. يقول ابن حمديس :

والْلَيثُ إبراهيمُ قَائدُك الذَّي تُدْمَى بِصَولَتِهِ لهُ أظْفَارُ
يَرمي شِدادَ المعْضِلاتِ بنَفسِهِ بَطَلُ الكِفاحِ وذِمْرُها المغْوارُ
وإذَا تَفجّرَ جَدولٌ مِن غمدهِ شَرِقَتْ بِماءِ غَمامِهِ الفُجّارُ
وعَبيدُكَ الغِلمَانُ إنْ نَادَيتهمْ نَهضُوا، مُواثبةَ الأسُودِ، وثارُوا
وَمَشَوْا مَع التّأييدِ قَامَاتٍ إلى هَيجَاءَ مَشْيُ حُمَاتِهَا أشْبارُ [1].

هنا يمدح الشاعر صاحبه الحسن بن علي بن يحيى[2]، ويذكر مناقب قائده إبراهيم، فهو كالأسد في المعركة، تسيل الدماء على حد سيفه من تقطيعه لأجساد أعدائه، ويجري على الثرى جداول الدماء من بطشه، وهنا ابن الحداد يمدح جنود المعتصم بن صمادح، إذ يقول فيهم :

مِنْ كُلِّ أَحْوَسَ نَثْرُ النَثْرِ دَيْدَنُهُ إذا يَرَى لُدْنَهُ مُسْتَلْئِماً يَرَأُ
يجيءُ كالهَصرِ الفَضْفاضِ مقتتلاً أَصَمُّ كالأرقم النَضْناضِ إذْ يَجَأُ
وللمَنُونِ بِيُمْنَاهُ عُيُونٌ دِمَا في جدول يتحامى ورده الظمأُ[3] .

لا أحد في جنود المعتصم يعرف الخوف، فكلهم الشجاع المقدام الجريء الذي لا يهاب

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٢٦٢.

(٢) الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن المنصور ابن بلكين بن زيري بن مناد ،الأمير أبو يحيى ابن الأمير أبي الحسن ابن الأمير أبي طاهر المعز ابن الأمير ،أصحاب أفريقية وما والاها،توفي والده علي بن يحيى سنة خمس عشرة وخمسمائة بعدما قوض الأمر إلى ولده أبي يحيى هذا ومولده بمدينة سوسة في شهر رجب سنة اثنتين وخمسمائة وكانت ولايته وعمره اثنتا عشرة سنة وتسعة أشهر ،ينظر ترجمته عند الصفدي (الوافي بالوفيات ج١٢ص٧٤) .

(٣) ديوان ابن الحداد ص ١٣٥.

الحرب، ولا يفزع من الموت، فهم كالأسود الضارية التي تبحث عن طريدتها لتبث الرعب فيها أولاً، ثم تفترسها، وهؤلاء الجنود إذا ضربوا ضربوا جبارين بأسهم شديد، فهم لا يضربون إلا في مقتل، لتتناثر قطع الدروع، وتختلط مع أشلاء الجرحى، فلا درع يصمد أمام بطشهم، ولا سيف يرفع أمام عزمه، وكل هذه البسالة والقوة قد أخذوها عن قائدهم، فإذا أمعنت النظر فيه، وما في يده، رأيت سيفاً بتاراً، إذا ضرب الأعداء به خروا غارقين بدمائهم؛ لتسيل الدماء من أجساد قتلاهم كالجداول، يتحامى العطشى عن ورودها، لأنها جداول دمٍ، وليست بجداول ماء.

لم يقتصر شغف الشعراء بالجداول وحبهم لها لما فيها من مناظر جميلة أو طيب نسيمها وحسب، وإنما تعدى إلى صوت خريرها عبر الصخور، وعلى أطراف الحصى، ونلمس ذلك في قول ابن حمديس عندما شبه حسن صوت هدير الحمامة بعذوبة وجمال صوت خرير الجدول. يقول فيها :

وناطِقةٍ بالرَّاءِ سَجْعَاً مُرَدَّداً كحُسْنِ خَريرٍ مِن تَكّسَرِ جَدْوَلِ
مُغردةٍ في القضبِ تَحسبُ جِيدها مُقلَّدَ طوْقٍ بالجِمانِ المُفَصّل [(١)].

فكما نرى حب هؤلاء الشعراء لطبيعتهم الملهمة، وتعايشهم مع أدق تفاصيلها، وتأملهم الأشياء من حولهم، وتفاعلهم معها، فقد حاولوا ربط الطبيعة مع بعضها، إذ أصغى الشاعر إلى صوت الحمامة لإعجابه به، وسلط نظره إلى الطبيعة من حوله، ليجمع بين محبوبيه، فوجد خرير ماء الجدول هو ما يناسب غذوبة صوت الحمامة، فربط بينهما، فآذان الشعراء متذوقة للجمال، وأبصارهم قناصة للإبداع، وألسنتهم متوقدة للكلام، وقادرة على التعبير والإبداع، وقد تأمل الشاعر قلماً ينغمس في المحبرة، ثم يكتب، فقال به شعراً :

وجَدولٍ جَامدٍ فِي الكَفِّ تَحملُهُ يَغوصُ فِيهِ عَلى دُرّ النُّهى النَّظَرُ
يَكسُو السُّطورَ ضِياءً عِند ظُلمتِها كأنَّ يَنبوعَ نُورٍ مِنهُ يَنفجرُ

(١) ديوان ابن حمديس ٣٦١.

يَشفّ للعَينِ عَن خَطِّ الكِتابِ كَما شَفّ الهَواءُ، ولكنَّ جِسمَهُ حَجَرُ
يُبدي الحُروفَ بِجرحِ نَالَها عرقٌ فِيه، وَقرّ عَليها جَامداً نَهرُ [(١)].

فكأن القلم جدول تجري من محبرته الكلمات، يغوص في ظلمة المداد؛ ليستخرج درر الكلام، فيسطره نوراً على الصفحات، فكأنما تتفجر من مداده جداول العلم، وينابيع المعرفة، ليخطها بكل لين وسلاسة على ورقات التاريخ، لتبقى ذكرى خالدة، يتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل.

لقد تعددت استخدام الشعراء للجداول، فجاءت على معانٍ كثيرة، فهذا ابن زيدون يمدح ابن جهور، فيجعل أخلاقه وسجاياه كالرياض المعشبة، كثيرة الثمر، وكرمه كالجداول في غزارة مائها وعذوبتها، وتدافع أمواجها. يقول فيها :

أَغُرُّ إذا شِمنا سَحائِبُ جودِهِ تَهَلَّلَ وَجهٌ وَاستَهَلَّت أَنامِلُ
يُبَشِّرُنا بِالنائِلِ الغَمرِ وَجهُهُ وَقَبلَ الحَيا ما تَستَطيرُ المَخايِلُ
لَدَيهِ رِياضٌ لِلسَجايا أَنيقَةٌ تَغَلغَلُ فيها لِلعَطايا جَداوِلُ
أَتِيٌّ فَما تِلكَ السَماحَةُ نُهزَةٌ وَفِيٌّ فَما تِلكَ الحِبالُ حَبائِلُ [(٢)].

فهنا جعل الشاعر ممدوحة في طلته كالسحاب الممطر في الأفق، إذا عاينوه استبشروا بالخيروالعطاء الكثير، فأعطياته كالجداول غزارة، وطباعه كالرياض الندية.

لقد اعتدنا أن نرى الطبيعة بصورتها الجميلة الضاحكة، التي تدعو إلى الحريةوالانطلاق في فضائها الواسع من دون قيد، ولكن نجد بعض الشعراء من يستغل الطبيعة الجميلة ليجعلها "متكأً ومفترشاً[(٣)]" لموضوعه الحزين، فنجد ابن خفاجة يرثي الوزير عبد الله بن ربيعة، ويجعل الطبيعة تشاركه في مرثيته. يقول فيها:

في كُلِّ نادٍ مِنكَ روضُ ثناء وَبِكُلِّ خَدٍ فِيكَ جَدولُ ماءِ

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٢٠٣.
(٢) ديوان ابن زيدون ص ٢٣٠.
(٣) عصر ملوك الطوائف، إحسان عباس، ص ١٦٩.

ولكلِّ شَخصٍ هِزةَ الغُصنِ النَّديِ   نَحْتَ البُكاءِ وَرنةَ المُكاءِ [1].

لقد أقدم ابن خفاجة على استغلال الطبيعة الضاحكة، المرحة من حوله، فاستطاع أن يجعلها بقدرته الشعرية حزينة تبكي على صاحبه، فتذرف الدمع على فقيدهم كالجداول، وما دفعهم إلى ذلك إلا ذكره الطيب، وعمله الصالح الذي يتذكره الناس به، ويرى الشكعة أن محاولة ابن خفاجة في الجمع بين الطبيعة والرثاء جمعاً بين نقيضين، والجمع بين النقيضين مؤد إلى البوار غير مأمون العاقبة، فالماء يطفئ النار، والخل يفسد العسل، والغناء يزيل الحزن، وهكذا، ومن ثم فإن محاولته هذه محفوفة بالمكاره، محوطة بالأخطار[2]"، ولكن بقدرة شعراء الأندلس في التفاعل مع الطبيعة، أستطاعوا أن يجعلوا الطبيعة تشاركهم أفراحهم وأحزانهم، كما نشاهد ذلك عند ابن خفاجة .

والرثاء لم يقتصر على الأشخاص في الأندلس؛ بل تعدى إلى رثاء المدن، والمماليك الزائلة، "وهذا اللون من رثاء الدول قديم في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي [3]"، إلا أنه ذاع صيته في العصر الأندلسي؛ لكثرة المماليك والدول التي تعاقبت على الأندلس، "وكانت أول المدن الأندلسية الإسلامية سقوطاً هي طليطلة[4]"، وقد رثاها الكثير من الشعراء، وذكروا طليطلة بعمرانها، ومائها، وخضرتها، وجداول مائها :

كَفَى حَزَناً بأنَّ النَّاسَ قَالُوا   إلى أيْنَ التَّحوّلُ والمسِيرُ
أنترِكُ دُورَنا ونَفرّ عَنها   ولَيْسَ لنَا وراءَ البَحرِ دُورُ
ولَا ثَمَّ الضِّياعُ تروقُ حُسناً   نُباكِرهَا فَيُعجِبُنا البُكُورُ
وظلٌّ وارفٌ وخريرُ مَاء   فَلا قرٌّ هُناكَ ولَا حَرورُ

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ١٧٨.
(٢) الأدب الأندلسي، الشكعة، ص ٣٥٥.
(٣) تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، شوقي ضيف، ص ٣٣٨.
(٤) الأدب الأندلسي، الشكعة، ص ٥١٣.بتصرف

وَيُؤكَلُ مِن فَواكِهِها طَرِيٌّ وَيُشرَبُ مِن جَدَاوِلِها نَميرُ[1].

فالشاعر هنا يذكر طليطلة، وما فيها من النعيم، فهذا الظل المديد، والماء العذب النمير، ويتذكر ما فيها من خضرة، ورياض، وبساتين قد أينعت بثمارها الطرية، إن بقي فيها رضي بحياة الشقاء والرق، وإن غادرها حكم على نفسه بالتشرد في أرض الله ما بقي له من عمر، فهو بين أمرين، أحلاهما مر.

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٤٨٥ .

المائياتُ الطبيعيةُ العلويةُ

- البـــــرد.
- الثلـــــج.
- السحــاب.
- المطـــــــر.

ثانياً : المائيات الطبيعية العلوية :

لقد غلب على الشعراء الاهتمام بما يشغل تفكيرهم، ويأسر خيالهم، ويطوف بأحاسيسهم، حتى إنه ليتمكن من قلوبهم، فتنطق ألسنتهم بما تجود به قرائحهم مما تكنه صدورهم حباً، وعشقاً، ووصفاً، فنجد من شعراء الأندلس من اهتم بالطبيعة، وشغف بها حتى غلبت موضوعات الطبيعة ديوانه.

وإنَّ الشاعر مرآة لبيئته التي نشأ فيها أياً كانت اجتماعية أو بيئية، فنجد من شعراء الأندلس من يرسم لنا صورة صادقة أمينة عن بيئة الأندلس الطبيعية بكل إبداع وتفنن، وقد تفوقوا على غيرهم من الشعراء في هذا المجال، لشدة هوسهم بالطبيعة، وحبهم لها، ولما حباها المولى – جل وعلا – من مناظر خلابة، تسحر العيون، وتخطف الألباب، فقد كانت الأندلس من أجمل بقاع الأرض، وأوفرها جمالاً، " ومن المسلم به القول : إن شعراء الأندلس كانوا أمام طبيعة فاتنة في بيئة مزهرة غنية بأنواع السحر والفتنة؛ فاندفعوا بشاعريتهم، تذكيها المناظر الخلابة التي وقعت عليها عيونهم، فكان ذلك كله مجالاً خصباً لفنهم، فذكروا الأندلس ومحاسنها، ووصفوا الربيع، والرياض، والأزهار، والأنهار، والأشجار.. "[١] فنالت الطبيعة جل اهتمامهم، وغلبت على دواوينهم، فأفردوا لها القصائد وطعموا أغراضهم الأخرى بالطبيعة، حتى إنك لتعجب عند مطالعتك لبعض مراثيهم، فتجد فيها وصفاً للطبيعة بأزهارها، وأنهارها، وأشجارها في حين أنك تتوقع أن تسمع أنين الحنين، وبكاء الحزين، فكانت لهم رؤيا فاحصة لمفاتن الطبيعة، ساعدتهم على دقة التعبير عنها، حتى إنهم لقبوا بعض الشعراء كابن خفاجة بالجنان[٢]، "وبالبستاني؛ لعنايته بوصف الطبيعة [٣]" وعشقه لها، ولكن ليس إنشادهم للشعر في وصف الطبيعة مجرد عشق وغرام لوصف الطبيعة وحسب، ولكن " وجدوا في الطبيعة مأوى يلجأون إليه كلما أحسوا بكدر الحياة، وانشغال الفكر ، فيجدون

---

(١) الروضيات في الشعر الأندلسي ص ١٠.

(٢) الأدب الأندلسي، الشكعة، ص ٥٥٢.

(٣) جودت الركابي، في الأدب الاندلسي ص ١٣٢.

فيه الدفء ، والهدوء، والطمأنينة [١]"

وكما أشرنا في الصفحات السابقة بأن شعراء الأندلس قد فتنوا بطبيعتهم، فلم يدعوا مجالاً من مجالاتها إلا ذكروه، وأبدعوا في وصفه، فكل ما أطرب أبصارهم على بساط طبيعتهم، أو لاح في أفقها أشادوا به في أشعارهم، فقد تنبهوا إلى كل ما يجري على الأرض، وإلى كل ما يلوح في السماء من : برد، وثلج، وسحاب، ومطر ، فأبدعوا في وصفه، ونقله لنا بصورة جميلة.

(١) عدنان صالح مصطفى ، الشعر الأندلسي، دار الثقافة، الدوحة – قطر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ م، ص ٥٦ .

البـرد :

لا جرم أن بلاد الأندلس قد كساها الخالق- عز وجل- لباساً أخضراً له أهمية في نفوس أهلها، وقد تعددت أصنافه :من بساتين مثمرة، وحدائق مزهرة، وأشجار مورقة، وأغصان ملتفة على بعض، وحقول منتجة لأطيب الثمار، ومراعي خصبة لأنعامهم، كل هذا دليل على بيئة طبيعية خصبة، تملؤها المياه الجارية التي تستمر طوال العام، وهذه المياه الجارية من أنهار، وجداول، هي بأمس الحاجة إلى مصدر يغذيها من ثلج ذائب من على قمم الجبال، أو من مطر دائم طوال العام، يزيد ويقل حسب فصول السنة، فهذه الأمطار تزور أراضي الأندلس باستمرار، وتنثر خيراتها عليهم، وقد يشتد المطر عليهم، ويتحول إلى برد أبيض، وهذا البرد هو : " حب الغمام[1] " يزين بانتشاره ساحاتهم، كأنه اللؤلؤ يسقط من السماء، يقول ابن حمديس واصفاً يوماً مطير وقد جاء معه البرد :

نَثَرَ الجوُّ عَلى الأرْضِ بَرَدْ   أيُّ دُرٍّ لنحُورٍ لَو جُمّدْ
لُؤلؤٌ أصْدافُه السُّحبَ التِي   أنْجزَ البَارِقُ مِنها مَا وَعَدْ
مِنحَتهُ عَارياً مِن نَكدٍ   واكْتسَابِ الدُّرَّ بالغَوصِ نكِدْ
ولقَدْ كادَتْ تَعَاطَى لَقْطَهُ   رغْبةً فِيه كَرِيماتِ الخُرُدْ
وتَحلّي مِنهُ أجْيَادَاً إذَا   عَطِلتْ راقتكَ في حُليِّ الغِيدْ
ذَوّبَتْهُ مِن سَماءٍ أدْمُعٌ   فَوقَ أرضٍ تَتلقَاهُ بخدْ
فَجَرَتْ منهُ سيولٌ حولَنَا   كَثعابينَ عِجالٍ تطّرَدْ
وتَرى كلّ غَدِيرٍ مُتأقٍ   سَبَّحتْ فِيهِ قَوَارِيرِ الزُّبدْ[2].

فالشاعر هنا يقف مذهولاً أمام جمال الطبيعة، التي تحولت بلمح البصر من الخضرة إلى البياض، فقد تبعثرت على الأرض اللآلئ، وانتشر البياض في كل مكان، فكأن السماء تنثر اللؤلؤ من أصدافها السحاب، لتلقيه عارياً على ثغر الأرض، فتزين به المكان، وتملأ البهجة الأرجاء، حتى كاد

---

(١) معجم الصحاح مادة برد .ص ٨٣.

(٢) ديوان ابن حمديس ص ١١٧.

الناس أن يهموا بجمع البرد؛ رغبة في اللؤلؤ النقي الصافي، الذي لم يثقب، ليوضع على أعناق الغيد، لكن ما لبث أن ذاب البرد كالحلم، فجرت منه السيول، والجداول متمايلة كالثعابين.

فالمطر ينزل من السماء، ليروي عطش الأرض، وقد يصحبه في بعض الأحيان زخات من البرد، تتناثر على البسيطة الخضراء، لتحولها إلى لون النقاء والصفاء الأبيض، وقد يشتد المطر ، ونزول البرد على الأرض، فيتلف الثمار، ويخرب البساتين، ويحطم أغصان الأشجار من شدة قوة وصلابة البرد، وهذا الحميري يتحدث عن مدينة ركلة في الأندلس، وقد أصابها برد، يقول عنها : "ونزل بمدينة ركلة في أيام بني هود برد عظيم، حطم أغصان شجر الكمثرى؛ حتى تركها جذوعاً دون أغصان، وجد في زنة واحد منها في اليوم الثاني من نزوله ثلاثة أرطال بالبغدادي[1] . فسبحان من له القدرة الباهرة![2]"، على جعل حبيبات المطر رحمة ومنفعة للعالمين، أو جعلها عذاباً مهين.

وهذا ابن خفاجة يبدع في وصف سقوط حبات البرد على الأرض، ويستخدم خياله الخصب في ذلك، يقول فيها :

يا رُبّ قَطرٍ عاطلٍ حَلّى بهِ، نَحرَ الثّرَى، بَرَدٌ تَحدّرَ صَائبُ
حَصبَ الأباطحَ منهُ ماءٌ جامدٌ غَشّى، البلادَ بهِ، عَذابٌ ذائِبُ
فَالأرضُ تَضحَكُ عن قلائدِ أنجمٍ نُثِرَتْ بها، والجَوُّ جَهْمٌ قَاطِبُ
فكأنَّما زنتِ البَسيطةُ تحتهُ فأكبّ يَرجمُهَا الغَمامُ الحَاصِبُ[3].

فتأمل تلك اللوحة العجيبة التي يقدمها الشاعر لتساقط البرد على نحر الأرض، فقد قلدت الطبيعة نحر الأرض بقلائد اللؤلؤ من فصوص البرد البراق، فكأن السماء ترمى الأرض بالحصى الجامد، وهو البرد، والأرض تضحك ،ومبدية أسنانها البيض مما تساقط عليها من السحاب،

---

(١) الرطل البغدادي يقدر بـ ٣٨٢ غرام على رأي الجمهور .
(٢) صفة جزيرة الأندلس، ص ٧٨ .
(٣) ديوان ابن خفاجة ص ٧٦.

والسماء عابسة بجوها، وتسقط عليهم المطر والبرد، ويرسم لنا الشاعر صورة جميلة لحال السماء والأرض، يسير بها في خياله الواسع، فجعل الأرض كالزانية، والمطر والبرد كالحصباء في رجم الزانيات، فالشاعر في وصفه كما يقول الركابي "وكان في وصفه منغمساً في عالم الخيال، قلما نراه يخرج منه إلى عالم الحقيقة، فيصور الأشياء كما هي(١)" وهذا ما أراه إبداع من الشاعر، فلا يكون مرآة تعكس الواقع فحسب؛بل يفسح المجال من خلال شعره للخيال، لينتقل بخيال المتلقي وحواسه، ويتصور بقية المشاهد مع تصوير الشاعر لها.

ولم يقم الشعراء عند وصف البرد كمصدر من مصادر المياه، أو كمادة أساسية من المائيات، فقد تجاوزوا ذلك، وجعلوا البرد مادة الصورة الأساسية في بعض تشبيهاتهم، إذ أفادوا من البرد في جعله المشبه به، وقد وردت كلمة البرد في غيرما موضع، ولكنها لم تكن مصدراً من مصادر المياه، وإنما كانت مكوناً من مكونات الصورة عند الشعراء.

فقد يأتي البرد في معناه الحقيقي، وهو الماء الجامد كما مر بنا في النماذج السابقة، وقد يأتي في معاني مجازية عديدة، قد استخدمها الشعراء للدلالة على ما يرمون إليه من بياض ولمعان للأسنان، ومن ريق ندي طيب المطعم، ومنها ما جاء دلالة على اللون الأبيض، وقد يقصد بالبرد الريق الندي من المبسم الجميل، يقول ابن حمديس في وصف ريق حسناء:

هَلاَّ التفتِّ كما تلفَّتُ مغزلٌ ... لترَى مَكانَ الخِشْفِ وهي نَوَارُ
وبَرَدْتِ حرّ الشّوْقِ بالبرد الذي ... شهدٌ ومسكٌ دُونه وعقارُ
إني دُفِعْتُ إلى هَواكِ وغربةٍ ... هَتَفَتْ بها العَزَمَاتُ والأسفارُ (٢).

لقد أعجب الشاعر بمحبوبته، والتفت إلى جيدها وعنقها، يتغزل بهما، وأحب منها تمايل عنقها عند التفاتها، ليشرع بعد ذلك في وصف ريقهاوجمال مطعمه، فهو أطعم من العسل،

(١) جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ص ١٣٢.
(٢) ديوان ابن حمديس ص ٢٥٩.

وأطيب ريحاً من المسك. ويقول في موقف آخر مشبهاً حاله مع معشوقته كأنه يتحصل على الشهد من بين ثناياها، ومن ريقها :

يَا جَنّةَ الوَصْلِ الـــــتَّي حَفّتْ بِها نـــــارُ الصُّـــدُودِ
مَن لي بريَّاكِ الــــتي فُتِقَتْ بريحَـــانِ الخُلُـــودِ
ومُجاجَـــــةٍ شَهـــدِيّةٍ تُجنى مِـــن البَرَدِ البَرُودِ
وارحَمتَـــــا، وأنَـــا العُبَيْدُ مِن الهوَى لِشَـــجٍ عَمِيـــدِ [1].

لقد سار شعراء الأندلس حذو شعراء المشرق في استخدامهم للفظ البرد للدلالة على أسنان الحسان، وبيان جمالها، وبياضها، وعذوبتها، وقد سارت بعض الأبيات بها الركبان في الغزل، والدلالة على جمال الأسنان، كبيت قيل إنه ليزيد بن معاوية، وقيل للوأواء الدمشقي، يقول فيه :

وَأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ وَرْداً وَعَضَّتْ عَلَى العُنَّابِ بِالبَرَدِ [2].

فكما نلحظ اجتمعت صفات الجمال، وحلو الكلام، فالدمع لؤلؤ، والعين نرجس، والخد ورد، والأنامل عناب، والأسنان برد، فما أجمله من وصف، وما أبدعه من أسلوب استخدم فيه الشاعر تشبيهات تدل على جميل المعاني، وبديع الصور، وقد استفاد شعراء الأندلس من شعراء المشرق، فهذا ابن اللبانة يصف الهوى والشوق الذي حل به من جمال الحسان، فيقول :

أَذَابـــــتْ الأَشْـــــوَاقُ رُوحِي عَلى الأَجسَـــــــادِ
أَعَارهَـــــا الطَـــــاوُوسُ مِن رِيشـــــــــهِ إبرَادِ
كَواعِبُ أَترَابٍ تَشَابَهَتْ قدْأ عْضتْ عَلى العُنابِ بِالبردِ الأنْدِى[3].

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ١١٣.

(٢) ديوان الوأواء الدمشقي، محمد بن أحمد الغساني، تحقيق سامي الدهان، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣ م، ص٨٤.

(٣) جيش التوشيح ص ٦٣.

وهذا ابن حمديس يصف حسناء، ويقول فيها :

غَزالَةُ السَّربِ التَّي جِسمُهَا   مَعَانُ مسكٍ مَا عَلاهُ خِتَامِ
للهِ مَا صَوّرَ في فِكرَتِي   بَردُ المُنى مِنها وحَرّ الغَرامِ
تَمشِي، وسُكرُ التّيهِ فِي عَطفِها   يُميلُ مِنها باعتِدالِ القَوامِ
يَا مَن رأَى في غُصُن روضةٍ   يَسمعُ مِنها للأَقَاحِي كَلامِ
يُخبرُ مَن فَازَ بِتقبِيلهَا   عَن بَرَدٍ تنبعُ مِنه مُدامِ
أذْكى مِن المندِلِ فِي نَارِهِ   مَا سَاكَتِ الدّرَّ بِه مِنْ بشَامِ[1]
كأنَّ في فِيها عَبيراً إذَا   تَفجّرَ النُّورُ وغَار الظَّلامِ[2].

لقد جعلوا من الطبيعة أوصافاً لمن أحبوا، فجسمها لين، متمايل بخيلاء كالغصن يلعب به النسيم، وأسنانها كالبرد، وريقها كالخمر، من ارتشف منه تخبط في ودها، ورائحة ريقها كالعود الرطب، طيب الرائحة، ولو لم تشوطه بالبشام ليطيب ريح ثغرها، وطعم ريقها.

ويقول ابن حمديس في موقف يتغزل فيه بحسناء فاتنته بجمالها، وبعذوبة صفاتها التي ضارعة شمس الضحى في إشراقتها، وإطلالتها، لتملأ المكان بنورها؛ فتنحني الأبصار تقديراً لجمالها، وضيائها، فالشمس وجهها، والبرد ثغرها. يقول فيها :

ومَالئةٍ مِن سَناهَا العُيُونَ   أأبصَرتَ شَمسَ الضُّحى هِيْ كَذاكْ
تَسُوك حَصَى بَردٍ فِي عَقِيقٍ   فَيا لهُمَا ظُلماً بالسّواكِ
ومَا قهوةٌ مُيّعَتْ مِسكة   فَبينهما للأرِيجِ اشْترَاكِ
بأطْيبَ مِنها جَنى رِيقةٍ   إذَا نَحرَ اللّيلُ رُمحُ السّماكِ

(١) البشامة : شجرة طيبة الريح والطعم يستاك بها، صغير الورق، لا ثمر لها، إذا قطع ورقها أو غصنها سال منها لبن أبيض . (مادة بشم، ص ٦٠، المعجم الوسيط)
(٢) ديوان ابن حمديس ص ٤٥٩.

وَمَا ذُقتُ فَاهَا ولكنّني نَقَلْتُ شَهادَةَ عُودِ الأرَاكِ[1].

فامتلأت قلوبهم من جمال الطبيعة، وأغرتهم بالحب والغزل، فانقادت عواطفهم لمن أحبوا، لتجود قرائحهم بفيضٍ من شعر الغزل الجميل، إلا أن الغزل عندهم وقف "عند حدود الوصف المادي لما يتعشقه الشاعر من أعضاء جسم حبيبته[2]"،"فالقامة غصن تلعب به الريح، والوجه قمر، والإطلالة شمس، والشعر ليل، والريق خمر، والأسنان برد، فيحلو العشق والشوق بين أحضان الطبيعة " لمعاهد الأحبة بالرياح الهابة، والبروق اللامعة، والحمائم الهاتفة، والخيالات الطائفة، وآثار الديار العافية، وأشخاص الأطلال الداثرة.[3] "

ويقول ابن حمديس في موقف يتغزل فيه :

وَمُسْتحسنٍ فِي كُلّ حَالٍ دَلالُها كَبيرٌ هَواهَا وهيَ فِي صِغَرِ السنّ
تُرَاعي بعينٍ تغمزُ النَّاسَ في الهوَى وتَقرأُ منها السِّحرَ في مَرَض الجَفْنِ
كأنَّكَ مِنها ناظرٌ إنْ تَبسّمتْ إلَى بَرَدٍ تَجلُوهُ بَارقةُ الدّجْنِ[4].

فعشقه لها قد تعمق في ضلوعه، حتى كبر هواها في قلبه، وهي لا تزال صغيرة في السن، فكيف بها إذا كبرت! ولا غرو في عشقه لها، فقد تولع قلبه بتلك النظرة الساحرة التي سحرت بصره، وأيقظت قلبه، ولم تكتمل النظرة إلا بتلك الابتسامة التي تكشف عن بريق أسنانها، التي شابهت البرق و البرد. وفي موقف قريب مما سبق، يقول فيه :

سَنحتْ في السَّربِ مِن حُورِ الجِنانْ ظَبيةٌ تَبسِمُ عَن سِمطي جُمَانْ
وكأنَّ العَيْنَ مِنها تَجتَلي بَرداً، لِلبرقِ فِيه لَمَعَانْ[5].

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٣٤٢.

(٢) الأدب الأندلسي، عبد العزيز عتيق، ص ١٦٩.

(٣) نقد الشعر ،أبو الفرج قدامة بن جعفر ،تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ،دار الكتب العلمية ،بيروت – لبنان، ص ١٣٤ .

(٤) ديوان ابن حمديس ص ٤٩٣.

(٥) المرجع السابق ص ٥٠٢.

فأسنانها اللؤلؤية البيضاء إذا ابتسمت، كأنها كاشفة عن بردٍ في يومٍ مطير ، كثر فيه البرق، فأغرت الأبصار بلمعانها، وطالما تغزل العرب بالجمال، وبالثغر الباسم الجميل الذي يزيد الحسناوات حسناً إلى حسنهن، يقول ابن حمديس :

صَادَتْكَ مُهاةٌ لمْ تُصَدِ فَلواحِظُها شَرَكُ الأُسُدِ
مَن توحي السِّحرَ بنَاظرةٍ لَا تُنْفَثُ مِنه فِي العُقَدِ
لميَاءُ تُضاحِكُ عَن دُرَرٍ وبُروقِ حَياً، وحَصى بَردِ [1].

لقد سُحر الشعراء بالجمال، فجاء بيانهم ساحراً يأخذ الألباب، فهذه حسناء يتغزل الشاعر بجمالها، ورقة محاسنها، وعذوبة مفاتنها، فسحرتهم بطرفها، وبحركة رمشها لا بعقد ساحر، ولا بتلاوة كاهن، وبعد أن انتهى من التغزل بعينيها، أخذ يصف ثغرها، فهي إذا ابتسمت تبسمت عن درر وبرد لماع كبروق المزن الجالبة للمطر، فهي أسنان بيضاء براقة. ويقول في موضع آخر :

أَدرِئةُ الغُوطِ سَترنَ ظَبيةً تُديرُ عَيْنَيْ فِتنةٍ فِي البُرقَعِ
سَيفٌ وسَهمٌ لحظُها ولِهذمٌ يَا عَجباً لِفتكهَا المُنَوَّعِ
كأنَّما تَبسمُ إنْ مَازحتَها عَن بَرَدٍ بَينَ بُرُوقٍ لُمَّعِ
كأُقْحوانِ رَوضَةٍ يَصْقُلهُ مِدْوَسُ شَمسٍ في النّدَى الميَّعِ [2].

فالشاعر هنا يستهل غزله بسحر العيون، وما تبعثه في النفوس، فتخترق الدروع لتصل إلى القلب، وتصيبه بالعشق والغرام، فيعيش حياته مجروح لهفة هائم، يبحث عن علاجه في عينيها، التي فيهما الداء والدواء، فأطلق العنان لخياله، يتغزل بعينيها، ومن ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف عذوبة ريقها، وجمال ثغرها، وبياض أسنانها.

ومما تحفظه لنا الكتب عن بلاد الأندلس، ما جاء عن سليمان المستعين، عندما عارض أبياتاً

(١) ديوان ابن حمديس ص ١٥٨.
(٢) المرجع السابق ص ٣٠١.

تنسب إلى هارون الرشيد في سحر العيون الناعسة. يقول فيها:

عَجَباً يَهابُ الْليثُ حَدَّ سِنانِ وأهَابُ لَحظَ فَواترِ الأَجفَانِ [١].

وهذا الأبيات معارضة للأبيات التي تنسب إلى هارون الرشيد، والتي يقول فيها:

مَلَكَ الثلاثُ الآنساتُ عِنَاني وَحَلَلْنَ مِن قلبي بكلِّ مَكانِ
مَالي تُطاوِعُني البَرِيّةُ كلُّها وأُطيعُهنَّ وَهُنَّ في عِصْيانِ
مَا ذاكَ إلَّا أنَّ سُلْطانَ الهَوى وبهِ قَوِينَ أعَزُّ مِن سُلطَانِي [٢].

ونلاحظ هنا أثر العيون الناعسة في نفسية الشاعر، حتى أن هذين الملكين تذللا أمامها.

---

(١) جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي، تحقيق: بشار عواد معروف، ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ م، ص ٤١.

(٢) المرجع السابق ص ٤١.

الثلج :

إنَّ البياض قد كسا الأرجاء، وغطى الثلج المدينة، وانتشر النقاء على الرياض كأنه القطن المندوف، لا يترك شيئاً إلا ونزل عليه، فكسا سفوح الجبال، وغطى الأشجار ، والأغصان العارية، وحول لونها إلى البياض والصفاء، ليغسل به الطبيعة، ويطهرها من أدران الحياة، فيبعث في الأنفس الأمل، ويجدد الحياة، ويبعدها عن الهموم، لينقلهم إلى جمال الطبيعة ومباهجها، فتتلذذ الأبصار بتلك المناظر، وتطرب العقول من تلك المشاهد، فتهيج القرائح، وتغني الألسن على سقط الثلوج، وتموجها في الفضاء الواسع، ولعل مصطلح الثلجيات: وهي الأشعار التي قيلت في وصف الثلج تعبير جديد في أدبنا، لكن كظاهرة وغرض، موجود في الشعر العربي من قديم، حيث إنه لم يكن وليد الشعر الأندلسي، وإنما كان امتداداً لشعراء المشرق، ومن ذلك قول المتنبي مادحاً لأبي علي هارون الأوراجي، الذي استضافه بعد مطاردة جنود الإخشيد له عبر جبال لبنان، و التي اكتست بالثلج :

بَينِي وَبينَ أبِي عَليٍّ مِثلهِ شُمُّ الجِبالِ ومِثْلُهنّ رَجاءُ
وعِقابُ لُبنانٍ وكَيفَ بقَطْعِها وهُو الشِّتاءُ وصَيفهُنَّ شِتاءُ
لَبَسَ الثُّلُوجُ بها عَليّ مَسَالِكي فكأنَّها ببياضِهَا سَودَاءُ [(١)].

لقد التبست على الشاعر المسالك، وتقطعت به السبل، ولكنه شق طريقه مترنحاً من بين تلك الممرات الجبلية، التي قد عبث بها ثلج الشتاء، وغير معالمها، فالشاعر يتمنى النجاة عند صاحبه، ويصف في موقف آخر العوائق التي يشكلها الثلج على الأرض، وما يحدثه من تقليص في مساحات المراعي، وندرة الغطاء النباتي الذي تتغذى عليه فرسه :

مَا لِلمُرُوجِ الخُضرِ والْحدَائقِ يَشكُو خَلاهَا كَثرَةَ العَوائِقِ
أَقامَ فِيها الثَّلجُ كَالمرَافقِ يَعقِدُ فَوْقَ السّنّ ريقَ الباصِقِ

---

(١) ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ص ١٢٦ .

ثُمَّ مَضَى لَا عادَ مِن مُفارقٍ بِقائِدٍ مِنْ ذَوْبِهِ وسَائِقِ [1].

فقد شكا نبات الأرض كثرة الموانع التي حبسته من الظهور على الأرض، بفعل البرد والثلوج التي تدثر أرضه، وتلتف على أشجاره، فتمنعها من الانتشار، وتخفي الأزهار والنوار تحت غطائها، فحبس الثلج جمال الطبيعة، وغيبه عن الأنظار. وهذا أبو تمام يصف حال الأرض بعد نزول الثلج عليها :

والأرْضُ في رِدائِها القَشِيبِ في زَاهِرٍ مِنْ نَبْتِها رَطيبِ
بَعد اشْتِهابِ الثَّلْجِ والصَّرِيبِ كالكَهْلِ بعدَ السن والتَّجنِيبِ
تبدّلُ الشَّبابَ بالمَشِيبِ كمْ آنستْ مِنْ جَانبٍ غَرِيبِ [2].

فالشاعر أحس بلسعة برد الشتاء، وتأمل ثلجه الأبيض، فرسم لنا صورة لطيفة لأثر برده، وثلجه على الرياض والأزهار، فالشتاء بدل حال الأرض من زهرة الشباب وعنفوانه، والألوان المشرقة البراقة التي تمازجت في أحضان الطبيعة، لتصنع لوحة فنية، قد طغى عليها الخُضرة والإشراق، ليبدل الثلج ذلك الجَمال الذي لم يمكث طويلاً حتى غيرت من ملامحه فرشة الأيام بألوان الشتاء، التي أخذت بتحريكها فصول العام، فبدل الثلج حالها الأخضر إلى لون المشيب الأبيض، الذي تناثر على البسيطة الممتدة، ليتراكم على أغصان الأشجار، فيثقل كاهلها بحمله الثقيل، ويثنيها عن استقامتها، لتنحني لصروف الدهر كالشيخ الكبير الطاعن في السن، الذي لا يستطيع أن يقيم ظهره.

"إن الثلجيات بدأت في الأندلس متأخرة تماماً كحالها في المشرق، ومن الطريف أن أول من أنشأ شعراً في الثلج في الأندلس هو ابن خفاجة، الذي كان يلقب بصنوبري الأندلس؛ لغرامه

(١) ديوان المتنبي، ص ٢٢٩ .
(٢) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق : محمد عبده عزام ،دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، ج ٤، ص ٥٠٢ .

بالطبيعة، وهيامه بها، وقول الشعر الرقيق الأنيق في وصفها [١]"،وعلى منوال شعراء المشرق نظم الأندلسيون مقطوعات وقصائد عديدة في وصف الشتاء وما يأتي معه من رياح باردة، وبرد قارس، وثلوج تكسو الأرض، وتغطي السهول وقمم الجبال، فالأندلس في معظمها منطقة باردة، يتساقط عليها الثلج بغزارة في فصل الشتاء، ومما يدل على غزارة ثلوجها ونزولها في فصل الشتاء، ما ذكره ابن سعيد الغرناطي في معرض حديثه عن المنذر[٢]، حيث كان القحط الشديد قد أصاب الأندلس، قال: "وفي هذه السنة، كان القحط الشديد بالأندلس؛ فاستسقى الناس. فنزل ثلج كثير في أول يوم من ينير[٣]، ولم ينزل غيث. ثم استسقوا مراراً، فلم يمطروا، فخامر الناس القنط. فلما دخل من فبرير بعض أيام، سقى الناس، وارتفع الناس، فاستبشروا بفضل الله[٤]" فنزل الثلج باكراً عليهم في أول أيام الشتاء، وكان كما وصفه غزيراً.

إن أرض الأندلس يوجد بها بعض الجبال، من أمثال جبل شلير[٥]، الذي لا يفارقه الثلج صيفاً ولا شتاءً، فذكره صاحب النفح في كتابه أثناء حديثه عن غرناطة، حيث قال فيها: " ويطل عليها الجبل المسمى بشلير، الذي لا يزول الثلج عنه شتاء وصيفاً، ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصلد[٦]".

وقد ساعدت هذه الثلوج على توفير مصدر من مصادر المياه النقية، التي تغذي المدن

---

(١) الأدب الأندلسي، الشكعة، ص ٣٣٠، بتصرف .

(٢) المنذر بن محمد، ويكنى: أبا الحكم. وأمه أم ولد، اسمها أثل، وكان مولده في سنة تسع وعشرين ومائتين، فاتصلب ولايته سنتين غير خمسة عشر يوماً، ومات وهو على قلعة يقال لها بباشتر محاصراً لعمر بن حفصون: خارجي قام هناك وتحصن. وكان موته في سنة خمس وسبعين ومائتين،وكان سادس خلفاء بني أمية في الأندلس ،ينظر ترجمته عند الحميدي في (جذوة المقنبس ص٣١) ،والضبي في(بغية الملتمس ج١ ص٣٧) .

(٣) من فصول الشتاء حيث أن الشتاء يبدأ من ٢١ ديسمبر إلى ٢٠ مارس .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٩

(٥) شلير أو جبل الثلج هو ما يسمى سير انفادا، وشلير من اللاتينية (solarius) أي المشمس، لانعكاس أشعة الشمس على ثلوجه، أما سير انفادا فتعني الجبال الثلجية .

(٦) نفح الطيب ج ١، ص ١٧٧ .

القريبة منها بفعل ذوبان ثلوجها، مثل مدينة غرناطة، التي وُصِفَ ماؤها المنحدر من قمم الجبال "مياهها تنصب إليها من ذوب الثلج دون مخالطة البساتين والفضلات[(١)]"، وقد ساعد ذوبان الثلوج على رفد مياه الأنهار، مما أسهم في رفع منسوب المياه، وجعلها تجري باستمرار، فما أجمل الطبيعة التي كان يتنعم بها أهل الاندلس، ويتلذذون بمفاتنها، لينظموا قصائداً تعبر عن روعة طبيعتها، وممن استمتع بالثلج، ونزوله من السماء الوزير الكاتب أبو الفضل ابن حسداي الإسلامي السرقسطي، فوصف الثلج بقوله:

وأَطرَبنَا غَيمٌ يُمازج شَمسَهُ   فَيُسْتَرُ طُوراً بالسَّحاب ويُكْشَفُ
ترَى قُزَحاً فِي الجَو يَفتحُ قَوسَهُ   مُكبّاً عَلى قُطنٍ مَن الثَّلجِ يُندَفُ.[(٢)]

فالوزير تأمل الطبيعة الأندلسية في الشتاء، فأطربه منظر الثلج وهو يتساقط من بين تلك الغيوم، التي لم تتراكم وتعكر صفو الأجواء، وإنما من بين الغيوم البسيطة التي تتخللها الشمس طوراً، وطوراً تختفي، لترسم على صفحة الأفق قوساً كأنه النداف، يندف القطن؛ ليتساقط الثلج على الأرض بكل هدوء.

إن بلاد الأندلس أرضها واسعة، مترامية الأطراف، ومختلفة التضاريس، ومتنوعة الأجواء، فسقوط الثلج في فصل الشتاء لا يحدث باستمرار في بعض أجزاء الأندلس، ففي جنوب الأندلس يندر سقوط الثلوج عليها، فقد شاهدت (اعتماد الرميكية) زوجة المعتمد بن عباد "وهي في قرطبة من نوافذ القصر في الشتاء السماء وهي تندف بالثلج، وكان هذا المنظر نادر الحدوث في منطقة يقل فيها اشتداد الشتاء، فبكت وسالت دموعها على وجنتيها، فسألها المعتمد في رفق ولين عن سبب بكائها، فأجابته وهي تجهز بالبكاء : إنك طاغية جبار غشوم، انظر إلى جمال ندف الثلوج البارقة، اللينة العالقة بغضون الأشجار، وأنت أيها الناكر للجميل لا يخطر ببالك أن توفر لي مثل هذا

(١) المغرب في حلى المغرب ج٢، ص ٨٣ .
(٢) نفح االطيب ج ٣ ،ص ٤٠١.

المنظر الجميل كل شتاء، ولا تصحبني إلى بلد يتساقط فيه الثلج في الشتاء، فمسح المعتمد دموعها، وقال لها في لين ورقة: لا تحزني، ولا تستسلمي لليأس يا سلوة النفس، ومنية القلب، فإني أعدك وعداً صادقاً إنك سترين هذا المنظر الذي أدخل على قلبك السرور كل شتاء، وأمر بزرع أشجار اللوز على جبل قرطبة، حتى إذا نور زهره بدت الأشجار وكأنها محمــلة بقطع الثلج الناصع البياض[(١)] ". وهذا ابن خفاجة يصف ليلة باردة قد غطى فيها الثلج الأغصان :

أَلَا قَلَّصَتْ ذَيلَهـــا لَيلَةٌ تَجُرُّ الرَبابَ بِهـــا هَيدَبا
وَقَدْ بَرقَعَ الثَلجُ وَجـــهَ الثَرى وَأَلحَفَ غُصنَ النَقى فاحتَبى
فَشَابَتْ وَراءَ قِناعِ الظَّـــلامِ نُواصي الغُصُونِ وَهامُ الرُبى
فَمَهمـــا تَيَمَّمـــتُ خَمّـــارَةً رَكِبتُ إِلى أَشقَرٍ أَشهَبـــا
وَحَيَّيتُ حَانتهـــا طـــارِقاً فَقالَت تُجيبُ أَلا مَرحَبـــا
وَقامَت بِأَجيَدَ مِن كَأسِها لِأَوقَصَ مِن دَنِّها أَحدَبـــا
فَجاءَت بِحَمراءَ وَقّادَةٍ تَلَهَّبُ في كأسِها كَوكَبـــا
عَثَرتُ بِذَيلِ الدُجى دونَها فَأَضحَكتُ ثَغراً لَها أَشنَبا
وَقَدْ مَسَحَ الصُبحُ كُحلَ الظَّلامِ وَأَطلَعَ فَودُ الدُّجى أَشيَبا[(٢)].

إنها ليلة شتوية قد لسع الشاعر فيها بلسعة البرد، فالتهبت مشاعر قريحته، واستيقظت كي يتأمل الشتاء، والبياض من حوله، فقد نزل الغمام بتلك الليلة إلى الأرض، يتحسس الأغصان والقيعان، فأذنت بعد ذلك للثلج بالنزول عليها، وتغطيت محاسنها كما يغطي البرقع وجه الحسناء الجميلة، ليعم اللون الأبيض الأرض، كأنه شيب وقار، ويلتف الثلج على الغصون، ويغطي رؤوس الجبال كأنه عمامة بيضاء، إلا أن هذه الأجواء الباردة لم تمنع الشاعر من وصف حاله في مجلس أنس، يشرب فيه الخمر، فلم يثنيه برد الشتاء، ولا وعورة الطريق عن ذكر مثل تلك المجالس.

---

(١) المعتمد بن عباد ،علي أدهم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة النشر، مصر ص ١٠٣.

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٢٦٢ .

وفي موقف آخر يصف ابن خفاجة حسناء قد تقنعت بخمارها، فأخفت محاسنها، فلم يبدو منها إلا القليل :

ومُقنّعٍ بخلاً بنضْرةِ حُسْنهِ   أمسَى هِلالاً وهُو بدرٌ تمامِ
قبّلتُ مِنهُ أقحوانةَ مبسمٍ   رَفَّتْ وَراءَ كُمامَةٍ لِثُمامِ
ولَثَمتُ حُمرَةَ وجنَةٍ تَندى حيّاً   فكرعتُ في بردٍ بها وسَلامِ
وبكلّ مَرقَبَةٍ مَناخُ غَمامَةٍ،   مِثلُ الضّريبِ بها مجاج لُغَامِ
رَعدتْ فَرجعتِ الرَّغاءَ مَطيةٌ   لمْ تَدرِ غيرَ البَرقِ خَفقَ زِمامِ [(١)].

فهي كالبدر الذي غطاه السحاب، وحجب نوره عن الأبصار، حتى أصبحت كالهلال الذي يتلاشى نوره، وهي كقمة الجبل الجميلة التي قد كساها الثلج، وغطاها، فهي لا ترى من كثرة الغيوم التي تستقر عليه، فلا يظهر جمالها من المطر الذي ينزل عليها، ويزيل الثلج عنها، كما يزيل القناع جمال محبوبته.

كما استقى بعض شعراء الأندلس تشبيهاتهم من البيئة الصحراوية، ليصوروا لنا طبيعتهم، فمزج الشعراء بين الجو الغائم المخيف، الذي قد علا فيه صوت رعده، وبين رغاء الإبل وزبدها. يقول ابن حمديس :

ولَا سَاكناً في ليْلَةٍ مُدْلَهِمَّةٍ   سَرَى رَكبُها فِيها اصْطلاءَ ظَلَامِ
إذَا مَا رغَا في الجَوّ فَحلُ سَحابِها   حَكى الثَّلجُ مِن شَدقيهِ جَعْدَ لغَامِ[(٢)].

فالليل قد حط رحله في فلاة، قد ازدادت ظُلماتها بسواد السحاب، الذي ما لبث قليلاً حتى شق ظلمته ضوء البرق، وجلجل في سمائها صوت الرعد، كالفحل من الإبل يرغي، ويتناثر الزبد من شدقيه، كما يتناثر الثلج في الأفق، فالشاعر في هذه الأبيات قد جعل تشبيهاته من البيئة الصحراوية، التي يكثر فيها الإبل، فجعل الرغاء لصوت الرعد، والزبد لتساقط الثلج، إلا أن الشاعر

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٨٣.

(٢) ديوان ابن حمديس ص ٤٣٤ .

قد سبق إلى لمثل هذا التشبيه في قول أبي سعيد الكنجروذي :

أَلَا تَرَى اليَومَ قدْ أصْحتْ سَحائِبُهُ ... دَكناً وأَصْبَحَ يَأتِي ثَلجُهُ دَفَعَا
كأنَّ وُرقَ جَمالٍ عُدْنَ هَائجَةً ... يَرمينَ بِيضٍ لُغَامٍ تَنهِي قِطَعَا [(١)].

فقد سبق شعراء الأندلس إلى هذا التشبيه، ولم أجد عند شعراء هذا العصر صوراً وتشبيهات جديدة في الثلج لم يسبقوا لها، فقد شُبِه نزول الثلج بالقطن المندوف كما في قول أبي البركات علي بن الحسين العلوي في يوم باردٍ ثالجٍ:

يَومٌ عَبُوسٌ كَالحٌ وَجهُـــهُ ... بَزَّمَهرِيرِ البَرِدِ مَوصُـــــوفُ
كَأنَّ فيهِ ثَلجُه سَاقِطـــــاً ... قُطنٌ عَلى الصّحْـــــرَاءِ مَندُوفُ [(٢)].

لم تنل الثلجيات كبير عناية من الأندلسيين، فلا تقارن أشعارهم فيها بتلك الأشعار التي نظموها في الروضيات والمائيات، ربما لأن في الثلج متاعب ومخاطر، وسد للطرقات، فتقل الأنشطة، ويقل خروج الناس وعملهم، أو لأن في الثلج حبساً للجمال، وتعتيماً للصورة الطبيعية البراقة، فتكتسي الطبيعة بلون المشيب الأبيض بعد أن كانت في أجمل حلة، وتذكر بعض المصادر في نهاية الأندلس عندما حاصر العدو غرناطة، ونزل الثلج عليهم، وسد أبواب الإمدادات عنهم التي كانت تأتيهم من ناحية جبل شلير "والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق، والطعام من ناحية جبل شلير، إلى أن تمكن فصل الشتاء، وكلب البرد، ونزل الثلج، فانسد باب المرافق، وقطع الجالب، وقل الطعام، واشتد الغلاء، وعظم البلاء، واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد، ومنع المسلمين من الحرث والسبب، وضاق الحال، وبان الاختلال، وعظم الخطب[(٣)]"، فقد زاد نزول الثلج عليهم من قبضة العدو، وقطع سبل الاتصالات بينهم وبين العالم الخارجي.

---

(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري، تحقيق : مفيد محمد حقة ،دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ،الطبعة الأولى، ١٩٨٣ م ،ج ٥ ص ١٨٨ .

(٢) المرجع السابق، ج ٥ ص ١٨٣ .

(٣) نفح الطيب ج ٤ ص ٥٢٥.

السحاب :

لقد تعايش الإنسان مع السحاب منذ قديم الزمان، فهذا السحاب ظاهرة كونية من مظاهر رحمة الله بعباده، أو تكون في بعض الأحيان من مظاهر غضبه وعذابه، قال تعالى : **﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤﴾** [(١)]، فقد تفاءلوا بعارض السحاب في الأفق، وهو مستقبلٌ أوديتهم، لكن تلبس لهم العذاب في ظاهر الرحمة، وكما اختلف شأن السحاب في السماء بين عذاب ورحمة، اختلف الشعراء في تصويرهم للسحاب في أشعارهم، فمنهم من وصف السحاب بين الرياض، ومنهم من مدح بالسحاب، ومنهم من وصف كرم ممدوحه بالسحاب، ومنهم من جعل دموعه كماء السحاب، ومنهم من رأى في الجيش تكتل السحاب، ومنهم من رأى الحسان في السحاب... وغيرها كثير سوف نتاولها بالتفصيل والتحليل في هذا المبحث بمشيئة الله تعالى.

لقد عاش الأندلسيون في بيئة يكثر فيها الماء، ويتشكل في أفقها السحب آذناً بسقوط القطر على الرياض وبساتينها، ففي بعض أقاليم الأندلس اعتاد أهلها على رؤية السحاب، حتى إنه في مدينة جيان يوجد بها جبل لا يخطئه السحاب، قال فيه الحميري: "وجبل من جبال جيان إذا تبايع أهلها أموالهم فيه، شرطوا أنه في مجرى السحاب، لأن هذا الجبل في مكان لا يكاد يخطئه السحاب بالرياح المختلفة، فهم يغالون فيه لهذه الخاصية."[(٢)]، فقد اعتاد شعراء الأندلس على رؤية السحاب، وما تحملها معها من خيرات، تغيث البلاد والعباد، وقد استمتعوا بتأملها، والتفكر في عجيب خلقها، فيقف ابن اللبانة واصفاً يوماً غائماً:

يَـــومٌ تَكاثفَ غَيمُـــهُ فكَأنَّـــــهُ ... دُون السَّماءِ دُخـــانُ عُـودٍ أَخضــــرِ

والطـــلَّ مِثل بُرادَةٍ مـــن فضــــــةٍ ... منثُـــورةٍ في تُربةٍ مِـــن عَنبــــرِ

---

(١) سورة الأحقاف آية ٢٤.

(٢) صفة جزيرة الأندلس ص ٧١ .

والشَّمسُ في حُجب السَّماءِ كأنَّهـــــــا حُسناً تَسترُ تَحتَ كلّـــــــةِ تُستُرِ[١].

هبت الرياح، فتمايلت الأغصان، واشرأبت إلى السماء مستبشرة بقدوم السحاب، لترسل السحاب نداها على الرياض، فيخالط الأزهار، ويطير به النسيم، ليلامس حواس الشاعر، فيمر على خياله، ليحلق به بين السحاب، ليرى السحاب كدخان العود الرطب طيب الرائحة، لينظر من بين الغيوم إلى الأرض، فيهوله لمعان الفضة المتناثرة على الرياض، وعلى أطراف الأغصان، وأوراق الأشجار تلمع بفعل الندى عليها، وبقي الشاعر مستمتعاً بهذه الأجواء، متأملاً في السماء، ليرى الشمس من بين الغيوم، تحجبها قطع السحاب المترامية، كأنها حسناء تبدو تارة، وتختفي. وهذا ابن حمديس وقف متأملاً سحابة:

ومُديمةٍ لَمَعَ البُروقِ كأنَّما هَزّتْ مِن البِيضِ الصِّفاحِ متُونَا
وسَرتْ بها الرِّيحُ الشِّمالُ فكمْ يدٍ كانتْ لَها عِند الرّياضِ يَمينَا
صَرختْ بِصوتِ الرّعدِ صَرخةَ حَاملٍ مَلأتْ بِها اللَّيلَ البَهيمَ أنينَا
حتَّى إذَا ضَاقتْ بِمضْمرِ حِملهَا ألْقَتْ بحَجرِ الأَرضِ مِنهُ جَنينَا
قَطرا تَنَاثَرَ حَبُّهُ أنّهُ دُرٌّ تنظّمهُ لكانَ ثمِينَا
وكأنَّما عُمّي الرِّياضِ بِدَمعهِ كُسِيتْ مِن الزّهرِ الأنِيق عُيونَا[٢].

فالشاعر هنا استهل قصيدته بسحابة الديم (ومُديمةٍ)، إلا أنه قال بعدها (لمع البروق)، وسحابة الديم لا يأتي معها رعد ولا برق، ولعل الشاعر كان يصف حالها قبل أن تصبح سحاب ديم، ثم أخذ بعد ذلك يصف حال السحاب، وما جادت بها يمينها على الرياض، فكم من نعمة لها على تلك الرياض، وقد استخدم الشاعر أسلوب التشخيص، ليبرز المعاني والصفات بصورة جميلة، فشخص السحاب الممتلئ بالقطر، والممتزجة بصوت الرعد، بالمرأة الحامل التي قد انتفخ بطنها، ولها أنين وصراخ من ألم المخاض، حتى إذا ضاقت بالسحاب السبل؛ ألقت بحملها على سطح

(١) ديوان ابن اللبانة ص ٧٠.
(٢) ديوان ابن حمديس ص ٤٩٠ .

الأرض، لتزين الأرض بقطرها، وتنثر الدر على سهالها، وتذر الفضة على أوراق أشجارها.

لقد استغل شعراء الأندلس بيئتهم، وجعلوها تصب في سعادتهم، وتنشر السرور بينهم، فاتخذوا من رياضها، وبساتينها مجالس أنس لهم، يطربون فيها، وينشدوا أجمل الألحان، ويرسموا أحلى المعاني، وبديع الصور، يقول ابن خفاجة:

نَدّى النّسِيمُ، ومَا أرَقّ وأعطَرَا وهَفا القَضِيبُ، فَما أغضَّ وأنضَرا
فَزففتها بِكراً إذَا أقبَلتُهـَا ألقَتْ، عَلى وَجهِي، قِناعاً أحْمَرَا
وَ رفــلتْ بينَ قَميـصِ غَيـمٍ هَلهلٍ ورِداءِ شَمسٍ، قدْ تَمَزّقَ، أصْفَرَا
والرّيحُ تَنخُلُ، مِن رَذاذٍ، لُؤلؤاً رَطباً و تَفتقُ مِن غَمامٍ عَنبرَا [(١)].

فالشاعر يعيش بين روضة ندية، ونسيم ذكي، قد لاعب الريح أغصانه وأشجاره، ليصل إلى السحاب ويستدر درها، ويستخرجه من أصدافه، وينثره على جيد الأرض، ليقف الشعراء مذهولين أمام جمال السماء، وبديع صنعها. ويقول ابن حمديس :

رُبّ لَيلٍ هَصرتُ فِيه بِغصْنٍ لَابسٍ نَضرةَ النَّعيمِ وَريقِ
فِيه رَمانةٌ تُطَاعنُ صَدرِي فَهِي أَمْضَى مِن السِّنانِ الذَّلِيقِ
أَسْألُ الوَردَ مِنه عَن أُقْحُوانٍ مُجتِنى الشَّهدِ مِنه فِي طلّ رِيقِ
فَشَقَقتْ الشَّقِيقَ مِن شَفَتيهِ عَن حَبابٍ مُحدِّثٍ عَن رَحيقِ
واكْتستْ زُرقةُ السَّماءِ سَحابَاً مُسْمعـــاً رَعدُهُ هَديرَ الفَنِيقِ
وحَمَى مِن وِشَاتِنا كلُّ وَبلٍ بِأفَاعـــي السُّيولِ كلَّ طَرِيقِ [(٢)].

يصور لنا الشاعر الأجواء التي كان يعيش بها من خضرة، وفاكهة، وسحاب في الأفق، قد سمع رعده كرغاء الفحل؛ ليشق قطر السحاب طريقه في الأرض كالأفاعي، فيمنعه من الوشاة، ويحميه

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ١٣٩.

(٢) ديوان ابن حمديس ص ٣٣٢.

منهم، وليس ببعيد عن هذه المحفل الجميل، الذي يتعايش معه الشاعر، يصف لنا ابن خفاجة صور جمال الطبيعة، ويستهلها بالخمر، وبيوت الشعر التي يلعب برواقها النسيم. يقول فيها :

حُثُّ المُدامَةَ فالنسيمُ عَلِيلُ والظِّلُّ خَفَّاقُ الرواقِ ظليلُ
والنَّورُ طَرفٌ قَد تَنَبَّهَ دَامعٌ وَالماءُ مُبتَسمٌ يَرُوقُ صَقِيلُ
وَقَدْ انتشى عِطفُ الأَراكَةِ فانثنى سُكراً وَرَجَّع في الغُصُون هَديلُ
وَتَطلَّعَتْ من برقةٍ وغَمَامَةٍ في كُلِّ أُفقٍ رَايَةٌ وَرَعِيلُ
حَتَّى تَهَادَى كُل خُوطَةِ أيكة رِياً وَغَصَّتْ تَلْعَةٌ وَمَسيِلُ
فالرَّوضُ مُهتَزُ المَعَاطف نِعَمةً نّشوانُ تعطِفُهُ الصبا فَيمِيلُ
رَيَّانُ فَضَّضَهُ النَّدى ثُمَّ انجَلَى عَنهُ فَذَهَّبَ صَفحَتَيهِ أَصِيلُ
وارتدَّ يَنظُرُ مِن نِقابِ غمامَةٍ طَرفٌ يُمرضُهُ العَشِي كليِلُ
سَاجٍ كماَ يَرنُو إلى عُوَّادِهِ شَاكٍ ويَلتمِحُ العَزيز ذَليلُ
فالشَّمسُ شَاحِبَةُ الجبين مَرِيضةٌ وَالريحُ خَافقةُ الجنَاحِ بَليِلُ
والزَّقُ مُنجَدِلٌ يكُبُ لِوجهِهِ ويَمُجُ رُوحَ الرَّاحِ مِنْهُ قَتِيلُ
والكأسُ طِرفٌ أشقَرٌ قد جال في عَرَق عَلاهُ من الحَبَاب يَسِيلُ [1].

إنَّ الإحساس بالطبيعة، وبديع صنعتها، يولد لدى الشاعر حب الجمال، ويبث في خياله صوراً عديدة لمفاتن الطبيعة، التي تدعو المتلقي لحب ذلك الجمال الذي سحر الشاعر بجماله، وأحست جوارحه برقتها، فقد كان الشاعر "كثير التأمل في المشاهدات، وكانت نظرته تقود عقله، وترسم له طرق التفكير، وأنواع الخيال، وكانت كل معلوماته وآرائه من طريق النظر والتأمل في جمال الألوان، وتناسق الأشياء، فأصبح عقله أشبه بخزانة منظورات، وقد حملته دقة النظر على دقة التعبير [2]"، وفي أحضان الطبيعة تطيب مجالس الأنس والسرور، التي يكثر الشاعر من وصفها، ووصف الخمر فيها وسقاتها، ولعلنا نلتمس لشاعرنا العذر في وصفه للخمر ، حينما

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٢٥٤ .
(٢) المفصل في تاريخ الأدب العربي ص ٣٥١.

يتحدث عن نفسه في صنعة الشعر "أنه يستجاز في صناعة الشعر، لا في صناعة النثر، أن يقول القائل فيه (إني فعلت)، و (وإني صنعت)، من غير أن يكون وراء ذلك حقيقة، فالشعر مأخذ وطريقة، وإذا كان المقصد فيه التخييل، فليس القصد فيه الصدق، ولا يعاب فيه الكذب [(١)]."

لقد تأمل الشعراء السماء وما بها من كواكب، ونجوم، وسحب، ورعد، وبرق، فقدموا الأدلة العقلية على بديع صنع الخالق- عز وجل- لها، وأن لهذا الكون خالقاً، ومدبراً، وهو الله- سبحانه وتعالى-، يقول أبو اسحاق الإلبيري :

وانظُــــر إلــى المُزنَةِ مَشحُونةً مُثقلَةَ الكاهِـــلِ كالبـــازِلِ[(٢)]
تَحِنُّ مِن شَـــوقٍ إلى وَقفَةٍ أو خَطـــرَةٍ بالبَلدِ الماحلِ
يـــا لَكَ بُستانَ عُقولٍ بَدا لِعينِ قَلبِ المؤمـــنِ العاقلِ
فَسِرُّ هذا الشَّأنِ لا يَنجَلي إلاَّ لِعَبدٍ مُخلِصٍ فاضـــلِ [(٣)].

لقد كانت حياة العرب قائمة- بشكل عام- على مياه الأمطار، فبها صلاحهم، وصلاح معيشتهم، لذلك عظّم الشعراء السحاب، وجعلوها رمزاً للعطاء والسخاء، فهي حياة للأرض المحلة، وإشراقة ونور للرياض المثمرة، وقد سار شعراء الأندلس على نهج من سبقهم، فمدحوا، وصبوا ثناءهم على ممدوحيهم، فوصفوهم بالسحاب المدرار، ونجد ذلك في مدح ابن زيدون لبني جهور، حيث يقف واصفاً لأعطياتهم بالسحاب الذي أصاب المحل في قوله :

بَني جَهوَرٍ ! مهمـــا فخَـــرتُمْ بأوّلٍ فسرٌّ منَ المَجدِ التّليدِ لِبَابُ
حَطَطتم بِحيثُ اسلَنطحتْ[(٤)] سَاحَةُ العلا وأوْفَتْ لأخْطَارِ السَّناءِ هِضَابُ

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ١٠.
(٢) بزل الناب –بزلاً، وبزولاً : طلع . فهو بازل . والبعير : طلع نابه وذلك في السنة الثامنة أو التاسعة . المعجم الوسيط ص ٥٥.
(٣) ديوان أبي إسحاق الإلبيري ص ٦٧.
(٤) اسلنطح الوادي : اتسع والشيء طال وعرض. (المعجم الوسيط ص ٤٦١).

بِكمْ باهَتِ الأَرضُ السَّماءَ، فأوجُهٌ شُموسٌ، وأيدٍ، في المحُولِ، سَحابُ[(١)].

فوجوههم مشرقة من البشر كشمس الضحى، وأيديهم في العطاء كالسحاب المحيي للأرض الموات، وقريب من هذا المعنى قول ابن خفاجة :

أمَا واعْتزَازِ الضَّيفِ والسَّيف والنَّدَى بِخَيرِ مَليكٍ هَشَّ فِي صَدرِ مَجْلِسِ
بَدا بَينَ كَفٍ للسَّماحِ مُغيمَةٍ تَصُوبُ ووَجهٍ للطَّلاقةِ مُشْمِسِ [(٢)].

فلم يبتعد الشعراء كثيرا عن هذا التشبيهات، فالوجه شمس في البشر والإشراق، واليد سحاب في العطاء، ويمدح ابن زيدون في موقف آخر ابن عباد :

مَوَاهِبُ فَيّاضِ اليَدَيْنِ، كَأنّمَا من المُزْنِ تُمرَى أوْ من البحرِ تُغرفُ [(٣)].

فابن عباد في أعطياته لا يخشى الفقر، أو نفاد ما عنده، فهو يعطي من سحاب، ويغرف من بحر لا ساحل له. وهذا ابن اللبانة يمدح ويستعطف آل عباد :

هَبنِي أَسَأتُ، ومَــا فَعَلتُ ولَيسَ لِي إلَّا رِضَاكَ، ألَيسَ مِمَا يَنفعُ
كُنْ كَيف شِئتَ بِحيثُ شِئتَ فإنَّ لي شُكْرةً تَخبُ بِه الرّكابُ وتُوضَعُ
أنتَ السَّحَابُ عَلى مَكَانٍ يَنهَمِي بِالمُكرَمَاتِ وعَن مَكــانٍ يُقلَعُ [(٤)].

توسع مفهوم كرم السحاب عند ابن اللبانة، لينقله من جود اليدين إلى كرم الأخلاق، ولين الجانب، وجعل وجود ممدوحه على الأرض رحمة بالناس، ليصل عدله إلى القاصي والداني. يقول فيها :

---

(١) ديوان ابن زيدون ص ٣٢.
(٢) ديوان ابن خفاجة ص ١٥٥.
(٣) ديوان ابن زيدون ص ٢٠٠.
(٤) ديوان ابن اللبانة ص ٩٠ .

جَلوتَ سَنا الإصبَاحِ فِي غَســـــقِ الدُّجَى وأنْشأْتَ غُرَّ المــــُزنِ فِي كلَبِ المَحــــــلِ
فَما كُنتَ إلَّا رَحمــــــــةً أُنزلتْ علـــــى ثرَى الأَرضِ فَامْتدَّتْ إلى الْوَعرِ والسَّهــلِ[1].

له أعمال فاضلة، ومحاسن جمة، قد محا ظلمة الطغيان بنور العدل والإحسان، وبحث عن مواطن الحاجة والهلاك، فسقاها من أعطياته التي لا انقطاع لها، فامتدت إلى كل الأرجاء، لتصل الوعر قبل السهل. وقال ابن اللبانة في مدح المعتمد عند دخوله لورقة :

جَمالٌ وإجْمــــالٌ وسَبْــقٌ وُصُولـــة كَشَمــسِ الضُّحَى كَالمزنِ كَالبرْقِ كالرَّعــــدِ
بَهمتهُ شَاد العُــــلا ثُمَّ زَادَهَــــــا بِناءً بأبنــــاءٍ جَحَـــاجِحــــةٍ لُدِّ [2].

فالشاعر أتى بما يستبشر به الناس، ويتفاءلون بقدومه، فالمعتمد بطلته عليهم كإطلالة شمس الضحى، كالمزن، كالبرق، والرعد الذي لا يأتي في الغالب إلا بالخير والصلاح والمنفعة، لذلك اهتم الشعراء بهذه الرموز التي تدل على الخير الكثير والعطاء الوافر ليلصقوها بممدوحيهم، ويستدلوا بها على عظيم كرمهم، وكثرة أعطياتهم التي تعم القاصي قبل الداني منهم. ومما قيل في المدح :

لَو استمطرَ النَّاسُ الغَمـــامَ بذكــرهِ لَقامَ على الصَّلدِ الصَّفا لهُم الخَصــبُ
يَجــــود ولَا يكـــدِي ويَنوى فَلا يَني وَيقضِـــي فلَا يُفضِي ويَمضِي فَلا ينبُو
سَألتُ أخَاه البَحر عَنه فقَـــــال لِي شَقيقــيَ إلَّا أنَّه البَـــاردُ العَـــذبُ
لَنا ديمَتا مَـــــاءٌ ومـــالٌ فَدِيمـتي تَمـــاسَك أحْيانَاً وديمتُه سَكـــبُ
إذَا نَشـــــأتْ بَريةٌ فـــلــهُ النَّدى وإنْ نشَأتْ بَحريةٌ فلَى السُّحـــبُ [3]

وما أجمل أن يجمع للممدوح صفات الكرم والشجاعة، كما فعل ابن حمديس في مدحه لعلي

---

(١) ديوان ابن اللبانة ص ١١٩.
(٢) المرجع السابق ص ٥٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٩ .

بن يحيى، حين قال :

فَلكَ اللهُ مِنْ كَرِيمِ السَّجايَا   معْرِقِ المجْدِ فِي المُلوكِ الكِرامِ
ذِمرُ حربٍ، لهُ اقتِحَامُ هَزبرٍ   وجوَادٌ، لهُ يَمينُ غَمَــــام [1]

وقال أيضاً يمدح الأمير يحيى بن تميم بن المعز، حيث جعله رمزاً للكرم والعطاء، وإن لم يظهر الأمير كرمه :

أمَا نَشأتْ مِنه سُحبُ النَّدى   سَواكبَ تهْمي، وكانتْ جهَامَا ؟[2].

ومما قيل في المدح :

قـومٌ يـوالفُ سِيماهم طهَارتهم   كأنَّهم بِطبَاع المزنِ قدْ طَبَعُوا [3].

تطلع الشاعر إلى بياض المزن في السماء، فجعلها رمزاً للطهارة والنقاء، فهي بذاتها نقية، وإذا أصابت أي شيء على الأرض طهرته، ونقته.

ومما قيل في حسن الطلة :

إذَا ما اِقتَحَمتَ الوَغى دارِعــــاً   وَقَنَّعـــتَ وَجهَكَ بالمِغفَــــرِ
حَسِبنا مُحَيّاكَ شَمسَ الضُحــى   عَلَيها سَحــــابٌ مِن العَنبَرِ [4].

وكذلك قيل في الكرم والعطاء :

فَافزَعْ إلَى قَاضِي الجَماعَةِ، رَهْبَةً   تَضعِ العَنانَ بخيرِ رَاحةِ سَائسِ

(١) ديوان ابن حمديس ص ٤٦٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٥٤ .
(٣) ديوان ابن اللبانة ص ٩٢ .
(٤) ديوان ابن عباد ص ١٧ .

و اسْتسقِ مِنهُ إنْ ظَمئتَ غَمامةً   يَخضَرّ عَنها كلُّ عُودٍ يَابِسِ [1].

وقد قيل في الشجاعة:

فتىً يَستطعِمُ البَيضَ المُواضِي   ويَستَسقِي اللهَاذِم لَا السَّحابَا[2].

لم يقف الشعراء على المدح بالسحاب فحسب، وإنما لهم مراثي لأصحاب فارقوهم، وأحباب لم ينسوهم، استغلوا فيها السحاب لبيان قدر فقيدهم الغالي :

دَعِ الدّهرُ يَفجعْ بالذّخائرِ أهلَهُ   فما لنفيسٍ، مُذ طواكَ الرّدى، قدرُ
تَهُونُ الرّزَايا بعَدُ، وهيَ جَلِيلَةٌ   ويُعرَفُ، مُذْ فارَقْتَنَا، الحَادثُ النُّكرُ
فقدْناكَ فِقْدانَ السّحابَة، لم يَزلْ   لها أثرٌ يثني بهِ السّهلُ والوعرُ
مسَاعيكَ حُليٌ لليّالي مُرصَّعٌ   وذكْرُكَ، في أردَانِ أيّامِها، عِطرُ [3].

فالمصائب تهون، وحوادث الدهر تصغر أمام وفاة المعتضد، وإن كانت عظيمة كالجبال، فما المعتضد إلى رحمة أنزلت على الأرض، كقطر السحاب، وإن لم يصب مطرها الأرض في كل حين؛ لكن يبقى أثرها واضحاً جلياً على المعمورة، فأعماله تبقى خالدة عبر الأيام، وذكره يعطر صفحات التاريخ.

وتبقى الذكريات محفوظة بين الأصحاب الأوفياء، والوصل يبقى سلكه موصولاً مهما طال الزمان، فهذا ابن اللبانة يزور المعتمد في المنفى، ويقول :

وإذَا مَا الهِلالُ غَابَ بِغيــــــــمٍ   لمْ يكُنْ ذاكَ المغِيبُ انكسَافَــــــا
إنَّمـا أنتَ درّةٌ للمَعـــــــــالي   ركّبَ الدَّهرُ فَوقهَا أصْدافَـــــا [4].

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٢٢٨ .
(٢) ديوان ابن حمديس ص ١٤ .
(٣) ديوان ابن زيدون ص ١١٨ .
(٤) ديوان ابن اللبانة ص ٩٤ .

إن جمال تلك الطبيعة الأندلسية جعلت الشعراء يمثلونها في كل أغراضهم، فقد أصبغوها على مدائحهم وغزلهم، فأحبوا شمسها الصافية، وسمائها الملبدة بالغيوم، والبرق المضيء، والرعد المرن، وجبال الأندلس الشاهقة، وأنهارها الجارية، وأشجارها النضرة المكتسية بالثمار، وبتأملهم لجمال طبيعتهم جعلوا منها صفات لمفاتن الحسان اللائي أسرنّ تفكيرهم، وأسهرنّ عيونهم :

مَتى أبُثّكِ مَـــا بي يا راحَـــتي وعذابـــــي؟
مَتَى يَنُوبُ لِسَـــاني في شَرْحِـــه، عن كتابي؟
اللَّهُ يَعْلَـــــــمُ أنّي أصْبَحْتُ فِيكِ لِمّا بـــــــي
فلا يطيبُ طعامـــــي وَلا يَسُـــــــــوغُ شَرَابي
يـــــا فِتْنَةَ المُتَقَـــرّي وحجّةَ المتصـــــــــابي
الشّمسُ أنتِ، تـــــوارَتْ عن ناظـــــرِي، بالحجابِ
ما البَدْرُ، شَفّ سَنَـــاهُ عَلى رَقِيـــقِ السّحَابِ،
إلاّ كوجْهِكِ، لمّا أضاء تحتَ النّقـــابِ (١).

فيد الأيام قد نقشت على جبين المحبوب ما أحدثته مرارة الانتظار، وما آل إليه جسمه من سهر الليالي الطوال، متلهفاً إلى شوق اللقاء، وكل ما جرى له لا يبين جل ما أصابه، فيتمنى أن ينوب لسانه؛ ليتحدث عما جرى لحاله، فلا طعام يطيب له، ولا شراب يسوغ طعمه، حتى تقر عينه برؤيتها، فالبدر هي، إلا أنه قد حُجب نوره بالسحاب، وهي حجبت محاسنها بالنقاب، وقد تجلى نورهم من خلف الحجاب، ليفصح عن جمالها.

لقد نظر الشعراء إلى السحاب، وتفكروا بما فيه من عجيب صنع، وبديع إتقان، فتأتي السحب في مجموعات، وتجتمع في السماء، لتقرع طبول رعدها، وترسل سوط برقها، لتطلق وابلاً من القطر على الأرض، فقد رأى الشعراء في السماء الجيش الذي لا يقهر بتجمعه المهيب، وبشكله المخيف، يقول ابن زيدون مشبه الجيش بالغيم :

---

(١) ديوان ابن زيدون ص ٢٢ .

غدَا بخميسٍ، يقسِمُ الغيمُ أنّهُ لأحفَلُ منها، مكفهرّاً، وأكثفُ
هوَ الغَيمُ من زُرْقِ الأسِنّةِ بَرْقُهُ وللطّبْلِ رعدٌ، في نواحيهِ، يقصِفُ [1].

أصبح بين فرق جيشه الخمس، وبين أعداد الجنود الهائلة، التي ضارعت الغيوم بكثافتها، فكأنهم سحابة سوداء من ارتصاص الجنود وما عليهم من عتاد ودروع سوداء، وكأن سناء البرق يلمع من رماحهم، وضجيج طبول المعركة الرعد المدوي الذي يقصفهم، ويخوف الأعداء بصوته.

وقد جعل ابن زيدون من لواء المعركة غمامة تظلهم في قصيدة يمدح بها المعتضد بن عباد:

مَلِكٌ، إذا ما اخْتالَ غُرّةُ فَيْلَقٍ قدْ أمطيَتْ، عقبانَهُ، الآسادُ
أسدٌ، فرائسُها الفوارسُ في الوغَى لكِنْ بَرَاثِنُها، هُناكَ، صِعادُ
خِلْتُ اللّواء غَمامَةً في ظِلّها قَمَرٌ، بِغُرّتِهِ السّنَا الوَقّادُ
شَيْحانُ مُنْغَمِسُ السّنانِ مِن العِدا في النّقعِ، حَيثُ تغلغلُ الأحقَادُ [2].

فخيله العقبان في طيرانها، وسرعتها جريها، وجنوده الأُسد الضواري تقطع أعداءها بمخالبها الرماح، ومتى انغمست رماحهم، فهي لا تخطئ مواطن الأحقاد، وهي القلوب، وهؤلاء الجنود قد ألتفوا حول اللواء العظيم، الذي يخاله الرائي من بعيد سحابة من عظيم حجمه، ولا نجد معركة من دون التحام جند، وسرعة عدو، وتطاير للنقع، وسيلان لنجيع الجرحى، وتناثر لأشلاء القتلى، يقول ابن حمديس :

جَحفلٌ صُبْحُهُ مِن النَّقع لَيلٌ يَضحكُ المَوتُ فِيه وهُو بسُورُ
تَضعُ البَيضُ مِنهُ سودَ المَنايا بِنكاحِ الحُروبِ وهِي ذُكُورُ
وكأنَّ القِتامَ فِيها غَمامٌ بِنجِيعٍ مِن البرُوقِ مَطيرُ [3].

---

(١) ديوان ابن زيدون ص ١٩٩.
(٢) المرجع السابق ص ٨٢.
(٣) ديوان ابن حمديس ص ٢٤٦ .

من كثرة النقع الذي أثير من أرض المعركة تبدل حال النهار ليلاً، حتى حل القتام عليهم، فكأنه غمامة قد غشيتهم، فتضرب ببرق السيوف والرماح، وتمطر من تحتها بنجيع القتلى.

عُني العرب بالسحاب، ودخول الفصول وخروجها، وموسم نزول الأمطار، استعداداً لزائرهم الذي يحيي المحول، ويسقي الزروع، الذي يبخل عليهم ببقائه، فلا يأتيهم إلا أياما معدودة، ثم ينقشع عن سمائهم، لذلك اهتموا به، ورصدوا أدق تفاصيله، فهو مصدر بقائهم، ومعيشتهم الوحيد في جزيرة العرب، ومن هذا الاهتمام الذي حظي به السحاب عند المشارقة، انطلق شعراء الأندلس منه على الرغم من كثرة أمطارهم، وتنوع مصادر المياه عندهم كالأنهار، والجداول، والعيون، والثلوج الذائبة،... فقد اهتموا بشكل السحاب وتنوع أسمائه، فهذا ابن اللبانة يذكر المزن وهي "السحاب يحمل الماء [(١)]" في قوله :

وإنّـــــي وإيّـاه لمـــــزنٌ وَروضــــةٌ   يُبـاكِرني سُـقياً وأَزكُو لهُ غَـرسَــــا
صَفا بينَنا مِن خَالصِ الوُدّ جَوهــرٌ   غَلبنَا بِه فِي نُور جَوهَرهَا الشَّمسَــــا [(٢)].

جعل الشاعر من نفسه الروض المثمر، الذي يفيد فيه العطاء، فهو ينتفع من مطر ناصر الدولة، فأعطيات ممدوحه في الأرض الخصبة، وليست في قاع يمسك الماء، فلا ينبت الزرع، ولا يسقي الأرض.

ومن أسماء السحاب التي ذكروها في أشعارهم الدِّيمة، وهي : "المطر يطول زمانه في سكون[(٣)]"، قال ابن عباد :

أَهْلاً بِكُم صَحِبتكم نَحْويَ الدِيَمُ   إنْ كانَ لمْ يَتَبَحَّح لِي بِكُم حُلُمُ. [(٤)]

وكذلك قال ابن اللبانة في مدح ناصر الدولة :

---

(١) المعجم الوسيط مادة مزن ص ٩٠١ .
(٢) ديوان ابن اللبانة ص ٧٩ .
(٣) المعجم الوسيط مادة دوم ص ٣١٦ .
(٤) ديوان ابن عباد ص ٦٠.

وقِبلَتي نَاصِر شَرعَ العُلا فَوجهُه وجْهُ الهُدى فِي البِطَاحِ
الـــدِّيمـــةُ الوَطفَـــــاء يَوْم النَّـــدى والأَسَـــدُ البَاسِلُ يوْم الْكِفَـــــــاحِ [1].

فذيول السحابه قد تدلت، لتسقي من مرت عليهم، فهو الكريمٌ المعطاء دائم الجود والكرم، لذلك وصفه بالديمة، وهو في الشجاعة أسد مقدام في يوم الوغى.

ومما قيل في وصف الكرم، وجعله كالديم، قول ابن حمديس :

ذُو أَيادٍ بِأيادٍ وَصلَتْ كتَوالي دِيَمٍ بَعْدَ دِيمِ
وإذَا مَا بَخِلَ الغَيمُ سَخا وإذَا مَا عَبسَ الدَّهرُ بسمِ
تَنتجِي السَّاداتُ عزّاً فَإذا قَرُبَتْ مِن عِنده صَارتْ خَدمِ [2].

فكرمه يكاد أن يصل بعضه بعضاً، كتوالي الديم التي تستمر أيام معدودة، فلا تكاد تنقشع إلا وتأتي غيرها.

ومن أسماء السحاب التي ذكروها في أشعارهم السواري، وهي : "السحابة التي تسري ليلاً[3]"، ومفردها سارية، قال فيها ابن حمديس :

غيداءُ يُسْقِمُ بالملاحةِ دَلُّهَا جسمَ العميد، كذاك دلّ الغيدِ
كَتَبَتْ لها وصلاً إشارةُ ناظري فمحاهُ ناظرُ طرفها بصدودِ
ولقدْ يَهيجُ لِيَ البكاءَ صَبابةً شَادٍ مطوَّقُ آلةِ التّغرِيدِ
باتتْ سَواري الطلّ تضربُ ريشهُ بجَواهرٍ لم تَدْرِ سِلْكَ فريدِ [4].

فذلكم الجمال قد أسر الشاعر، وأثار إعجابه، وتغزل بمفاتنها، ليرسل طرفه طالباً لوصالها،

---

(١) ديوان ابن اللبانة ص ٤٥ .
(٢) ديوان ابن حمديس ص ٤٤٠.
(٣) لسان العرب لابن منظور مادة (سرا) ص ١٧٩ ج ٧ .
(٤) ديوان ابن حمديس ص ١٢٩ .

فلم يجد إلا الصدود منها، ليهيج شوقه وعشقه، وتنهمر دموعه، ليصبح كالطير الذي ضربت ريشه قطرات المطر، فلا يستطيع الطيران.

ولقد تعددت أسماء الغيم، وأوصافه عند شعراء الأندلس، فلقد عرفوا الدجن : وهي إلباسُ الغيمِ السماءَ، والدجنة من الغيم : المطبقة تطبيقاً [(١)]، ولقد وقف ابن حمديس متأملاً لها، فوظفها في مدحه :

إذَا أطفَأ الدُّجنُ الكَواكبَ أسْرجُوا   وجُوهاً بها تُهدى المسَالكَ ضُلاّلُ[(٢)].

وجوههم مشرقة مضيئة بنور الإيمان، والشرف، والكرم، والشجاعة، إذا أظلمت عليهم النكبات اهتدوا بنور وجوههم. وقال في موقف آخر :

كأنَّكَ مِنها ناظراً إنْ تبسّمتْ   إلى بَرَدٍ تجلُوه بَارقةُ الدّجْنِ [(٣)].

ففي ابتسامتها عودة للحياة، وبقاء للأمل، فمبسمها أبيض كالبرد المشرق البراق اللامع، الذي ترسله سحاب الدجن في ظلمة الليل، لتبث الحياة، وتنشر السعادة على وجه الأرض.

توثقة الصلة بين الشعراء والطبيعة، وتطلع شعراء الأندلس لجمالها، وبحثوا في طبيعتهم الخلابة عن الجمال، فوجدوه في انتظام بساتينهم ورياضهم، والأنهار التي تشق أرضهم، والبساط الأخضر يفترش على سهولهم، والأشجار تظلهم، وتلتف من حولهم، والغيوم تصطف في سمائهم، لتنثر قطرها درراً على الأغصان، فتُلطّف الجو، وتزين السماء، فقد أتى كتاب إلى ابن حمديس من ابن عمته، فشبه حُسنه بجمال الروض، الذي اكتمال جماله بقطع السحاب :

أتاني كتابٌ منك نَمّقْتَ خطّهُ   كما دبّجَ الروضَ انسجامٌ غمامِ
تَناولتُهُ مِن كفّ مُهْدٍ كأنَّما   بردتُ بعذبِ الماء حَرَّ أَوامِ
مَشَى فِي ضَميري بالسُّرورِ كَما مشَى   صَلاحٌ شِفاءٍ في فِساد سِقامِ

---

(١) معجم الصحاح مادة (دجن) ص ٣٣٢ .
(٢) ديوان ابن حمديس ص ٣٥٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٩٣.

كأنّ كتَابي بِاليَمينِ أخذْتُهُ وقِيل لِيَ : ادخلْ جَنّةً بسَلامِ [(١)].

سره الكتاب الذي أتاه من ابن عمته، حيث يطلب فيه من ابن حمديس العودة إلى دياره، وموطنه صقلية، فشبه الشاعر الكتاب الذي جاءه بالروض الذي طاب منظره بانسجام الغمام. وفي موقف آخر يرسم لنا الشاعر صورة لضوء الشمس، وهو يشع من فتحات السحاب، ليبهج الروض بضيائه :

ومَا رَوضةٌ حيّ ثَرى أقْحُوانِها يُضاحِكُها فِي الغَيم سِنّ مِن الضِّحِ [(٢)].

ومن صور السحاب في السماء ما صورة ابن خفاجة للمقلة الدامعة الوالهة، التي تنتظر عشيقها بضوء الفجر الذي يختبئ خلف السحاب :

والفجرُ ينظرُ مِن وَراءِ غَمامةٍ عَن مُقلَةٍ كُحِلَتْ بِها زَرقـاءِ [(٣)].

تطلع الشعراء إلى الأفق، فشاهدوا البدر محجوب بالغمام، فتذكروا أصحاب لهم قد حجبهم المرض عن رؤية الناس، حيث قال ابن حمديس :

مَرضٌ منكَ قبّلَ الكفّ شَوقاً ثُمّ ولّى بخَجلةٍ واحْتشَامِ
حَجبَ الغَيمُ مِنهُ فِي الأُفقِ بَدراً وانْجَلى عَنه ضِياؤهُ بسَلامِ [(٤)].

فكأن المرض غيم قد حجب صاحبهم البدر عنهم، إلا أنه ما لبث أن انقشع عنه، وعاد إليه نور بشره.

لقد اهتم العرب بالدمع، وماله من تأثير قوي على مشاعر الناس، فرب دمعةٍ انحدرت على الخد، كانت أبلغ من ألف كلمة، فحاول الشعراء التعبير عن مدى حزنهم بالدمع الجاري، لذلك

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٤٣٣.

(٢) الضح : الضوء أو ما تطلع عليها الشمس .، ديوان ابن حمديس ص ٧٨ .

(٣) ديوان ابن خفاجة ص ١٥٤.

(٤) ديوان ابن حمديس ص ٤٦٧ .

بالغوا في إيصال مشاعرهم؛ حتى شبهوا الدمع بالنهر الجاري، والسيل العرم، وبالسحاب الذي يحمل معه القطر الكثير، لأنه أقرب حالاً إلى الدمع، فالدمع تتساقط قطراته من مقلة العين على الخد، كما يتساقط القطر من السحاب إلى الأرض.

إنَّ أكثر ما يعانيه الإنسان الغربة، والوحدة، والبعد عن الأهل والوطن، فإذا حل عليه الليل حن لأحبته، واشتاق لوصلهم، وأخذ يسكب الدمع شوقاً للقائهم، فقد اشتاق ابن حمديس إلى موطنه، فدعا السحاب ليملأها بدموعه لتأخذها إلى ديار أحبته، وتوصل سلامه، وترويهم بأشواقه، وحنينه :

ويَا ريحُ إمّا مريتِ الحَيا وروّيْتِ منه الرُّبوعَ الظماءَ
فسُوقِي إليّ جِهامَ السَّحابِ لأملاهنّ مِن الدَّمعِ مَاءَ
ويَسْقي بُكائِي ربعَ الصَّبا فَما زالَ فِي المحَلِ يسْقى البُكاءَ [(١)].

لقد هام الشاعر بالطبيعة حتى صار بينه وبينها صحبة، يلجأ لها في أفراحه وأحزانه، فالشاعر يطلب من المزن بعد أن ينتهي ما فيها من المطر، أن تمر عليه ليملأها من دموعه، فتسقي ربعاً حن للقائهم.

وجعل الشعراء من البكاء نمطاً يعبرون به عن عظيم حزنهم الصادق، وخاصة إذا كان في الرثاء، لارتباطه بأعماق المشاعر، فتحترق العيون باكية بدموع الفراق، ومأساة الفقد القاسية على القلب، يقول ابن اللبانة في رثاء أبناء المعتمد :

تَبكِي السَّماءُ بِمزنٍ رَائحٍ غَـــــادِي عَلى البَهالِيلِ مِن أبنَاء عَبَّـــــــادِ [(٢)].

ومما قاله ابن الحداد في الرثاء، مستعيناً بالمزن للدلالة على عيونه الباكيات، ومستدلاً بها

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٤ .

(٢) ديوان ابن عباد ص ٦٨ .

على عظيم الفقد. يقول فيها :

أعَقيلةُ الأمْلاكِ والملكِ الذَّي لَبِسَ السَّنَاءُ به جَلاَبِيبَ السَّنَا
فَسَقَاكِ مِثْلَ نَدَاكِ أَوْ كَدُمُوعِنَا مُزْنٌ يُعِيدُ ثَرَاكِ رَوْضاً مُحْزَنَا
إنْ كنتَ متَّ فذا ابنكَ الملك الذَّي يُحْيِي البَرَايَا والعَطَايَا والمُنَى [1].

قال الشاعر هذه الأبيات في رثاء والدة المعتصم بن صمادح، ويدعو الله- تبارك وتعالى- لها بأن يسقي قبرها بالخير العظيم بمثل ما كانت عليه من كرم في الدنيا، أو أن يسقيها من دموعهم التي سالت على فراقها، لتزهر ثراها، ويثمر روضها.

وقال ابن عباد يندب ابنيه:

يا غَيمُ عَيني أَقــــوى مِنك تَهتانــــــا أَبكي لِحُزني وَمـــــا حُمّلــــتَ أَحزانــــا
وَنارُ بَرقِكَ تَخبـــــو إِثرَ وَقدِتهـــــــا وَنارُ قَلبي تَبقــــى الدَهــــرَ بُركانــــا
نارٌ وَماءٌ صَميــمُ القَلـــبِ أَصلُهُمــــا مَتى حَــــوى القَلــبُ نيرانا وَطوفانــــا
ضِدّان أَلَّفَ صَـــرفُ الدَهرِ بَينَهُمــــا لَقَـــــد تَلَــوّن فـي الدهــــرِ أَلوانــــا
بَكيتُ فَتحـــاً فَإِذ رُمــــــتُ سَلوَتهُ ثَوى يَزيدُ فَــزادَ القَلـــبَ نيرانــــا[2].

إنَّ الحزن ظاهر وجلي في هذا النص الذي قاله ابن عباد في رثاء ابنيه (الفتح ويزيد)، فقد صاغ كلماته بألم الفراق، وحرارة الشوق، فهو يناجي الغيم، ويسر لها بمكنون قلبه، وما ذرفت عيونه أكثر مما جاد به السحاب من قطر، فهي تمطر ، ثم تختفي، لكن هو لا يزال يبكيهم، وسيبقى يبكيهم، ومن الشعراء من يشكي قسوة القلب، وقِلة دمع عينه، فهذا أبو إسحاق الإلبيري يقول في قسوة القلب :

---

(١) ديوان ابن الحداد ص ٢٨٣ .
(٢) ديوان ابن عباد ص ٦٩ .

أَأحُورُ عن قَصدِي وَقَد بَرِحَ الخَفا وَوَقَفتُ مِن عُمرِي القَصيرِ عَلى شَفا
وأَرَى شُؤونَ العَينِ تُمسِكُ ماءَها ولَقَبْلَ ما حَكَتِ السحابَ الوُكَّفا
وأخالُ ذاكَ لِعَبرةٍ عَرَضَت لها من قَسوَةٍ في القَلبِ أشبَهتِ الصَّفا
ولَقَلَّ لي طُولُ البُكاءِ لِهَفوَتي فَلَرُبَّما شَفَعَ البُكاءُ لِمَن هَفا [١].

فهنا نجد أن الشاعر قد شبه دموع العين بالسحاب المتدفق، ولكنه شكا حاله، وقسوة قلبه عن التوبة.

---

(١) ديوان أبي إسحاق الإلبيري ص ٥١ .

المطر :

لقد تفكر الأدباء في القطر الذي ينزل من السماء، فجعلوا منه مادة تنشر الحياة على وجه المعمورة، وتبث الفرح والسعادة، وتطهر الكون، فالمطر نعمة من الله- سبحانه وتعالى- على خلقه، ينشر به رحمته، ويحيي به الأرض الموات، وللمطر رابط وثيق الصلة في حياة العربي، فهو سبيلهم للعيش والحياة، وبحاجة الأديب للمطر تظهر حاجته للكتابة عن المطر، فالمطر يهز وجدان الشاعر، ويحرك مشاعره، ويزيد دهشته، ويوقظ حنينه إلى كل جميل، لذلك أحبوا مشاهدة المطر، وتساقط قطره على الرياض، فوصفوا المطر، ومزجوا أوصافه بمشاعرهم وأحاسيسهم .قال ابن خفاجة :

مِن لَيلَةٍ للرّعدِ فيها صَرخَةٌ   لا تُستَطابُ، وللحَيا إيقاعُ
خلعَت عليّ بها رداءَ غمامةٍ   ريحٌ تهلهُلُهُ هناك صَنَاعُ
والصّبحُ قد صَدَعَ الظّلامَ، كأنّهُ   وجه وَضِيءٌ شفَّ عنهُ قناعُ
فَرَفَلتُ في سَمَلِ الدّجى، وكأنّما   قزعُ السحابِ بجانبيهِ رقاعُ [(1)].

تلك الاستهلالة خفاجية معهودة من أبي إسحاق، يصف فيها ليلةً مطيرة، قد أفزعه فيها صوت الرعد، الذي تناغم مع انهمار القطر بإقاع خاص، تضرب أوتاره على قريحة الشاعر، فيغني لسان الشاعر على ما تأمل من مشهد المطر ، وهو ينزل من بين الغمام. وهذا ابن عبادة القزاز يعيش لحظات جميلة بين أحضان الطبيعة التي تساقط عليها قطر السماء كاللؤلؤ. يقول فيها :

ألُؤلُؤٌ دمعُ هذا الغيثِ أم نُقَطُ   ما كانَ أحسنَهُ لو كانَ يُلتقطُ
بَين السَّحابِ وبَين البَرقِ مَلحمةٌ   قَعاقِعٌ وظُبًى في الجوِّ تُخترطُ
والرِّيحُ تحملُ أنفاساً مصعَّدَةً   مثلَ العبير بماء الورد يختلطُ

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٢٢٤ .

والرَّوضُ ينشرُ من ألوانه زَهَراً كما تنشَّرُ بعد الطيّة البُسُطُ [(١)].

وهذا ابن حمديس يصف سرية خرجت من بلاد المسلمين إلى الروم، وكان خروجها عقب غيث من زمن الشتاء ، يقول فيها :

ومُسبلةٍ دَمعَاً يَســـــــــوغُ عذوبةً على أنَّ دَمع المقْلتينِ أُجَاجُ
مَرَتها صَباهَا حِين درَّت فَأرضعتْ بَسائطَ، مِن أخْلاقهَا، وفِجاجُ
تخرقُ فِيها لمعُ برقٍ كأنَّما يَشبّ ويَخبو مِن سَناه سِراجُ [(٢)].

ففي هذه الأبيات يجعل الشاعر السحاب كضرع شاة حلوب، يتدفق لبنها، بلمسة خفيفة من يد حانية، وتلك الرياح تهب فتلامس السحاب، لتستدر ماءها، فينهمر قطرها لتحيا به الأرض، ومن ثم شبه ضوء البرق بنور السراج وهو يخترق الظلام الدامس، فعندما يشتعل فتيله يضيء المكان، ثم مايلبث أن تلعب به الريح فيختفي نوره، ثم ينير مرة أخرى.

ولا يبتعد الشاعر كثيراً عن معنى الأبيات السابقة، حيث تسيطر عليه حياة البادية والرعي، فيرى الرياح والقطر، ومنافعه في ضرع الشاة الحلوب، ففي موقف آخر يشبه السحاب الممطر بضرع الشاة الحلوب، الذي يستدر مابها بأنفاس رضيعها، كما تسوق الرياح السحاب، لتستدر قطرها :

وَمُجَلْجِلٍ دَرّتْ بأنْفَاسِ الصّبا وهناً لقضباءِ النَّباتِ ضُروعُهُ[(٣)].

فهنيئاً لهذه الأغصان ما درت عليها السحاب، وهنيئاً لهذه البساتين ما تساقط عليها من ضروع السماء؛ ليتساقط نعيماً على الرياض. وابن حمديس في موقف آخر يصف يوماً مطيراً قد

---

(١) تحفة القادم ،أبو عبد الله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي ،تعليق إحسان عباس ،دار الغرب الإسلامية، بيروت –لبنان ،الطبعة الأولى ،١٩٨٧ م ،ص ١٣٦.
(٢) ديوان ابن حمديس ص ٧٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٣١٣ .

طاب جوه، وانهل قطره على البسيطة، وانتظم على الروض كعقد اللؤلؤ. يقول فيها :

يَومٌ كأنَّ القَطْرَ فيهِ لؤلؤٌ يَنْظِمِ للرّوْضِ عُقوداً وَوُشَـــــــحْ
يَقدحُ ناراً من زِنادِ بَرْقِهِ ويطفىء الغيثَ سَريعاً مَا قـــــــدحْ
لمَّا جَرَتْ فيهِ الصِّبا عَليَلةً رقّ الهَواءُ فِيه للنَّفس وَصـــــــحْ [1].

فنرى هنا بأن أحاسيس الشاعر قد امتزجت بين الحقيقة الواقعة والخيال الواسع، فالقطر ينزل من السماء وهو يلمع بياضاً ونقاءً، كأنه عقد من الدر قد انقطع سلكه؛ فتناثر على جيد الأرض، ليرفع الشاعر بصره إلى السماء مرة أخرى، فيشاهد قدح البرق بين الغيوم؛ لتضيء الأرض بنارها، فما تلبث غير يسير حتى يطفئ الغيث بقطره شرر ذلك الرعد، ويهب النسيم العليل؛ فيلامس النسيم في تلك اللحظات قطرات الندى من على الأزهار والأغصان عقب المطر، ليحمل النسيم عبقها بكل لطف ولين في الأرجاء، فيعم النعيم، وتنتشر السعادة والفرح.

ومن الظواهر الطبيعية التي تأتي مع السحاب والمطر قوس قزح، الذي وصفه الشاعر وهو في مجلس أنس :

بَاكرتُها واللَّيلُ فِيـــــه حُشاشَـــــةٌ يَسْتلّهَـــــا بالرِّفـــقِ مِنـــه المَغـــربُ
والجوّ أقبـــلَ في تَــــراكبِ مُزنهِ قُـــــزحٌ بِعطفهِ قوسِـــــهِ يَتنكّبُ[2].

أقبل عليهم الغسق، والليل يبسط جناحه في الأفق، والسماء تمطر عليهم، لترسم قطراتها قوس قزح في الفضاء المتسع على الباقي من ضوء الشمس المنكسر، لترسل ألوان الطيف عبر الحصون والمدن.

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٨٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٤٢ .

ومن ما قيل في قوس قزح، قول ابن بليطة الأندلسي[١]:

ولاحَ فِي الجَو قَوسُ الجَوِ مُكتَسِيَاً		مِن كلِّ لَونٍ بَأذنَابِ الطَواويسِـــــي[٢].

من أثر المطر يتشكل في الجو قوس قزح، وتعددت ألوان الطيف في أفق السماء، فشبهها الشاعر بريش ذنب طائر الطاووس، الذي ينشر ذنبه كالطاق، وهو حسن الشكل، وجميل المنظر، وكثير الألوان.

إننا إذا بحثنا في صميم المطر، لم نجده فقط ذلك القطر الذي ينزل من السماء إلى الأرض، وإنما هو في عين الشاعر أكبر من ذلك بكثير، فهذا المطر هو الحب، هو العشق، هو العذاب، هو الموت، هو الحنين، هو الكرم، هو الدمع، هو الرياض الخضر، هو مجلس الأنس، هو زمن التأمل والتفكر، وهذا ابن خفاجة يصف مجلس، قد زارهم فيه الغمام ليسقي ساحاتهم :

سَقيًا لِيومٍ قَدْ أَنَختُ بسَرحَةٍ[٣]		رَيّا تُلاعِبُهَــا الرِّيـــــاحُ فتلعبُ
سَكْرَى يُغنّيها الحَمامُ فَتَنثَني		طرباً ويسقيها الغمــــامُ فَتَشربُ
نلهُو فَتُرفَعُ للشَّبِيبةِ رايـــــةٌ		فِيهِ ويُســرجُ للتَّصــــابي مركبُ
ما زالَ ينعطِفُ الخليجُ مجـــرةً		فيـــه ويطلُعُ للسُـــــلَافَةِ كَوكَبُ
ويكرُّ مـــــن كَأسِ المُدامةِ أشقرٌ		يجــري ويصدُرُ لِلزُجَــاجَة أَشهَبُ
والرَّوضُ وجــــهٌ أزهرٌ والظلُ فَرعٌ		أسْــــودٌ والمــــاءُ ثَغرٌ أشْنبُ[٤].

في هذا المحفل المليء بالبهجة والسرور، الذي يعيشه الشاعر بين جنبات الطبيعة، يظهر

---

(١) الأسعد ابن بليطة الأندلسي، جاء في تعريفه في (الخريدة)أن معظم أشعاره في بني صمادح، وبنو صمادح من ملوك الطوائف .

(٢) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، علي بن ظافر الأزدي المصري تحقيق : محمد زغلول سلام ،مصطفى الصاوي الجويني ،دار المعارف، مصر، ص ٤٧ .

(٣) السَرحُ :شجر عظام طوال، معجم الصحاح مادة (سرح) ص ٤٨٧ .

(٤) ديوان ابن خفاجة ص ٢٨٩ .

عليه مدى تعلقه بالطبيعة؛ فيتمنى الشاعر لو دام ذلك اليوم لما له من ذكريات جميلة في نفسه، فقد استراح فيه تحت ظل الدوح، والرياح تلاعب الأغصان، والنسيم العليل ينعشه، وحضر عنده كل ما يحتاج إليه الشاعر من شراب يُسِكر، وطير يغرد، وغمامة تسقي، ونسيم بارد، وحدائق مزهرة، والظل المنتشر الذي قد كسى المكان بهدوئه، والماء العذب شرابه كأنه من ريق الحسان. ..، فاجتمعت للشاعر في ذلك الروض الندي صفات الجمال، وخصال الكمال، ونلمس ذلك أيضاً في قول ابن حمديس، وهو يصف روضاً قد سقاه الغمام بقطره :

جنَةٌ مَجّتِ الحيا إذا سقاها   مُصلِحٌ من غَمَامِهِ غيرُ مُفسدِ
قدْ لَبسنَا غَلائلَ الظلّ فِيها   مُعْلَماتٍ مِن الشُّعاعِ بِعسجَدِ
ورَأينَــــــــا نَارنجهَـــــا[1] فِي غُصُونِ   هَـــــــزّتِ الرّيحُ خُضْرَهـــا فَهي مُيّدِ [2].

فالروض لا يطيب جماله، ولا يزهر نواره، إلا إذا كان المطر صاحباً وفياً لذلك الروض، فيزوره باستمرار، ولا يقطعه، وكان السحاب مصلحاً لحال الروض، نافعاً لثماره، ولم يكن ما جاءه من مطر وابل شديد، يجرف الأرض معه، ويتلف الأشجار، وينزع الثمار، فطابت جنتهم، وطاب ساقيها، ليستريحوا بظل روضهم الذي ينيره شعاع الشمس من بين أوراق الأشجار، ليلامس مجلسهم، ويزينه بالذهب الخالص، وقد امتلأت الأشجار بثمار النارنج الثقيلة، ليلاعبها الريح فتتمايل راقصة، ومما قيل في المطر من الحكم ما قاله ابن اللبانة:

ولَولاَ مَقـــــــاميَ بَيَـــــن العُــــــــداةِ   لمَا كُنتُ أؤثرُ عَنــــــــكَ الرَّحيــــــــلَا
ومَـــــــن بلّهُ الغيثُ فِي بَطــــــــنِ وادِ   وبَــــــــاتَ فَــــــلا يأَمنَـــــنَّ السّيولَا[3].

---

(١) النارنج: شجرة مثمرة من الفصيلة السذابية دائمة الخضرة تسمو بضعة أمتار أوراقها جلدية خضر لامعة لها رائحة عطرية وأزهارها بيض عبقة الرائحة تظهر في الربيع والثمرة لبية تعرف كذلك بالنارنج عصارتها حمضية مرة وتستعمل أزهارها في صنع ماء الزهر وفي زيت طيار يستعمل في العطور وقشرة الثمرة تستعمل دواء أو في عمل المربيات . المعجم الوسيط ص ٩١٣.

(٢) ديوان ابن حمديس ص ١٢٥ .

(٣) ديوان ابن اللبانة ص ١١١ .

لا يجلس الحكيم في وادي، وقد أصابته فيه قطرات المطر، فلا يأمن على نفسه الهلاك والغرق، ولا يمكث العاقل عند حاكم، وقد كثر الوشاة من حوله، حتى ولو كثرة عليه العطايا، فلا يأمن على نفسه سخطه وعذابه. وهذا ابن خفاجة ينتظر تحول المطر إلى عذاب أليم بما فعلته أيديهم :

أَلاَ نَسَخَ اللهُ القِطَارَ حِجارَةً ... تَصُوبُ عَلَيْناَ والغَمامَ غُمُومَا
وكانَتْ سَماءُ اللهِ لا تُمطِرُ الحَصَى ... لَيَالِيَ كُنّا لا نَطيشُ حُلُومَا
فَلَمَّا تَحَوَّلناَ عَفَارِيتَ شِرَّةٍ ... تَحَوَّلَ شُؤبُوبُ[1] الغمامِ رُجُومَا[2].

فالجزاء من جنس العمل، فلما كانوا عقلاء وعادلين لا تظالم بينهم ولا آثام ،كانت السماء تمطر عليهم القطر المفيد، الذي فيه صلاحهم وصلاح معيشتهم، ولما تحولوا إلى عفاريت قد استطار الشر بينهم، وكثر الفساد فيهم، دعا عليهم الشاعر بأن يتحول قطر السماء اللين إلى حجارة ترجمهم، كأنها الشهب أعدت للشياطين، ولم يكتفِ الشاعر بالعذاب الجسدي، ورأى في شدة جنايتهم أنهم يستحقون العذاب النفسي، الذي ينغص عليهم معيشتهم، بأن تتحول الغمام إلى غموم.

إن الأغراض الشعرية اتصلت اتصالاً وثيقاً بوصف الطبيعة الأندلسية، حتى غدت وعاءً للشعر العربي في الأندلس، فقد جعلوا من جمال طبيعتهم، وما يحبون منها صفات لمن أرادوا مدحه، والتغزل بدماثة أخلاقه، فهذا ابن حمديس يمدح الأمير يحيى بن تميم المعز في كرمه وجوده. يقول فيها :

دُمْ لِلْمعَالي أيُّها الملكُ الذَّي ... أسْدَى الأمَانيَّ مِن يَمينَيْ مُفضَلُ
نِعَمٌ تُنَوِّرُ في الأكفّ كَما سَقى ... عَيْنَ الرِّياضِ حَيَا السَّحابِ المُسْبَلُ[3].

(١) شؤبوب : قليل المطر .
(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٧٥.
(٣) ديوان ابن حمديس ص ٣٨٦ .

فنعمه وعطاياه مثمرة في أهلها كالغيث الصيب النافع، الذي يسقي الأرض، وبه قوام الزرع، وقال أيضاً يمدح الحسن بن علي بن يحيى، ويجعل من كفه الكريمة المعتادة على الجود المزن التي يرتجى منها المطر :

وكفّكَ المزنُ تسْقِي مَن دَنَا ونَأى وليسَ مِن غيرِ مُزْنٍ يَرتجى المَطرُ
بَقيتَ للدِّين والدّنيا وأهْلِهِما وَمُدّ في رتبِ العُليا لكَ العُمرُ[1].

فقد أعطى ممدوحه صفات من الطبيعة التي يتعايشون معها، فسحابة المزن لا تسقى أرضاً دون أرض؛ بل تجود على الكل، فخيرها عام وشامل كعطاء ممدوحه، وقال يمدح أبا الحسن علي بن يحيى :

سَمَا فِي العُلا قَدراً فَأدركَ مَا سَما إليْهِ، وأصْمَى سَهْمُهُ مَا تَهدفَا
سَكوبُ حَيا الكَفينِ لَا نَاضبُ النّدى ولاَ مُخلِفٌ وَعداً إذَا الغَيثُ أخْلفَا
تُريهِ خَفيّاتِ الأُمورِ بَصيرةٌ كأنَّ حِجابَ الغَيبِ عَنها تَكشّفَا [2].

فانظر كيف صور الشاعر كرم علي بن يحيى بأسلوب لطيف، قد أضاف إليه لمسة جديدة زادت من المبالغة في وصف كرم ممدوحة، فممدوحه مستمر في العطاء دائم الجود، لا ينقطع كسحاب المزن التي مهما سقت، فإنها ستنقشع بعد حين، أما ممدوحه فعطاؤه باقي ما بقي على قدر الحياة.

وتظل سيول المدائح التي جعل فيها الغيث ركيزة من الركائز الأساسية في المدح، فهي تتدفق من أفواه شعراء الأندلس من كل حدب وصوب، ونجد ذلك عند ابن عباد وهو يمدح[3] حيث يقول :

الشَمسُ تَخجَلُ مِن جمـــــــالِك فَتَغـــــيبُ مُســــــرِعَةً لـــــذلكْ

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٢٥٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٣١٩ .
(٣) يرجح المحقق أنه قالها في أبيه .

وَالغَيثُ يَحيا أَن يُصــــــــــوبَ   لِما يَـــــراهُ مـــــــــنِ نَــــــوالِكْ
وَالبَــــدرُ يَطلـــــــع ناقِصــــــاً   حَتّى يُتَمّمَ مِــــــن كَمـــــالِكْ [1].

شرع ابن عباد إلى المدح مباشرة في مقطوعته، وقد استغل عناصر الطبيعة المحيطة به لإبراز صفات ومحاسن ممدوحه، من شمس مشرقة، وسحاب ومطر، وبدر مضيء، فالشمس بإشراقها تخجل من أن تبزغ بنورها إذا حضر نور ممدوحه، فتسرع للغروب، والغيث يخجل أن يمطر ويسقي الأرض لما يراه من جوده وكرمه، والبدر لايكتمل نوره إلا بوجه الممدوح المنير، وقد أكثر الشعراء من المدائح، وأبدعوا في استعمال عناصر المطر المختلف، لبيان عظيم الخصال، وحسن المناقب، فهذا ابن حمديس يقول في الكرم :

مَلْكٌ إذا جادَ جادَ الغيثُ مِن يدهِ   فَمسْقَطُ القَطرِ مِنهُ مُنبتُ النَّعمِ [2].

وهذا ابن زيدون يستخدم المزن للدلالة على كرم الممدوح :

كَرَمٌ، كماء المُزْنِ رَاقَ، خِلالَهُ   أدبٌ، كَروضِ الحَزنِ بَاتَ يُجادُ [3].

فالشعراء مختلفون في تعبيرهم عن الكرم والجود، وفي استخدامهم للمعاني الدالة على ذلك، فهذا ابن الحداد يقول :

وأبْدعُوا في صَنيع الجُود و بتدعُوا   فكلَّما سُئِلوا مِن مُعوزٍ سَلأُوا
لولاهُمُ مَا يَصُوْبُ المُزْنُ مُستَهِماً   مَتى رَوَى سُيَّباً منْ وَبلِهِ مَتَأُوا [4].

أراد أن يقول الشاعر أن أهل المعتصم هم أهل نوال وكرم، كلما سألهم الفقراء والمعوزون

---

(١) ديوان ابن عباد ص ٤١ .
(٢) ديوان ابن حمديس ص ٤٥٨ .
(٣) ديوان ابن زيدون ص ٨٤ .
(٤) ديوان ابن الحداد ص ١٣٠ .

أعطوهم، وعجلوا لهم في العطاء، ولولاهم لما تساقط المطر غزيراً على الأرض، فالمزن تحاول أن تجاري أعطياتهم الكثيرة، وهم على إغداقهم على المحتاجين يفوقون المزن، وهي تروي الأرض المحلة.

وأرى أن الشاعر لم يبالغ في وصف كرم ممدوحيه في البيت الأول، حيث جعل كرمهم في الفقراء والمحتاجين، فأهل المعتصم لا يعطون إلا إذا سئلوا،وعطاؤهم لا يكون إلا على من احتاج لهم، فإذا لم تسألهم لم يعطوك شيئاً، ولكنه لو قال مثل ما قال ابن حمديس:

وكَفّكَ المُزنُ تسْقِي مَن دَنَا ونَأى   وليسَ مِن غَيرِ مُزْنٍ يَرتجِي المَطَرُ[(١)].

فجعل الشاعر عطاء ممدوحه في إحسان وإنعام، فهو يعطي من قرب منه ومن بعد، كالمطر لا تسقى أرض دون أرض، فعطاؤه عام شامل. ولا يجتمع البخل مع الشجاعة، ولا الجود مع الجبن، فما أجمل أن تجتمع في الرجل الصفات الحميدة، والخصال العالية الرفيعة، من :كرم، وجود، وشجاعة. يقول ابن خفاجة :

تُسَاجِلُ طَوراً كَفُّهُ الغَيثَ غَادياً   ويَحمِلُ طَوراً دِرعُهُ اللّيثَ عَادِيَا [(٢)].

ومن ما قيل في الكرم والشجاعة :

يَا أيّها المَلِكُ، الّذِي مَا في الملوكِ لهُ عَديلْ
يَا مَاء مُزنٍ، يا شِهابَ دُجنةٍ، يَا ليثَ غِيلْ
يَا مَنْ عَجِبْنَا أنْ يَجُودَ بِمِثْلِهِ، الزّمَنُ البَخِيلْ [(٣)].

ومن ذلك قول ابن حمديس :

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٢٥٢.

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٢٠٠.

(٣) ديوان ابن زيدون ص ٢٥٨.

يَا غيثَ المَحَــــلِ بِلا كَذبٍ وشُجاعَ الحَربِ بِـــلا فَنَدِ [1].

وليس ببعيد عن هذا ما قاله ابن اللبانة في موشحته التي يمدح بها ابن عباد، فجعله الأسد شجاعة، والمطر كرماً. يقول فيها :

قــــدْ أضْــأنَ الأُفقَـــا ومــــلأنَ الطُّرقَـــا

مّلكٌ سَـــامٌ أغرٌ ضَيغمٌ بَــــادي الظُّفرِ غَرسَ النَّاسَ شَجر عَارضَ هَامِي مَطَر

سَـح فِيــه وَرقَـــــــاً فَكَسَاهَــــا وَرقَــــا

رُبَّ لَمَيا الشَّـفتينِ عَانِقتنِي بَعد بَين فَحَكينَا الفِرقَدينِ ودَعونَا مُخلصِينَ

عَــاشِقينَ اعْتنقَــــا رُبَّ لّا تَفترِقَــــــــا . [2]

لقد استخدم الشعراء الدر لموصوفات عديدة، محببة إلى نفوسهم، فهاهم يجعلون الدر في استدارته وجماله وصفاً لحبات القطر المتساقط على طبيعتهم الجميلة، فإذا أمعنا النظر في أشعار شعراء هذا العصر، لفت انتباهنا حب الطبيعة عندهم، وحب مراقبتها، حتى إنهم جسدوها بالصفات الإنسانية لما يحسون منها من حياة، فقد أعطوا ما يعجبهم، ويثير انتباههم من جمال الطبيعة ما يعجبهم من الطبيعة نفسها، فالطبيعة الأندلسية أساس لتشبيهاتهم التي يعقدونها، فنجد أنَّ " شعر الطبيعة في الأندلس يصور لنا تعلق الشعراء ببيئتهم، وتفضيلها على شتات الأرض جميعاً، بعد أن كان خيالهم متعلقاً بالمشرق العربي [3]"، وإذا نظرنا إلى أبيات لابن حمديس، و التي يجعل فيها قطر السماء كاللؤلؤ صفاءً ولمعاناً، فهو يستمتع بجمال يوم غائم، تختلس فيه أشعة الشمس النظر إلى الأرض عبر تلك الغيوم، كأنها امرأة قد تنقبت بنقاب مخافت أن ينكشف وجهها،

(١) ديوان ابن حمديس ص ١٦١.

(٢) جيش التوشيح ص ٦١ .

(٣) شاعر المجد والانكسار ،آمنة منصور، ص ٨٥.

وقد انهمر القطر من السماء كاللآلئ. يقول فيها :

والشَّمسُ مِنها في نِقابِ غَيْمِها مَخافَةً مِن نُورهَا أنْ تُفتَضَحَ
يَومٌ كأنَّ القَطْرَ فيهِ لؤلؤٌ يَنْظمِ للرّوْضِ عُقوداً وَوُشَحَ
يَقدحُ نَاراً من زِنادِ بَرْقِهِ ويُطفىءُ الغَيثُ سَريعاً مَا قَدَحَ[(١)].

فقد جمع الشاعر بين جمال قطر المطر وهو ينزل من السحاب، وبين جمال اللؤلؤ الأبيض البراق، الذي يجلب من أعماق البحار، فكأنما المطر يسعى لتزيين الروض، فهو ينظم عقود لؤلؤ لتزيينه، وجعل البرق وهو ينير السماء خلفيه لصورة المطر، الذي يحاول إطفاء ما أحدثه البرق. وفي موقفٍ آخر مشابه لما سبق يشبه ابن حمديس القطر باللؤلؤ من جماله، وشدة لمعانه، فيقف على روض يصف لنا حاله، وقد طاب ريحه، وانتشر عبقه في الأرجاء، ممتزجاً بنسيم الروض العليل، فطابت رائحة الروض من طيب أزهاره، وكثرة أشجاره التي تبث النسيم الذكي كلما أحرقت أشعة الشمس أغصانها. يقول فيها :

فِي رَوضةٍ نَفْحَتَهَا مِسْكَةٌ تُهدِى إلَينا في جُيوبِ الرّياحِ
تَميسُ سُكْرا فكأنَّ الحَيا باتَ يُحَيّيها بكَاسَاتِ راحِ
كأنَّما أشجَارَها مندلٌ إنْ لذَعَتهُ جَمْرةُ الشَّمسِ فَاحَ
كأنَّما القَطْرُ به لُؤلؤٌ لمْ يَجرِ مِنهُ ثُقَبٌ في نِصَاحِ[(٢)].

ليس أي لؤلؤ يشبه به قطر السماء، وإنما يشبهه بذلك اللؤلؤ الذي لم يثقب، ليوضع في محله من العقد عبر ذلك السلك الذي يجمعها من خلال تلك الثقوب، والشاعر يرى اللؤلؤ ينزل مع قطر السماء، وذلك من جمال المنظر، وروعة المشهد، وفخامة التفكير، وبراعة الخيال، فيرى أن هذا القطر ينزل معه اللؤلؤ، فكأنما السماء تمطر لؤلؤاً من أصدافها السحاب، ويشبه ابن اللبانة

(١) ديوان ابن حمديس ص ٨٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٠.

المطر باللؤلؤ. يقول فيها :

تَرى الطلَّ في أخْلائِها مِثْـــل لُؤلــــؤٍ ولكنْ تَبقَّى نظْمُـــــهُ في القَلائـــــدِ
وتَحسبُ في أطرافِ طُرفَائِها النَّـــــدى بَقيةُ كُحْـــــلٍ في رُؤوسِ المـــــزَاوِدِ
كأنَّ رِياضَ الحــزنِ بُسطٌ تدّبجـــــتْ بِأنواعِ ألْوانٍ حِســــانٍ فَـــرائدِ (١).

فهنا نلاحظ أنه نتيجة لجمال الطبيعة التي يعيش فيها الشاعر، وتلك الأجواء الساحرة، نجد أن الشاعر صاحب العين الثاقبة، والأذن الواعية، يتخيل وهو واقف يتأمل المطر ينزل من بين السحاب لؤلؤاً، ولا ينقصه إلا أن ينظم في سلك؛ ليكون عقداً، وليس ببعيد عن ذلك ما يراه ابن خفاجة في روض قد تساقط عليه الندى؛ فتراه على أوراق الأشجار ، كالدر في استدارته، وصفائه، ولمعانه، ويرى الأزهار في ذلك الروض كقطع الدراهم الفضية، الملقاة على البساط الأخضر. يقول فيها :

وَكِمامَةٍ حَدَرَ الصَباحُ قِناعَها عَنْ صَفحَةٍ تَندى مِنَ الأَزهارِ
في أَبطَحٍ رَضِعَت ثُغورُ أَقاحِهِ أَخْلافَ كُلِّ غَمامَةٍ مِدرارِ
نَثَرَت بِحِجرِ الأَرضِ فيهِ يَدُ الصِبا دُرَرَ النَدى وَدَراهِـــمَ النُوّارِ (٢).

(١) ديوان ابن اللبانة ص ٤٩.

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٣٣٦.

المبحث الثاني : المائياتُ الصناعيةُ

- البرك.
- النوافير.
- السفن والزوارق.
- الأشرعة.
- الرحلات النهرية.

المائيات الصناعية

لا زال الشعراء في بحث مستمر إلى ما ينمي خيالهم، وينفخ الروح في قصائدهم، ويبعث الحياة في خيالهم، فهم في بحث دائم عن الجمال، وعن المناظر الجميلة، التي تفتن عيونهم بسحر جمالها، وتحلق بخيالهم في سماء الإبداع، وتجعل أفئدتهم في حيرة من عجيب صنع هذا الجمال، سواء الذي أبدعه الخالق- جل وعلا - من أنهار، وأشجار، وبساتين، ورياض مطرزة بشتى ألوان الأزهار والثمر، أو التي تفننت اليد البشرية، وأبدعت في صنعها من برك، ونوافير، ومساجد، وقصور، وقناطر ، وغيرها.

والشعراء منذ العصر الجاهلي وهم يحاولون وصف ما وقعت عليه أبصارهم، من سيف، ورمح، وخيل قادرة على قطع المفازات، ووصفوا الصحاري المقفرة، والربوع الدارسة التي قد سفت عليها الرمال، وغيبت معالمها، حتى أتى العصر الأموي في الشام، والعصر العباسي في العراق، وتغيرت البيئة معهم بتغير الزمان والمكان، فانفتحوا على العوالم الأخرى، والثقافات الجديدة، فانتقلوا من وصف الأنهار والأشجار إلى وصف المعالم الحضارية، فوصفوا القصور، والبرك، والقباب، والتماثيل.

وبفتح الأندلس انهار الحاجز الذي كان يفصل بين الشرق والغرب، وامتدت رقعة اللغة العربية والإسلام، وجاء شعراء الأندلس يبدعون كما أبدع شعراء المشرق، ولقد أجاد شعراء الأندلس في رسم الصورة الحضارية للمجتمع الأندلسي، وما كان يعيش فيه من حضارة ورقي في العيش بعد الحكم الإسلامي في الأندلس، فالمسلمون عندما عبروا إلى شبه جزيرة الأندلس، قدموا إلى حضارة قديمة لها تاريخها وتراثها "فعندما وصل المسلمون إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، كانت تحفل بكثير من آثار العمارة التي تعود لحضارات مختلفة كالأيبيرية، والرومانية، بعض هذه الآثار ذات وظيفة دينية كالمعابد، وبعضها ذات وظيفة دفاعية كالقلاع والحصون، ومنها ذات الوظيفة المدنية كالقصور، والمسارح، والقناطر، ونحوها[(١)]".

---

(١) تاريخ الإسلام في الأندلس، إبراهيم محمد حسنين، دار التعليم الجامعي، مصر، الإسكندرية، ٢٠١٤م.

ولقد أخذ الخلفاء جيلاً بعد جيل في تزيين مدن الأندلس، بعمارة القصور، وتشييد المساجد، وبناء المدن الجديدة كالزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر، ومدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة المؤيد، فعندما ساد الأمن والاستقرار الحياة في الأندلس أخذوا يخطون خطوات ثابته نحو الحضارة، وبسبب شغف بعض خلفاء الأندلس "بحضارة العرب المادية في المشرق دفع تجار قرطبة إلى استيراد أدواتها ونفائسها [(١)]"، فزينوا قصورهم بنادر النفائس، وعجيب الأدوات التي جلبت من المشرق، وقد ساعدهم على ذلك شغفهم بحب الجمال، ووفرة الثروة، وكثرة المعادن، ووجود الأيدي الماهرة، القادرة على الاستلهام من الطبيعة والإبداع في صنعتها، فاستغلوا عناصر الطبيعة المائية المختلفة من حولهم، وذللوها لخدمة مصالحهم في مختلف الوظائف الحياتية السلمية والحربية، فبنوا الأساطيل الحربية لحماية شواطئهم من أي عدو ودخيل، وجعلوا لهم مهرجانات مائية تقام فيها السباقات بين الزوارق الشراعية، وبنوا القصور، وزينوها بالأحجار الكريمة، وزخرفوها بالزخارف، وحرصوا على استخدام المياه في ساحات قصورهم كعنصر جمالي يحيط به التماثيل من كل جانب، إلى جانب استخداماتها الوظيفية لري جنان القصور، وسقي بساتينها.

وسنناقش في هذا المبحث- بمشيئة الله تعالى- ما ألهم شعراء الأندلس على الإبداع في وصف المائيات الصناعية، فقد استخدم أهل الأندلس العديد من عناصر المائيات الصناعية التي أبدعوا في تزيينها، لتضيف رونقاً وجمالاً إلى قصورهم ومدنهم، ونستهلها بالبرك.

---

(١) تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، شوقي ضيف، ص ٤٧.

البِرَك:

لقد أبدعت الهندسة المعمارية الأندلسية في استغلال الطبيعة أحسن استغلال، وقد عرف العرب البرك، واستخدموها لحفظ مياه الأمطار لأطول فترة ممكنه، وجعلها تنشر المياه في نواحي المدينة، فقد ذللوا الماء بمصادره المختلفة من : نهر، وجدول، وسيل، وغدير. ..، وجعلوها في تشكيلات حجرية جديدة كبرك، ونوافير. .. وغيرها، لتخدمهم من النواحي البيئية، ومن النواحي الجمالية، فقد أحسن الأندلسيون توظيف المياه في حياتهم اليومية، فأوصلوا المياه إلى حدائقهم، وبنوا البرك والنوافير في مساجدهم وقصورهم، لتتحقق من ذلك بعض أهدافهم في تلطيف الهواء، وتعديل حرارة الجو، وكذلك فإن وقع قطرات الماء تشكل موسيقى طبيعية بخريرها، تتناغم مع حفيف أوراق النبات، وقد كانت البرك من المعالم الأساسية لبعض المدن الأندلسية، فهذا الحميري يصف مدينة جيان الأندلسية، ويذكر من معالمها بركتها الكبيرة، " وجيان في سفح جبل عالٍ جداً، وقصبتها من القصاب الموصوفة بالحصانة، وهي من أغر المدن، وشريف البقاع، وفي داخلها عيون وينابيع مطردة، منها عين ثَرَّة عذبة، عليها قَبوٌ من بناء الأول، ولها بركة كبيرة عليها كان حمام الثور، فيه صورة ثورٍ من رخامٍ. [1]"، فاستُغِلتْ البركة لحفظ ماء العيون والينابيع .

واهتم الأندلسيون بالإضافة إلى ما تقدمه هذه البرك من خدمة للبيئة وللمجتمع، اهتموا أيضاً بالجانب الجمالي لها، فزُيِنت البرك بالتماثيل، وغُرِست على جوانبها الأشجار، ففي قصر المنصور بركة عليها أشجار النيلوفر، قد أمر بتزيينها عندما قدم إليه رسول ملك الروم، ليظهر له أن الأرض تجود عليهم بخيراتها الوفيرة، ويروي هذه القصة المقري، فيقول : " إن المنصور لما قدم عليه رسول ملك الروم، الذي هو أعظم ملوكهم في ذلك الزمان؛ ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم، فأمر المنصور أن يغرس في بركة عظيمة ذات أميال نيلوفر على ما تسع، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب، وأربعة قناطير من الفضة، فسبكت قطعاً صغاراً على قدر ما تسع النيلوفرة،

(١) صفة جزيرة الأندلس، الحميري، ص ٧٠ .

ثم ملأ بها جميع النيلوفر الذي في البركة، وأرسل إلى الرومي فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه السامي بالزاهرة، بحيث يشرف على موضع البركة، فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة[١] ، عليهم أقبية الذهب والفضة، ومناطق الذهب والفضة، وبيد خمسمائة أطباق ذهب، وبيد خمسمائة أطباق فضة، فتعجب الرسول من حسن صورهم، وجمال شارتهم، ولم يدر ما المراد، فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة، فبادروا لأخذ الذهب والفضة من النيلوفر، وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة، والفضة في أطباق الذهب، حتى التقطوا جميع ما فيها، وجاؤوا به فوضعوه بين يدي المنصور، حتى صار كوماً بين يديه، فتعجب النصراني من ذلك، وأعظمه وطلب المهادنة من المسلمين، وذهب مسرعاً إلى مرسله، وقال له :لا تعاد هؤلاء القوم، فإني رأيت الأرض تخدمهم بكنوزها"[٢] .

وكثيراً ما كان يجلس المنصور إلى بركته، ويستمع إلى الشعراء، ويأمرهم بالارتجال على ما يشاهدونه من بديع صنعها، ويختبر الشعراء على جيد قولهم، ففي يوم من الأيام أراد المنصور أن يختبر صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادي، بعد أن حسده ابن العريف، وادعى أن بيتي صاعد اللذين قالهما للمنصور هما لغيره، فأحضر المنصور جميع الندماء " فدخل بهم إلى مجلس محفل قد أعد فيه طبقاً عظيماً فيه السقائف مصنوعة من جميع النواوير، ووضع على السقائف لُعَبٌ من ياسمين في شكل الجواري، وتحت سقائف بركة ماء، قد ألقي فيها اللآلئ مثل الحصباء، وفي البركة حية تسبح، فلما دخل صاعد، ورأى الطبق، قال له المنصور : إن هذا يوم إما أن تسعد فيه معنا، وإما أن تشقى بالضد عندنا، لأنّه قد زعم قومٌ أن كل ما تأتي به دعوى، وقد وقفت من ذلك على حقيقة، وهذا طبق ما توهمت أنه حضر بين يدي ملك قبلي شكله، فصفه بجميع ما فيه [٣]". فعملية الاختبار والارتجال في المجالس الشعرية كانت تجري لأسباب عديدة ، " منها: تنشيط العملية الشعرية داخل المجالس، واختبار الوفود الجدد لمعرفة قدراتهم الشعرية، ومعرفة المجيد من

---

(١) الصقالبة: جيل من الناس كانت مساكنهم إلى الشمال من بلاد البلغار وانتشروا الآن في كثير من شرقي أوربة. المعجم الوسيط ص ٥٣٨.

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ٨٥.

(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٨٠ .

الشعراء للاعتماد عليه في قول الشعر، وغيرها من الأسباب التي كانت تدعو للاختبار.[1]"

لقد جعل الأمراء قصورهم وزينتها منهلاً ينهل منها الشعراء صورهم، ويستلهمون منها إبداعهم، فمجالس الأمراء منتدى للشعراء، وبديع صنعة القصور ميدانٌ فسيحٌ لجياد نظمهم.

ولقد بحث ملوك الأندلس عن الجمال، وحاولوا أن يجعلوه في قصورهم، ومدنهم الجديدة، فقد تولع ملوك الأندلس بالقصور الأنيقة، " وأغرموا على تزيينها أيما غرام، وأسرفوا في زخرفتها، وألحقوا بها البساتين الغناء، والبرك ذات المرمر والفسيفساء، تحيط بها التماثيل الرائعة من كل جانب [2]"، لتذر السحر في عيون كل شاعر، فينثر بديع القول في وصف تلك المناظر، وتخلد الأيام ذكر هذا الملك، وما كان يعيش فيه من ملك عظيم لم يسبق له ملك قط، فتبقى هذه المعالم خالدة للأجيال من بعده.

وقد أصاب بعض الملوك ما يشبه الهوس أحياناً في بناء القصور وتزيينها، وأنفاق الأموال الطائلة عليها، لتخلد هذه المعالم اسمه، وتبقى كما بقيت أهرامات مصر، وكان الناصر كثيراً ما يردد هذه الأبيات :

هِمَمُ الملُوك إذَا أرادُوا ذِكرَها مِن بَعدهمْ فَبِألسُنِ البُنيَانِ
أوَ مَا تَرى الهَرمين قدْ بقيَا وكمْ مَلكٍ مَحاهُ حَادثُ الأزْمَانِ
إنَّ البِناءَ إذَا تَعَاظَمَ شَأنُه أضحَى يدلُّ عَلى عَظيمِ الشَّانِ [3].

فالبناء العظيم يدل على السلطة، وقوة نفوذ من استطاع أن يبنيه، كما الأهرامات بقيت شاهدة عبر التاريخ على عِظم من بناها، ففي بقاء الأهرامات تخليد لذكرى الفراعنة، والناصر يريد من قصوره أن تبقى لِتُخلد أمجاده على مر السنين، فقد توسع في تجميل الزهراء "وجلب الماء إلى

---

(١) المجالس الشعرية في الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة ،آزاد محمد الباجلاني ،دار غيداء للنشر والتوزيع ،عمان – الأردن ،الطبعة الأولى ،٢٠١٣ م، ص ١١٧ .

(٢) الأدب الأندلسي، الشكعة ص ٢٨.

(٣) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الغرناطي، ج ١ ص ١٢٠.

قصورهم من الجبل، واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية، ثم أخذ في بناء المنتزهات، فاتخذ منية الناعورة خارج القصور، وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة، ثم اختط مدينة الزهراء، واتخذها لنزله، وكرسياً لملكه، وأنشأ فيها من المباني، والقصور، والبساتين ما عفى على مبانيهم الأولى، واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظللة بالشباك[١]"، وهو أحدث تخطيط لحديقة الحيوان في عصرنا الحديث. كما أنشأ أحواضاً كثيرة للحيتان، قيل: إن طعامها كل يوم بلغ اثني عشر ألف خبزة. [٢]". فهذا يدل على عظيم مساحة أحواضه التي استغلها للأسماك، ولري الحدائق والبساتين.

ولطالما تنافس ملوك الطوائف في تشييد القصور والمباني، فقد شيّد القصر العظيم " ملك طليطلة المأمون ابن ذي النون بها، وذلك أنه أتقنه إلى الغاية، وأنفق عليه أموالاً طائلة، وصنع في وسطه بحيرة، وصنع في وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطا بها، ويتصل بعضه ببعض، فكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج، لا يفتر من الجري، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصله، وتوقد فيها الشموع؛ فيرى لذلك منظر بديع عجيب.[٣]"، وقد وصف هذا القصر والبركة التي فيه أبو محمد المصري، فقال في قصر طليطلة :

قَصرٌ يُقَصّر عن مَداهُ الفرقَدُ ... عَذُبَت مَصَادره وطابَ المَورِدُ
نَشَر الصَّباحُ عليهِ ثوبَ مَكارِم ... فَعَلَيه ألوِيَةُ السَّعادة تُعقَدُ
وكأنّما المأمُونُ في أرجَائِهِ ... بَدرُ تَمام قابلَتهُ أَسْعُدُ
وكأنّما الأقْدَاحُ في رَاحاتِهِ ... دُرٌ جَمادٌ ذابَ فِيه العَسْجَدُ

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٥٧٨ .
(٢) الأدب الأندلسي، الشكعة، ص ٣١.
(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٥٢٨.

وقال أيضاً في وصف البركة والقبة التي عليها :

شَمسيّة الأنسَاب بدريّة يَحارُ في تَشْبيهها الخَاطرُ
كأنّما المأمُونُ بدرُ الدُّجى وَهْيَ عَلَيه الفَلَكُ الدَّائرُ [١].

هكذا يكون مفعول الجمال، والصنعة العجيبة، التي تحيرّ الشاعر بماذا يبدأ، وعن أي شيء يتحدث، فإذا استهل بجزء، ظن أنه ظلم الجزء الآخر، فالشاعر في هذه الأبيات حاول وصف ما شاهده في القصر، وما كانت عليه البركة من جمال، وما كانت عليه القبة من استدارة في بنائها فوق البركة، وقد زينت بالذهب والزجاج، والماء ينزل من أعلى القبة، والمأمون في وسطها، كأنه بدر الدجى، لا يمسه من الماء شيء.

وكان للمعتصم بن صمادح "بركة ماء بناها في الصُّماد حية [٢]، وقد حضر في مجلسه أعيان الوزراء، ونبهاء الشعراء؛ وهو قاعد على موضع يتداخل الماء فيه، ويتلوى في نواحيه، فقال:

انظرْ إلى حُسْن هَذا الماءِ في صَبَبه كأَنّه أرْقَمٌ قدْ جَدَّ في هَربِهْ

فاستبدع الكل قوله، فخلع عليهم ، ومنحهم فضله وطوله - والأرقم: من أسماء الحية[٣]" فقد شبه الماء في التوائه، وانسياب حركته بحركة الأفاعي.

وهذا ابن وهبون يصف بركة وعليها زهور النيلوفر التي تنمو على البرك والمياه الراكدة بكثرة، يقول فيها :

وبِركَةٍ تُزْهى بِنَيلَوفَرٍ نسيمُهُ يشبِه ريحَ الحَبيبْ
حتَّى إذا اللَّيل دَنا وقتُهُ ومالَت الشَّمسُ لِحينِ الغُروبْ

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٥٢٩ .
(٢) وهي قصور المعتصم بن صمادح .
(٣) المطرب من أشعار أهل المغرب ،ص ٣٦.

أَطبَقَ جَفنَيه عَلى إلفِهِ وغاصَ في الماءِ حِذارَ الرَّقيبْ [1].

كثيراً ما تنمو أزهار النيلوفر على البرك، فتزين شكل البركة بمنظرها، فهي تغطي سطح الماء بأوراقها الخضراء المسطحة، التي تعلوها الأزهار البيضاء ذات الرائحة الطيبة، وهذه الرائحة الطيبة ذكرت الشاعر برائحة الحبيب، الذي يطيب وصله في المساء، كما تفعل الأزهار إذا حان وقت الغروب، وحل وقت الوصال، اختفت عن الأنظار، وغاصت في الماء مخافة الرقيب، فأضفى الشاعر على النيلوفر شيئاً من العاطفة الإنسانية، فهي تغمض جفنيهابأمامها؛ لتستر الحبيب من أعين الرقباء.

لقد أحب الأندلسيون بيئتهم الطبيعة، واستغلوا ما استطاعوا منها في جالب السعادة إلى قلوبهم، فتأملوا الأزهار، وزرعوا الحدائق والجنان، وجلسوا بجوار الأنهار، وبنوا القصور والمجالس حولها، وتفيئوا ظلال الأدواح، وتنعموا بأنواع الثمار، فجعلوا البرك والنوافير حولها، فهذا ابن حمديس يصف بركة قد حلت عليها أزهار النيلوفر. يقول فيها :

اشرَبْ على بركة نَيْلُوْفَرٍ مُحْمرّةِ النّوارِ خَضْراءِ
كأنَّما أزهارُها أخرَجتْ ألسنةِ النَّارِ مِن الماءِ [2].

هنا يصف ابن حمديس نوعاً من أنواع زهر النيلوفر، حيث جاءت ألون الزهر محمرةً، وفي وسطها الرحيق الأصفر، فكأن البركة قد اشتعلت ناراً، وهذه الأزهار قد أرسلت ألسنة اللهب منها.

يختلف الاهتمام بالبرك وتزيينها باختلاف الطبقات الاجتماعية في الأندلس، فأمراء الأندلس تنافسوا على جعل البرك عنصراً مكملاً لجمال قصورهم، فرصعوها بالمجوهرات، وزخرفوها بالفسيفساء، ونصبوا على حوافها التماثيل الحجرية، وجعلوا البرك في وسط الحدائق والبساتين، يأتيها الماء بانتظام، وينتشر في أرجاء القصر بكل انسيابية متناهي، ومن الوزراء من استغل مياه الأمطار ، وجعلها في بركة أمام داره، كما جاء في خبر ولادة " لما مرت بالوزير أبي عامر ابن عبدوس،

---

(١) الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ،تحقيق أحمد الأرنأووط وتركي مصطفي ،دار إحياء التراث العربي، بيروت ،لبنان، ط ١، ٢٠٠٠ م ،ج ١٨ ص ٣٤.

(٢) ديوان ابن حمديس ص ٥.

وأمام داره بركة تتولد عن كثرة الأمطار [(١)]".

وكان من أهل الأندلس من يزرع الأشجار ، ويكثر من الأزهار على جوانب البركة، ونجد ذلك عند أبي جعفر بن الأبار[(٢)]، عندما وصف بركة على جنباتها الأزهار، ونوار الأقحوان. يقول فيها:

وبِركَةٍ بالأقَاحِ مُحدَقَة تُخال رِيحُ الصَّبا بِها صَبَّهْ
يَحُلُّ فيها الحُبابُ حُبوَتَهُ إذا جَرَتْ لِلصَّبا بِها هَبَّهْ
كأَنَّها راحَةٌ بِها غَضَنٌ[(٣)]. حَفَّتْ مِن الدُّرّ حَولها لَبَّهْ[(٤)].

تطلع الشاعر إلى البركة ومائها المتكسر من فعل الريح به، وما يطل على البركة من أزهار الأقحوان البيضاء، فتخيل الشاعر هذه البركة، وقد عبثت بها ريح الصبا براحة اليد في تجعدها، وشبه إحداق الأقحوان، وبياض لونه، واتصاله مع بعض بعقد الدر، وهذا أبو الوليد إسماعيل الإشبيلي يصف بركة عليها أقحوان :

..... بالثَّرى صَيْرَفِي لَهُ نُطُوعٌ مِن اللَّازَوَردِ البَديعْ
..... بُ فيه مِن الأُقْحَوا ن دِرهمٌ مِن ضَربِ كَفِّ الرَّبيعْ [(٥)].

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٠٨ .

(٢) أبو جعفر أحمد بن محمد الخولاني الأندلسي الإشبيلي المعروف بابن الأبار، الشاعر المشهور، كان من شعراء المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية، توفي سنة ٤٣٣هـ، ينظر ترجمته عند ابن خلكان في (وفيات الأعيان ج١ ص١٤١)، وابن بسام في (الذخيرة ج٢ ص١٠٧)، والحميدي في (جذوة المقتبس ص ١٦٨) .

(٣) الغضن : كل تثني وتكسر في ثوب أو درع أو جلد ...، المعجم الوسيط ص ٦٧٨.

(٤) البديع في وصف الربيع ص ١٥٢.

(٥) المرجع السابق ص١٥٣. هي في الأصل: بياض، وفي النسخة المحققة أيضاً ، وكذلك الشأن في الشطر الثاني . والصحيح ما أثبته.

النوافير :

بعد أن تحدثنا عن البرك، وما كان يستفاد منها في الحياة اليومية، وما كان لها من دور جمالي في القصور والمنتزهات وغيرها، فإنه لابد من أن نتحدث عن العنصر المشارك لها ، وهي النوافير، فقد تأتي البرك منفرده وحدها، ولكن النوافير لا تأتي إلا مع البرك، فالنوافير تقذف الماء من أفواه التماثيل في الغالب إلى داخل البركة، وقد أبدعت الأيـدي الأندلسية في صناعة النوافير داخل القصـور، والبيوت، والحدائق، والمساجد. ..،فزخرفوها، ورصعوها بالأحجار الكريمة، وقد اختلفت أشكال النوافير، وقوة اندفاع مائها باختلاف مصدر الماء المغذي لها من قوة وضعف، وكذلك باختلاف عدد مخارج النافورة، وقد أبدع رجال الأندلس في صناعة النوافير، فجعلوها من تماثيل حجرية ومذهبة، توضع على جوانب البرك؛ ليدخلها الماء؛ فتمجه من أفواهها إلى داخل الحوض.

وقد كانوا يجلبون الماء من مصادره، ولو كانت بعيدة عن قصورهم، فحفروا القنوات، ومهدوا السبل لذلك، فهذا الناصر بنى "القناة الغريبة الصنعة التي جرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة، في المناهر المهندسة، وعلى الحنايا المعقودة، يجري ماؤها بتدبير عجيب، وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة، عليها أسد عظيم الصورة، بديع الصنعة، شديد الروعة، لم يُشاهد أبهى منه فيما صور الملوك في غابر الدهر، مطلي بذهب إبريز، وعيناه جوهرتان، لهما وميض شديد، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد، فيمجه في تلك البركة من فيه، فيبهر الناظر بحسنه، وروعة منظره، وثجاجة صبه، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها، ويستفيض على ساحاته وجنباته، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه، فكانت هذه القناة، وبركتها، والتمثال الذي يصب فيها من أعظم آثار الملوك في غابر الدهر، لبعد مسافتها، واختلاف مسالكها، وفخامة بنيانها، وسمو أبراجها التي يترقى الماء منها، ويتصوب من أعاليها [1]"، فهذه البِركة

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٥٦٤.

خلقت جواً جمالياً للقصر بتساقط قطرات الماء من النافورة إلى سطح البركة، لتعزف موسيقى طبيعية على خرير الماء، وشذى الطير، وصوت حفيف الأوراق. وقد أبدع ملوك الطوائف في تزيين مجالسهم بالبرك العجيبة الصنع، والتماثيل المبهرة في الشكل، فقد حضر ابن سيده مع المأمون بن ذي النون مجلساً، وصفه المقري في النفح، فقال: إنه حضر-ابن سيده - "مع المأمون بن ذي النون في مجلس الناعورة بالمنية التي تطمح إليها المنى، ومرآها هو المقترح والمتمنى، والمأمون قد احتبى، وأفاض الحُبا، والمجلس يروق كالشمس في أُفُقِه، والبدر كالتاج في مفرقه، والنور عبق، وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق، والدولاب يئن كناقة إثر الحوار، أو كثكلى من حر الأوار، والجو قد عنبرته أنواؤه، والروض قد رشته أنداؤه، والأسد قد فغرت أفواهها، ومجت أمواهها، فقال :

يَا مَنظراً إنْ نَظرتُ بَهْجَتَه أذكَرَني حُسْنَ جَنّة الخُلدِ
تُربَةُ مِسكٍ وجوُّ عنبرةٍ وغيمُ ندّ وطشُّ ما وَردِ
والماءُ كاللازَوَردِ قد نَظَمَتْ فِيهِ اللآلي فَوَاغِرُ الأسْدِ
كأنّما جاثل الحُباب به يَلعبُ في جَانبيه بالنَّردِ
تَراهُ يَزهُو إذا يحلُّ به ال مأمون زَهْوَ الفَتاة بالعِقدِ
تَخاله إنْ بَدا بِه قَمَراً تِمّاً بَدا في مَطَالع السّعْدِ
كأنّما أُلْبِسَتْ حَدائِقُهُ ما حَاز مِن شِيمةٍ ومن مَجْدِ
كأنّما جَادها فَرَوَّضها بوابِلٍ مِن يمينه رَغْدِ
لا زَالَ في رِفْعَةٍ مُضَاعَفَةٍ مُتمّم الرِّفْدِ وَادِيَ الزَّنْدِ (١).

من الملاحظ على شعراء الأندلس أنهم أحبوا طبيعتهم، وأعجبوا بها، فكان لها عميق الأثر في نفوسهم، فألهمتهم من مناظرها صوراً، ومن عبقها شوقاً لا يستطيعون كبح جماح شاعريتهم عنها، فقد هزت الطبيعة مشاعرهم، ليتحدثوا عما جادت به الطبيعة عليهم، وما صنعوا هم بها من حدائق، وبساتين، وسواقي، وبرك، ونوافير وغيرها، لتزداد الطبيعة رونقاً وجمالاً إلى جمالهم. وتأمل

(١) نفح الطيب ج١ ص٦٤٣.

الشاعر منظر النافورة وما حولها من المباني والحدائق فهاله المنظر، فتربتهم المسك، وجوهم العنبر، وغيمهم العود الطيب الرائحة، وماء الورد هو طش السماء عليهم ؛لذلك نجد الشاعر في بداية الأبيات يتصور حسن مجلس المأمون بجنة الخلد، فكلما رأى المجلس وما فيه؛ تذكر الجنة وما حوته من جمال لا يوصف، ونعيم دائم، وبعد ما وصف الشاعر جو المجلس وما حوله، التفت إلى البركة ونوافيرها، وما صنع بها مجاج الأسد من لآلئ على سطح مائها. ومن الذين وصفوا البركة، وما عليها من نوافير ابن ظافر، فقد وصف مجلس المأمون بن ذي النون، وقال فيه :" والماء قد جرت بين الأعشاب أراقمه، وثم بركة مملوة، كأنها مرآة مجلوة، قد اتخذت سباع الصفر بشاطئها غابا، ومجت بها من سائغ الماء لعابا، فكأنها آساد عين، أدلعت ألسنة من لجين، وهي لا تزال تقذف الماء ولا تفتر، وتنظم لآلي الحباب بعدما تنثر[(١)]."

لقد اتخذ ملوك الطوائف من بديع القصور مساكن لهم، وفي أحضان الطبيعة مجالسهم، فقد زينوها بغريب الهندسة، وعجيب الأدوات، ونادر التحف والتماثيل؛ لتعجب الأنظار، وتطير بالخيال، فيتنافس الشعراء على وصفها، وتطير بأوصافهم الركبان، فتبقى معالم الملوك خالدة على مر السنين والأيام، فقد كان المعتمد بن عباد يجلس على بركة له " والماء يجري من ذلك الفيل، وقد أوقدت شمعتان من جانبيه، والوزير أبو بكر ابن الملح[(٢)] عنده، فصنع الوزير فيهما عدة مقاطيع بديهاً، منها :

ومُشْعِلِينَ مِن الأَضْواءِ قَد قُرِنَا	بِالماءِ والماءُ بالدُّولاَبِ[(٣)] مَنزُوفُ
لاَحَا لعَينيَّ كالنَّجمَينِ بَينهمَا	خَطُّ المجَرَّةِ مَمدُودٌ ومَعْطُوفُ[(٤)]

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٦٤٥.

(٢) هو الوزير الفقيه أبو بكر محمد بن إسحاق اللخمي من أهل شلب يعرف بابن الملح وابن الملاح ،توفي في رمضان عام ٥٠٠هـ ،ينظر ترجمته عند ابن بسام في (الذخيرة ج٢ ص٣٤٠) ،والمقري في النفح (ج٤ ص٧٠) .

(٣) الدولاب : الآلة التي تديرها الدابة ليستقى بها .و جهاز لرفع الاثقال، وهو نوع من الملفاف . المعجم الوسيط ص ٣١٥.

(٤) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٦٣ .

الجمال يدفع بصاحبه إلى الإبداع، فالليل قد حل بهم، والشموع قد أوقدت، والماء يجري من الفيل إلى وسط البركة، في صنعة عجيبة، وإبداع يجلب السرور، فقد تصور الشاعر ذلك المشهد بعدة صور جميلة : فقد لاح له من بعيد نور الشمعتين، وخرطوم الفيل من بينهما، فصور الشاعر الشمعتين بالنجمين، والليل قد أسدل ستاره عليهم، وقد فصل بين النجمتين خط المجرة، وهو خرطوم الفيل الممدود المعطوف.

ولقد اتسع الخيال لدى الشاعر، وتعددت الصور أمامه من جمال ما شاهد، ومن عجيب ما رأى، فقال أيضاً :

كأنَّما النَّارُ فَوقَ الشَّمعتينِ سَناً   والمَاء مِن نفَذ الأُنبُوبِ مُنْسكِبُ
غَمامةٌ تحتَ جُنحِ اللَّيلِ هَامعَةٌ   في جَانبَيها حُفَافُ البَرق يضْطَرِبُ [1].

وعلى وقع قطرات الماء وتساقطها، ونور الشموع يلعب بها النسيم، ما لبث الشاعر قليلاً حتى أطربه ما يشاهد، ودفعه إلى الإنشاد والتصوير من جديد، فتمثلت هذه الصور أمام الشاعر بالسحاب، والبرق المضيء، فنور الشمعتين بسناء البرق، وفي سقوط الماء من الفيل بقطر السحاب التي تنزل من بين الغيوم.

وقال أيضاً :

وأُنبُوبِ مَاءٍ بَين نَارينِ ضَمنّا   هَوى لِكؤُوسِ الرَّاحِ تَحتَ الغَياهِبِ
كأنَّ انْدفَاعَ المَاءِ بالماءِ حَيةٌ   يُحركُها فِي المَاءِ لمعُ الحَباحِبِ

وقال أيضا :

كأنَّ سِراجِي شُربهُم فِي الْتظَائهَا   وأُنبُوبَ مَاءِ الفِيلِ في سَيلَانهِ

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٦٣ .

كَريمٌ تَولى كِبره مِن كِلِيهمَا   لِئيمَانِ في إنفَاقِهِ يَعذلَانهِ[١].

وكلما مكث الشاعر أمام النافورة، وأعاد النظر فيها، تعددت الصور في خياله، ودفعته إلى الإبداع، والارتجال من جديد، فقد استلهم الشاعر من سلاسة اندفاع الماء من أنبوب الفيل، وانسياب حركته إلى البركة بحركة الحية في تعطفها وتثنيها. ومن خلال هذه الأبيات نرى أن وصف الطبيعة الصناعية عند ابن الملح "بقيت ضمن إطار الصورة الواصفة للمنظر الطبيعي، وهو ما يعطي انطباعاً بأن هذا الوصف، إنما هو إشباع للجانب الجسدي عند الشاعر، إذ لم يخرج الوصف، فيمثل أبعاداً جديدة تدخل حيز البوح بالنفس[٢]" والتأمل في المستقبل والحنين إلى الماضي.

وكثيراً ما كان يجلس ابن عباد بجوار هذه البركة المزينة، ويحث ندماءه على الارتجال، فقد صنع الفيل من الفضة، ووضعه على شاطئ البركة يقذف الماء إلى وسطها، فوصف ابن وهبون هذا المنظر بأبيات. يقول فيه:

ويُفرغُ فيهِ مثلَ النَّصْلِ بِدعٌ   مِن الأفيالَ لَا يشْكُـــــو مَلالَا
رَعى رَطبَ اللجِين فَجاءَ صَلداً   تَراهُ قَلّما يَخشـــــــَى هُزالَا[٣]

لقد كثر عند ملوك الطوائف استخدام تماثيل الحيوانات بجوار البرك، لتقذف الماء من أفواهها بطريقة عجيبة، وصنعة متقنة إلى البركة، وقد أجاد المعتمد بن عباد في إصابة مكامن الضعف عند الشعراء، فقد أغراء أبصارهم بالجمال الذي تمكن من قلوب شعرائه، ليشد من خطام ركابهم، وينيخ مطاياهم ببابه،فقد أبدع ابن عباد في صنعة نافورة الفيل، التي لا زال يسقيه، ويرعاه بالفضة؛ حتى اشتد عظمه، وقسا عوده، فالفيل لا يكل من الوقوف، ولا يمل من قذف الماء إلى داخل البركة.

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٦٣.

(٢) شعر ابن الملح، محمود محمد العامودي ،مجلة الجامعة الإسلامية، غزة – فلسطين، المجلد التاسع، العدد الأول، ص ٣١٨.

(٣) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٦٣.

وقال ابن عباد يصف فوارة، قد سلت لهم من صافي مائها سيفاً، قد جرد من غمده، ليلمع لهم كأنه الفضة :

ولَربَّما سَلَّتْ لنَا مِن مَائِهَا ... سَيفاً وكانَ عَنِ النَّواظرِ مُغمدَا
طَبعتُه لُجّياً فَذابتْ صَفحةٌ ... مِنه ولَو جَمُدتْ لكانَ مُهنَّدَا(١).

يشبه ابن عباد صفاء الماء، ولمعانه، وانحنائه عند اندفاعه من النافورة إلى البركة بالسيف الفضي، إلا أنه يذوب في صفحة الماء، ولو جمد في مكانه؛ لكان سيفاً من صفاء منظره.

وللمعتصم بن صمادح مقطوعة يصف بها بركة بناها في الصماد حية ونافورتها، يقول فيها:

كَأَنَّ انسِيَابَ الماءِ في صَفحَاتِها ... حُسَامٌ ثَقيلُ المَتْنِ سُلَّ مِن الغِمْدِ
تَفُورُ بِها فوَّارةٌ مُستَدِيرةٌ ... لَها مُقلْة زَرقاُءُ مَوصُولَةُ السّهدِ
أدَرْنَا بِها كَأسَاً كأنَّ حَبَابَهَا ... حَبابُ سَقِيط الطَّلِّ في وَرَق الوَردِ
لَها في غَدِير الماءِ لألآءُ جَمْرَةٍ ... حَكتْ نَارَ إبرَاهِيمَ فِي اللَونِ والبْرَد (٢)

للماء في أشكاله المختلفة عنصر جذب، تتوجه إليه جميع الحواس البشرية، فمن شرب منه روي، ومن استمع إلى خريره طرب، ومن أمعن النظر في الماء تعجب من انسيابية حركته، ودقة جريه، فهذا المعتصم بن صمادح يُعجب بانسيابية حركة الماء على البركة، ويشبه صفحة الماء بالسيف الذي قد سل من الغمد، وعلى هذه البركة نافورة تفور بالماء، كأنها مقلة زرقاء، بلغت أسمى آيات الحسن والجمال، وقد دار السقاة عليهم بالخمر ،الذي تتطاير منه الفقاعات، كأنها الندى على ورق الورد، وتجري كؤوس الخمر في الماء، كأنها الجمر في حمرتها، إلا أنها شابهت نار إبراهيم - عليه السلام – في اللون والبرد، " والمتبع لشعر الخمر في الأندلس لا يجد اختلافاً كبيراً عما هو عليه في المشرق، فمجالس اللهو والشرب في قرطبة هي ذاتها في بغداد، وإن كانت الأندلس بطبيعتها الغناء، وتحرر ساكنيها، تبعث أكثر على الشرب، إذ كان يتردد في شعرهم ذكر الكؤوس المترعة بالخمر، تدور على الندامى والسامرين، وإلى جانب هذا، فقد تفننوا في وصفها، وذكر ألوانها،

---

(١) ديوان ابن عباد ص ٢٩ .
(٢) المطرب من أشعار المغرب، ص ١٣٦ .

وحالاتها[١]."

إن المباني والعمران دليل على عظيم قدر بانيها، فلم يزل الشعراء يصفون جمال مبانيها بأحسن الألفاظ، وبديع الصور، وجميل المعاني، فهذا ابن حمديس يصف داراً بناها المنصور بن أعلى الناس ببجاية :

اعْمُر بقَصرِ الملكِ ناديَك الذّي   أضْحَى بمَجدِكَ بَيْتُه مَعْمُورَا
قَصرٌ لو أنّكَ قدْ كحَلتَ بنُوره   أَعمَى لعَاد إلى المقَام بَصِيرَا
واشتُقَّ مِن مَعنَى الْحَياة نسِيمَهَ   فيَكادُ يُحدثُ للعِظامِ نُشُورَا[٢]

إلى أن وصل في قصيدته إلى وصف بركة في القصر " عليها أشجار من ذهب وفضة، ترمي فروعها المياه، وتفنن، فذكر أسوداً على حافاتها قاذفة بالمياه أيضاً [٣]" وفي كل ذلك يقول :

وضَراغمٌ سَكَنَتْ عَرينَ رئاسَةٍ   تَركتْ خَريرَ الماءِ فِيه زَئيرَا
فكأنَّما غَشّى النّضَارُ جُسُومَهَا   وأذابَ في أفْواهِها البَلّورَا
أُسْدٌ كأنّ سُكونَها متَحرّكٌ   في النَّفس لو وَجدتْ هُناك مُثيرَا
وتَذكّرتْ فَتكاتِهَا فكأنّما   أقعَتْ عَلى أدبَارِها لتثُورَا
وتخَالُها، والشَّمسُ تجلُو لَونَها   نَاراً وألسُنَها اللوَاحسَ نُورَا
فكأنّما سُلّتْ سُيوفُ جَداولٍ   ذَابتْ بِلا نارٍ فَعُدنَ غَديرَا
وكأنّما نَسجَ النسَّيم لمائهِ   دِرعاً فقدّرَ سَردَها تَقدِيرَا
وبَديعةِ الثمَرَاتِ تعبرُ نحْوها   عَينَايَ بَحرَ عَجائبٍ مَسجُورَا
شَجَريةٍ ذَهَبيةٍ نَزعَتْ إلى   سِحرٍ يُؤثّر فِي النُّهى تَأثيرَا
قدْ صَوْلجتْ أغْصَانَها فكأنّما   قَنَصَتْ لَهنّ مِن الفَضاءِ طُيورَا

(١) المعتمد بن عباد شاعر المجد والانكسار، آمنة بن منصور، ص ٧٧ .
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٤٩٢ .
(٣) نفح الطيب ج١ ص ٤٩٣.

وكأنَّمَا تَأبى لِواقعِ طيْرِهَا أنْ تَستقِلّ بنهضِها وتَطِيرَا
مِن كلّ واقعةٍ تَرَ مُنقارهَا ماءً كَسِلسَالِ اللجَينِ نَميرَا
خُرسٌ تُعدّ مِن الفِصَاحِ فإنْ شُدّتْ جَعلتْ تغرّدُ بالمِيَاهِ صَفيرَا
وكأنَّما فِي كُلّ غُصنٍ فِضةٌ لاَنتْ فَأرْسلَ خَيطُها مَجرُورَا
وتُريكَ في الصَّهرِيج مَوقعَ قَطرهَا فَوقَ الزَّبرجَدِ لُؤلُؤاً مَنثُورَا
ضَحكتْ مَحاسنُهُ إليكَ كأنّما جُعلتْ لهَا زُهرُ النُّجومِ ثُغُورَا(١)

أضافوا إلى الطبيعة قصورهم الفارهة، وبركهم المزخرفة، وحدائقهم الغناء، حتى أصبحت هذه المدن والقصور منارات يهتدي إليها كل أديب، وأنشودة عذبة في فم كل شاعر، فقد وصف ابن حمديس قصر المنصور بن أعلى الناس، وبركته الفخمة التي زينها بالأشجار ، التي قد علق عليها القناديل المصنوعة من الذهب، والفضة، والطيور الصناعية، ونصب حول البركة تماثيل على هيئة أسود، تدفع الماء من أفواهها، ومن مناقير الطيور إلى وسط البركة، لتحدث موسيقى جميلة على وقع الخرير، ومنظراً ساحراً، استطاع أن ينفذ إلى قلب الشاعر، ليطير بخياله في عالم البديع، ويزخرف الشاعر عمله بصنوف الاستعارات، والتشبيهات، والكنايات، ليخرج لنا نصاً مفعماً بالحركة والحياة، مليئاً بالصور، قادراً على وصف مشاهدات الشاعر، والتعبير عنها.

ويقول ابن حمديس في موضع آخر ، يصف قصراً قد جعل فيه بركة تجري إليها المياه من شاذروان من أفواه الطيور، والزرافات، والأسود. قال في مطلعها متعجباً من عجيب صنعة القصر وجماله :

أعْليتَ بَينَ النَّجمِ والدّبرَانِ قَصراً بَناهُ مِن السَّعادةِ بَانِ(٢)

وبعد أن انتهى الشاعر من وصف القصر، وعجيب صنعته، اتجه إلى مياهه الجارية، وأخذ يصف جمالها :

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٥٤٧.
(٢) المرجع السابق ص ٤٩٤.

والماءُ منه سَبائكٌ فِضيّةٌ ذَابتْ على دَرَجاتِ شَاذرِوَانِ
وكأنَّما سَيفٌ هُناك مُشَطَّبٌ أَلْقَتْهُ يَوم الحَربِ كفّ جَبانِ
كمْ شَاخِصٍ فِيه يُطيلُ تَعَجّباً مِن دَوحَةٍ نَبَتَتْ مِن العِقيَانِ
عَجباً لها تَسقي الرِّياضَ يَنابعِاً نَبعتْ مِن الثّمَرَاتِ والأغْصَانِ[١].

لا يرى الشاعر مياه البركة إلا سبائك فضة، قد أذيبت من شدة صفاء الماء ونقائه،فكأن ماء البركة سيفٌ قد ألقته في يوم الوغى يد جبانٍ، وهذه التماثيل التي تحف البركة قد شخصت أبصارها من طول التأمل لتلك الصنعة العجيبة، فهذا الطيور :

خَصّتْ بطَائرةٍ عَلى فَنَنٍ لهَا حَسُنَتْ فَأُفْرِدَ حُسْنُها مِن ثَانِ
قُسّ الطُّيورِ الخَاشِعاتِ بلاغَةً وفصَاحةً مِن مَنطقٍ وبيَانِ
فإذا أُتِيحَ لها الكَلامَ تَكَلّمَتْ بخَرير مَاءٍ دَائمِ الهَملانِ
وكأنَّ صَانِعَها استَبدّ بصُنعةٍ فَخرَ الجَمادُ بِها علَى الحَيوَانِ
أوْفتْ علَى حَوضٍ لهَا فَكأنّها مِنها إلَى العَجَبِ العُجابِ رَوانِي
فَكأنّها ظنّتْ حَلاوةَ مَائِها شَهداً فَذاقَتهُ بِكلّ لَسَانِ[٢].

وإذا نظرنا إلى التماثيل رأينا الطيور المصنوعة، إذا أتيح لها الكلام تكلمت بلحن الخرير دائم السيلان، وقد فخر الجماد في صنعته في هذا الموضع على الحيوان، لصوته الفريد، وشكله العجيب، ولما هو في نعيم، فهذا الطائر يقف بجوار الزرافة، ولا يهابها، ولا يفزع من حجمها، وإنما تساعد الطائر على قذف الماء إلى البركة.

وزَرافةٍ في الجَوْفِ مِن أنْبُوبِها ماءٌ يُريكَ الجَري في الطَّيرانِ
مَركُوزة كالرُّمح حَيثُ ترَى لهُ مِن طَعنهِ الحَلقَ انعِطافِ سِنانِ
وكأنّها تَرْمي السَّماءَ بِبندقٍ مُستنبَطٍ مِن لُؤلُؤٍ وجِمانِ

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٤٩٥.
(٢) المرجع السابق ص ٤٩٦.

لوْ عَادَ ذاكَ الماءُ نِفطاً أحْرقتْ   فِي الجوّ مِنه قَميصَ كلّ عنَانِ[1].

عظمة البركة، وكثر الماء القادم لها، فتفنن المهندسون في تزيينها، فجعلوا نوافيرها عديدة، بأشكالها عجيبة، تقذف الماء من التماثيل بطريقة بديعة، فمن التماثيل ما يأتي معلقاً في السماء مع الطيور، ومنها ما يطير الماء من أفواها إلى السماء،فتنثر اللؤلؤ في الفضاء، ومن التماثيل ما يدخل الماء إلى جوفه، ليطفئ نار العداوة في قلبه، فتستقر جاثمة في مكانها لا تتحرك،فهذه الأسد قامت على البركة.

في بِركةٍ قامتْ على حَافاتها   أسدٌ تذلُّ لعِزّة السُّلطانِ
نَزَعتْ إلى ظلم النُّفوس نفوسَها   فلذلك انتزعتْ مِن الأبدَانِ
وكأنَّ بَردَ الماءِ مِنها مُطفئٌ   نَاراً مُضَرّمَةً مِن العُدوانِ[2].

في جلسة الأسد عند البركة تظهر الذل لسلطانها، وفي قدرتهم على تذليلها عز لسلطانها، وقد زينوا البركة بالأسماك، فهي تتجول في البركة بلا خوف، كأنها أخذت من المنصور عقد أمان، فلا يأتيها أحد، ولا يمسها مكروه.

وكأنّما الحيّاتُ مِن أفواهِها   يَطرحنَ أنفِسهنَ فِي الغَدرانِ
وكأنّما الحِيتَانُ إذْ لمْ تخشِها   أخذتْ مِن المنْصُور عَقدَ أمَانِ[3]

أرض الأندلس جميلة بما حباها الله تعالى من خضرة، وأنهار، وجبال، وأشجار، وفاكهة، وأزهار. ..، ودخلت عليها الحضارة الإسلامية، فدفعت بعجلة الرقي إلى الأمام، فواكبت الخلافة في المشرق، وحافظوا على جمال الطبيعة الأندلسية ونموها، وتوسعوا بها في بناء القصور، والمساجد، والدور الجميلة، التي استغلوا فيها جمال الطبيعة أجمل استغلال.

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٤٩٦.
(٢) المرجع السابق ص ٤٩٦ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٩٦.

السفن والزوارق :

لقد عرف العرب منذ قديم الزمان البحر، وإن كانوا قليلي الخبرة فيه، فهم أبناء الصحراء، نشأوا بين جبالها، ووديانها، وسهولها، فاتخذوا من معالم الأرض دليلاً لهم في ترحالهم، ومن النجوم علامات يهتدون بها في طريقهم، فكان انصراف الكثير من العرب عن الاشتغال بالملاحة في البحر لأسباب، يراها البعض في أن : " بلادهم صحراوية، تندر فيها الأشجار التي تصلح أخشابها لصناعة السفن القوية، وأن بلادهم – باستثناء جبل اليمن- تخلوا من معدن الحديد اللازم لصناعة المراسي والمسامير، ومن الزفت والقطران، وهذا بالإضافة إلى أن الملاحة في البحر الأحمر كانت تكتنفها الأخطار، لكثرة الصخور، والشعاب المرجانية التي تعترض سبيل السفن [(١)]".

ولم يختلف الحال كثيراً بعد الفتوحات الإسلامية الأولى، فقد اتسعت رقعة البلاد، وكثرت السواحل المطلة على الأعداء، فلم يبنوا الأساطيل لمواجهة الأعداء ؛لقلة خبرتهم في البحر أمام البيزنطيين المتمرسين على شؤون البحر، والمعتادين ركوبه وخوض مياهه، وإنما عمدوا إلى انتهاج سياسة بحرية لمواجهة البيزنطيين، فاهتموا بتحصين السواحل، " حتى أصبحت سواحل الشام مبثوثة بالقلاع والأبراج التي كانت أشبه بسور، يمتد بحذاء الساحل، اعتمد عليه العرب في الدفاع عن بلادهم [(٢)]"، ولكن المسلمين لم يمكثوا طويلاً في موقف المدافع عن سواحلهم فقط، فقد جاء عهد عثمان بن عفان – ﷺ-، وأذن لمعاوية –ﷺ - في بناء الأساطيل، فكان يحضر الأخشاب من غابات الأرز بلبنان، وإرسالها إلى الإسكندرية لصناعة السفن، فكانت الخطوة الأولى نحو عالم البحار سلميةً كانت، أم حربية.

وبعد الفتح الإسلامي للأندلس، وإخضاع المسلمين لتلك البلاد، كان لابد من بناء الأساطيل فيها، لحماية سواحلها المترامية الأطراف من هجمات الأعداء، فبحر الظلمات يحدها من الغرب،

---

(١) تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، عبد العزيز سالم، أحمد مختار، ص ١٤.

(٢) المرجع السابق ،ص ١٦.

والجنوب الغربي، والبحر الرومي من الجنوب، فقد أنشأوا بحرية قوية على غرار " أختها في المشرق، وبخاصة في شرق البحر المتوسط، فقد بلغت حداً من القوة الضاربة، بحيث أخضعت جميع جزر ذلك البحر [١]".

" لم يكن للمسلمين منذ أن افتتحوا الأندلس أسطول بحري حربي منظم قبل أن يشرع الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط في بناء دار الصناعة بأشبيلية في سنة ٢٣٠ هـ [٢]"، وقد أُنشأت المصانع على مر العصور في الأندلس، لبناء السفن والأساطيل الحربية وعتادها، وجعلت بعض المدن الساحلية مرافئ ترسو عليها السفن، وتبحر منها، ففي الجزيرة الخضراء تم إنشاء " دار صناعةٍ بناها عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين للأساطيل[٣]"، وكذلك في مدينة شنتمرية التي اتُخِذت " دار صناعةٍ للأساطيل[٤]"، واهتم أصحاب السفن ببعض المدن التي يكثر فيها المعادن، فجلبوا منها بعض عتاد سفنهم، كمدينة شلطيش التي بها "دار صناعة الحديد، الذي يعجز عن صنعه أهل البلاد لجفائه، وهي صنعة المراسى التي ترسو بها السفن [٥]"، ومن المدن الساحلية دانية التي تحط عليها السفن، فالسفن " واردة عليها، صادرة عنها، ومنها كان يخرج الأسطول إلى الغزو، وبها ينشأ أكثره، لأنها دار إنشاءٍ[٦]".

وقد " انتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتي مركب، أو نحوها، وأسطول إفريقية كذلك مثله، أو قريباً منه. وكان قائد الأساطيل بالأندلس ابن رماحس، ومرفؤها للحط والإقلاع بجاية والمرية، وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك، من كل بلد يتخذ فيه

---

(١) الأدب الأندلسي، الشكعة، ص ٤٧٣.
(٢) تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ١٤٧.
(٣) صفة جزيرة الأندلس ص ٧٣.
(٤) المرجع السابق ص ١١٥.
(٥) المرجع السابق ص ١١٠.
(٦) المرجع السابق ص ٧٦.

السفن أسطول، يرجع نظره إلى قائد من النواتية[1]، يدبر أمر حربه، وسلاحه، ومقاتلته، ورئيس يدبر أمر جريته بالريح، أو بالمجاذيف، وأمر إرسائه في مرفئه. فإذا اجتمعت الأساطيل لغزو محتفل، أو غرض سلطاني مهم، عسكرت بمرفئها المعلوم، وشحنها السلطان برجاله، وأنجاد عساكره ومواليه، وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته، يرجعون كلهم إليه، ثم يسرحهم لوجههم، وينتظر إيابهم بالفتح والغنيمة.[2]"، ونتيجة للأساطيل البحرية التي أُنشأت على سواحل الأندلس، والتنظيم الذي حل بها، أخذت تظهر القوة البحرية، وتفرض سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط.

لقد كانت هناك بعض فترات الضعف، وانحسار المد البحري للقوات البحرية الأندلسية، فلم تكن جميع فترات الحكم الإسلامي قوية، بل شابها الضعف في بعض الأحيان، فقد كان في فترة من فترات حكم ملوك الطوائف " البحر فيها للروم دون العرب، بحيث كان يتعذر على العربي الذي يسكن صقلية أن يبحر إلى الأندلس[3]"، وآية ذلك أن المعتمد بن عباد بعث بخمسمائة دينار إلى الشاعر الصقلي مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي، وأراد أن يتجهز بها للطريق، وينظم إلى بلاطه في الأندلس، فلم يجرؤ على الإبحار خشية أن يتعرض للأذى من الأسطول الرومي، وكتب للمعتد بن عباد معتذراً:

لا تَعجَبَنَّ لرأسِي كيفَ شَابَ أسىً | واعجبْ لأسُودِ عَيني كيفَ لمْ يَشِبِ
البَحرُ للرُومِ لا تجْري السَّفينُ بهِ | إلَّا عَلى غُررٍ والبَرُّ للعَربِ[4].

فقد كانت السيادة البحرية في تلك الفترة من حكم ملوك الطوائف ضعيفة، حتى أن المسافر

---

(١) النوتي : الملاح الذي يدير السفينة في البحر، المعجم الوسيط ص ١٠٠٠.

(٢) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، اعتنى بالكتاب : مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة، دمشق سوريا، الطبعة الأولى، ٢٠١٢ م .ص ٢٦١.

(٣) الأدب الأندلسي ،الشكعة، ص ٤٧٤ .

(٤) المكتبة العربية الصقلية، جمع وتحقيق : ميخائيل أمارى ،دار صادر، بيروت، ١٨٥٨م ،ص ٦٢٨ .

عبر البحر لا يأمن على نفسه من هجمات سفن الروم، "فقد كانت الروم والإفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من البحر الرومي، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن، فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله[(١)] ".

لقد بحث الإنسان منذ قديم الزمان عن وسائل نقل تحمله من مكانه، وتوصله إلى مراده في أقل وقت، وجهد مبذول، فكانت من بين صناعاتهم السفن، فالسفن كانت- وما زالت- وسيلة من وسائل المواصلات، فمن خلالها يقطعون البحر، ويختصرون الكثير من المسافات، فلقد كان الأندلسيون يستخدمونها كوسيلة للنقل البحرية بين الجزر الأندلسية، والشمال الأفريقي، إلا أن البعض منهم يهاب ركوبها، ويخشى على نفسه من أهوال البحار، فهذا ابن حمديس الصقلي يصف سفينة تمخر البحر، والملاح يقودها بكل حذر. يقول فيها :

وقَدْ تَشُقّ بنا الأهْوالَ جاريةٌ   تَجرِي بريح متى تسْكُنْ لهَا تَقفِ
لَها شِراعٌ ترى الملاَّحَ يلحَظُهُ   ككَاهنٍ يَقسِمُ الألحَاظَ في كتِفِ[(٢)]

تأملوا البحار، وتعلموا كيفية اجتيازها، فصنعوا السفن، وأعدوا العدة للمسير، فرفعوا الأشرعة، وانتظروا الرياح تجري بهم عبر أهوال البحار وأمواجها العاتية، لتوصلهم إلى بر الأمان على الضفة الأخرى، فالبحر وإن كان يهابون أهواله، إلا أنهم كانوا يركبون السفن عليه، فهي السبيل الوحيد الذي يجتاز بهم مياه البحار. ونجد ابن الحناط[(٣)] لما انقطعت به السبل، وكان لابد عليه من ركوب السفينة، ركبها ووصف رحلته في أبيات. يقول فيها :

ورُحنَا على ألبيرة فاسْتقلَّ بي   جَناحُ عُقَابٍ لَا يرُوحُ إلَى وَكنِ
ولمّا تنكّبنا المنكّبَ لَمْ نجدْ   لنَا مَركباً أهدَى سَبيلاً مِن السُّفنِ

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٥٩.

(٢) ديوان ابن حمديس ص ٣٢٠.

(٣) هو محمد بن سليمان الرُعيني ،أبو عبد الله البصير ،يعرف بابن الحناط ،كان متقدماً في الأدب والبلاغة والشعر ،وشعره كثير مجموع مدح الملوك والوزراء والرؤساء ،مات قريباً من الثلاثين وأربعمائة ،ينظر ترجمته عند الحميدي في (جذوة المقتبس ص٦٩) ،والضبي في (بغية الملتمس ١٢٥) ،والمقري في (نفح الطيب ج٣ ص٢٨٨-٦١١) .

تّرامتْ بِنا الأهوَالُ فِي كُلِّ لُجّةٍ   تخيَّلُها جَواً تجَلّلَ بالدَّجْنِ
ترَى السُّفْنَ فوقَ الموجِ فِيها كأنَّها   تَحدَّرُ من رَعْنٍ وتُوفِي عَلى رَعنٍ[(١)]

كثر عن الشعراء وصف البحر بأهواله المخيفة، وظلماته الرهيبة، وخير من يمثل ذلك ابن الحناط، الذي وصف رحلته على ظهر السفينة، وما كان يكتنفها من مخاطر، فقد عصفت بهم الرياح، وارتفعت الأمواج، وتخبطت السفينة بين تلك الأجواء المخيفة، فالسفينة بين صاعدة على موجة كالجبال، ومنحدرة من أعاليه.

وقد كتب أبو عبيد البكري[(٢)] أبياتاً في ابن عباد، عندما اجتاز البحر مستجيراً بيوسف ابن تاشفين :

يَهونُ عَلينَا مَركبَ الفُلكِ أنْ يَرى   مُحيِي العُلا لِما نَبا مَركبُ الجدِّ
فَجزتَ أُجُاجُ البَحرِ تَبغي زلالَهُ   وَذقتَ جَني الأهْوالِ تبْغِي جَنى الشَّهدِ
يَذكرنَا ذَاكَ العُبَابُ إذَا طَما   نَدى كَفكَ الهَامِي عَلى القُربِ والبُعدِ[(٣)].

ركب ابن عباد البحر إلى يوسف ابن تاشفين، مستجيراً به، وطالباً لنصرته، وذلك في المرة الأولى، وركبه في المرة الثانية مأسوراً منفياً إلى أغمات، وقد قال ابن اللبانة قصيداً عندما ودع ابن عباد، هو يركب البحر مأسور. يقول فيها :

حَانَ الوَداعُ فَضجَّتْ كُلُّ صَارخةٍ   وصَارخ مِن مِفدَاةٍ ومِن فَادِ
سَارت سَفائِنهم والنَّوح يَصحَبَها   كأنَّها إبلُ يَحدُو بِها الحَادِي

---

(١) الذخيرة ج ١، ص ٣٤٩.

(٢) هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب البكري ،يكنب بأبي عبيد ،من مفاخر الأندلس، وأحد الرؤساء الأعلام، توفي في شوال عام ٤٨٩هـ، ينظر ترجمته عند ابن خاقان في (مطمح الأنفس ص ٢٣)، وابن آبار في (الحلة ج٢ ص١٨٠)، والمقري في (النفح ج١ ص١٢٦) .

(٣) الحلة السيراء، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥ م . ج ٢ ص ١٨٦.

كمِ سَالَ في الماءِ مِن دمعٍ وكمْ حَملتْ   تلكَ القَطائعَ مِن قَطعَاتِ أكبَادِ
مَن لِي بِكمْ يَا بَني مَاء السَّمَاءِ إذَا   ماءُ السَّمـــــاءِ أبى سُقيَا الحَشِى الصَّادِي[1]

لقد تغير الوضع في العصر الأندلسي، فبعد أن كان العرب يودعون أحبتهم على ظهور النوق والقافلة تبدأ بالمسير، ويشرع الحبيب بالبكاء على حبيبه، والصاحب يتحرق شوقاً على صاحبه، أخذ الحال يتغير في العصر الأندلسي مع تطور حركة النقل وتنوعها، فابن اللبانة ينوح عند توديعه لصاحبه المعتمد بن عباد وهم يهمون بالإبحار على ظهور السفن (كأنها أبل يحدو بها الحادي) . وهذا أبو جعفر أحمد اللمائي[2] يتمنى المُلك؛ لكي يأخذ كل السفن، ويمنع صاحبه من السفر، فالشوق قد أحرقه، والحب ألهمه، فقال :

قدْ قُلتُ إذ سَار السَّفينُ بـــــهِ   والبينُ ينهبُ مهجتــــــي نَهْبَا
لوْ أنَّ لي مُلكاً أصولُ بـــــهِ   لأخذتُ كـــــلَّ سفينةٍ غصبَا [3].

لم تكن كل السفن للنزهة، أو لنقل الناس وبضائعهم، بل كانت هناك أساطيل حربية مدججة بالسلاح والرجال، وقاذفة باللهب، مستعدة لخوض البحار، وأن تجوب السواحل ؛لتخضع الأعداء، وترسي الأمن، وتنشر الإسلام والسلام، فهذا ابن الحداد يصف أسطول المعتصم بن صمادح :

هامَ صَرفُ الرّدَى بِهَامِ الأعادِي   أن سَمَت نَحوَهُم لها أَجيادُ
وَتَراءتْ بِشَرعِها كَعُيُونٍ   دَأبُها مِثلُ خائِفِيها سُهَادُ

---

(١) ديوان ابن اللبانة، ص٦١.

(٢) هو أبو جعفر أحمد اللمائي الكاتب ،كان أحد أئمة الكتاب وشهاب الآداب ،أديب شاعر ذكره أبو عامر بن شهيد ،وكان في زمن ملوك الطوائف ،ينظر ترجمته عند الحميدي في (جذوة المقتبس ص ٥٧٨) ،والضبي في (بغية الملتمس ١٥٢٣) ،وابن خاقان في (مطمح الأنفس ص٢٠٩) ،والمقري في (نفح الطيب ج٣ ص١٩٦-٥٤٧) ،وابن سعيد في (المغرب ج١ ص ٣٦٧) .

(٣) المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ٣٦٧.

ذاتُ هُدبٍ من المَجَادِيفِ حاكٍ هُدبَ باكٍ لِدَمعِهِ إسْعَادُ
حُممٌ فوقها من البيض نارٌ كُلُّ من أُرسِلت عليه رَمَادُ
ومنْ الخَط[1] في يَدَي كل ذِمرٍ أَلِفٌ خَطهَا على البَحرِ صَادُ [2].

سمت سفن المعتصم بأشرعتها في البحار، وأبحرت للغزو نحو كل غازي، فطارت بأشرعتها بين لج الأمواج، وجنود المعتصم يقظين منتبهين للأعادي، يقفون على جوانب السفينة مستعدين لأي مكروه وطارئ، وقد شبه الشاعر المجاذيف بالأهداب التي تكون على الأجفان، فكما الأهداب تحمي العيون من القذى، فإن المجاذيف تحمي السفينة من الأذى، وقد حموا سفنهم بالسيوف البيض، وبنار النفط الحارقة التي ترمى على الأعداء فتحولهم إلى رماد، فقد حاربوا الأعداء بكل ما أوتوا من قوة الأسلحة، فقطعوهم بالسيوف، وبالرماح رموهم حتى تثنت بعد استقامتها، وأصبحت ملتوية كحرف الصاد، بعد أن كانت كحرف الألف في استقامتها.

وقال ابن حمديس قصيدة يمدح بها الأمير علي بن يحيى، ويصف فيها أسطوله الحربي المستعد لموجهة الأعداء في أي لحظة :

إنَّ اهتمَامَكَ بِالهُدى عَن همّةٍ عُلويّة الإصْـــــــدَارِ والإيرَادِ
وإقَامةُ الأسْطُولِ تؤذنُ بَغْتَةً بقيامةِ الأعـــــــدَاءِ والحُسَّادِ
والحَربُ فـــــــي حربيّةٍ نيرانُها تطأُ الميَـــــــــاهَ بشدّةِ الإيعَادِ
تَرمي بنِفطِ طَيفٍ يُبقي لفحُهُ والشَّمّ منهُ مُحَرّقُ الأَكبَادِ
وكأنَّما فيها دُخَان صَواعِقٍ مُلِئَتْ مِن الإبْراقِ والإرعَـــــادِ [3].

شأن الأمير عظيم، وهمته عالية، فأنشأ الأسطول ؛ليواكب تطلعاته، ويجاري همته، فهذا الأسطول على أتم الاستعداد لمواجهة أعدائه وحساده، فقد جهز السفن بالرجال الشجعان،

(١) الخط: موضع في اليمامة، وهو خط هجر ،تنسب إليه الرماح، مادة خطط، معجم الصحاح، ص ٣٠٣.
(٢) ديوان ابن الحداد، ص ١٨٧.
(٣) ديوان ابن حمديس، ص ١٤٥ .

والنفط الحارق الذي يقتل الأعداء بدخانه قبل نيرانه. وهذا عبد الجليل بن وهبون يصف أسطولاً، فيقول :

يَا حُسنِها يَوماً شَهدتُ زِفافَها	بِنتَ الفضَاء إلى الخَليجِ الأزرَقِ
ورقَاءُ كانتْ أيكةً فتَصوّرتْ	لكَ كيفَ شِئت مِن الحَمامِ الأورَقِ
حَيثُ الغُرابُ يجرُّ شَملةَ عُجبِهِ	وكأنّهُ مِن عِزَّةٍ لمْ يَنعقِ
مِن كلّ لابِسةِ الشّبابِ مُلاءةً	حَسبَ اقتدَارِ الصَّانعِ المتأنّقِ
شَهدتْ لهَا الأعيَانُ أنَّ شَوَاهنا	أسْماؤها فتَصحَّفتْ في المنْطِقِ
مِن كلّ ناشِرةٍ قَوادمَ أجنُحٍ	وعَلى معَاطفِها وهَادةُ سَوذَقِ
زَأرتْ زئيرَ الأسَدِ وهِي صَوامتٌ	وزحفِنَ زحفَ مَواكبٍ في مَأزقِ
ومَجَاذفٌ تحْكِي أرَاقمَ رَبوةٍ	نزلَتْ لِتكرَعَ مِن غَديرٍ مُتْأقِ [(١)].

يتغزل ابن وهبون بسفن الأسطول، وبما حوته من جمال في الصنعة، وقوة بأس في الحروب، ويتعجب من بديع صنعة السفينة كيف كانت في بادئ أمرها شجرة حتى أصبحت سفينة تطير على الأمواج، وتصدر صوتاً مرعباً للأعداء كزئير الأُسد، وإن كانت جماد لا تنطق، وكلما سكنت الريح استخدموا مجاذيفهم؛ ليسرعوا في إبحارهم، فكأن المجاذيف أفاعي خرجت من جحورها؛ لتشرب من الماء.

وليس ببعيد عن هذا قول ابن حمديس، حينما يتذكر مع علي بن يحيى انتصارهم، ويصف قوته التي يمتلكها في البحر، وما تفعل بأعدائه. يقول فيها :

وكمْ طائرٍ منهم قَصصتَ جَناحهُ	فأصبحَ مَسجوناً عَن النَّهضِ في الوَكرِ
لمَّا رأوا أنَّ المخنَّق منهمُ	سددتَ به مجرى التَّنفسِ في الصَّدرِ
أنابُوا وتابُوا عن ذنوبٍ تقدّمت	بزعمهمُ مِن قطعِهم سُبُلَ البَحرِ
فإنْ نشرُوا ما بينهم لك طاعةً	وقدْ طُويت مِنهم صُدورٌ على غَمرِ

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٦٠ .

فعندَك نارٌ تركبُ الماءَ نحْوهم لها زُنُدٌ يقدِحن مِن زُنُدٍ بُتْرِ
ونبلٌ كنبل الأعيُنِ النُّجلِ أُرسِلَتْ تطيرُ بريشٍ مستَعارٍ من النِّسرِ
تنصَّلُ للأعداءِ في الحَرب بالرّدى إذا نُصِّلَتْ هاتيكَ في السِّلمِ بالسِّحرِ
ولنْ يخدعُوا في الحَرب، وهو مُبيدُهمْ فتىً كانَ مولُوداً مِن الحَربِ في حِجْرِ
وأنتَ مِن الأعداءِ أدْهى خَدِيعةً إذَا ما صَدمتَ الجَيشَ في الجَيشِ بالمكر[١]

إذا فكر الأعداء بغزوه أتوه مذعنين خاضعين، وإن كانوا يخفون الحقد والحسد، فقد شد الأمير قبضته عليهم، وضيق خناقهم، فلا مجال لأحد بالتحرك إلا بإذنه، ولا الحرب إلا بأمره، فكم طائر منهم قد قص الأمير جناحه، ورماه بالسجن، فعند الأمير علي قوة جبارة، وأساطيل غازية، تمخر عباب البحر، وتبث الرعب في قلوب الأعداء، وتنشر النار والخراب في ديارهم.

ولقد كانت السفن الحربية في العصر الأندلسي عديدة ومتنوعة، فالأسطول الحربي يتكون من أنواع عديدة من السفن، كما هو الحال الآن في البحار، فهناك البوارج، والمدمرات، وكاسحات الألغام، وحاملات الطائرات. .. وغيرها، ولقد كان في البحرية الأندلسية العديد من القطع الحربية للأسطول، و منها :

- الشواني :ومفردها شونة، وشينية، وشيني، وكانت تعرف أيضاً بالأغربة، أو الغربان، لأنها كانت تطلى بالقار، وكانت ضخمة الحجم، لها قلوع بيضاء، ومجاذيف يبلغ عددها مائة وأربع وأربعين، وهي مزودة بأبراج وقلاع، تستخدم للدفاع والهجوم، وينقسم رجالها بين مجدف، ومقاتل [٣].
- الحربية : وهي من سفن الأسطول التي تصنع خصيصاً لغزو العدو، وكانت تشحن بالسلاح، وآلات الحرب، والمقاتلة، وهي أصغر حجماً من الشواني [٤]، "وأخف حركة، وأسرع لحاقاً

(٢) ديوان ابن حمديس ص ٢٢٦
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٦.
(٣) ينظر إلى تاريخ البحرية الأسلامية في مصر والشام، ص ١٣٣.
(٤) المرجع السابق ص ١٣١.

بالعدو، وكانت الحرابي من أهم قطع الأسطول الأندلسي على عهد بني أمية بالأندلس [(١)]".

- ومن سفن الأسطول الأندلسي "الحراريق، ومفردها حراقة، ولها من اسمها نصيب، وهي مركبة حربية خصصة لإحراق سفن العدو، تقذفه باللهب والنفط فتحرقه.
- وهناك الطرادة المخصصة لحمل الخيل وتتسع لأربعين فرساً، كما أنها تحمل المقاتلين، والذخائر، والمؤن [(٢)]."

وقد وصف ابن حمديس أحد القطع الحربية الأندلسية وهي : الشواني، وكان في وصفه لهذه السفن تعريفاً بهذه السفن، وما بها من عتاد. يقول فيها :

أنشَأتَ شَواني طَائــــرةً وبنيتَ على مَــــــــاءٍ مُدُنا
ببرُوجٍ قِتالٍ تحسَبهـــــا فـــي شُمّ شَواهقِهـــــا قُنَنَا
تِرمي ببروجٍ إنْ ظِهرتْ لعــــدوٍّ مُحرقـــــــة بَطَنَا
وبنفطٍ أبيَضَ تحسَبُهُ مـــاءً وبه تُذكي السّكنَــــا [(٣)].

يمدح ابن حمديس الأمير علي بن يحيى، ويثني على جميل أفعاله، فما صنعه من أسطول ضخم يستحق عليه المدح والثناء، فهذه السفن كالمدن في عظيم حجمها، وكالجبل طولاً في علو أبراجها، وبهذه السفن سلاحهم المدمر، فيرمون عدوهم بالنفط، ويحرقونهم بالنار، فلا يبقى من سفنهم ولا عتادهم شيء.

وهذا أحمد بن محمد بن الأبار- أحد شعراء المعتضد بن عباد- يصف الشواني، ويطلق عليها اسمها الآخر وهو (الغراب)، وذلك لأن السفينة مطلية بالقار الأسود، والشاعر يتعجب من عجيب صنع السفينة، وغريب لونها. يقول فيها :

يَاحَبذَا مِن بناتِ الماءِ سَابحةٌ تطفُو لِمَاَ شَبّ أهلُ النّارِ تُطفئهُ

(١) الأدب الأندلسي، الشكعة، ص ٤٨٩.

(٢) المرجع السابق ص ٤٩٠.

(٣) ديوان ابن حمديس ص ٥١٣.

تُطيرهَا الرّيحُ غِرباناً بأجنِحَةِ الـ حَمائِمِ البِيض للأشرَاك ترزؤُه

مِن كلِّ أدهمَ لا يُلفى به جَرَبٌ فمَا لرَاكِبِهِ بالقَارِ يهنؤُهُ

يُدعَي غُراباً وللفتخَاء سُرعَتُهُ وهوَ ابنُ ماءً وللشَّاهِين جُؤجُؤه [1].

يطرح الشاعر العديد من الصور لهذه السفينة، فمنها ما يتعجب منه كسرعة السفينة، وطيرانها على الماء، من الصور التي يستنكر وجودها في السفينة، فهذه السفينة كالفرس الأصيل، ومع ذلك فهي مطلية بالقار، ولا يكون الطلاء بالقار إلا للأجرب المريض، فالشاعر يحاول أن يستثير خيال المتلقي بهذه الصور المتناقضة بالاسم الحقير، والفعل الأصيل.

وهذا ابن حمديس يصف سفينة حربية، وما بها من عزم وقوة قادرة على إحراق الماء والسفن. يقول فيها :

وَبِحَرْبِيةٍ لها نِفْطُ حَـــــــــرْبٍ يحرقُ الماءَ تارةً باضْطِرامِ

تَرتَمي في مُلوَنَّاتِ لُبُودٍ كَرياضٍ نَوّرْنَ فَوق إكامِ

فهِي تَجلُو عَرائسَ الموتِ سُوداً هَوّلَتْ في عُبابٍ أخْضرَ طَامِ

يَا لهَا مِن جَحافِلَ زاحِفَاتٍ بضَوارِي الأسُودِ في الآجَامِ [2].

لعل ابن حمديس أعجب بالأساطيل الحربية، وأغرم بمشاهدتها وهي تهزم الأساطيل المعادية التي أخرجته من دياره، ووطنه صقلية، "فهو يحس بشيء من التعويض النفسي، وهو يرى أهله الجدد في الأندلس ينزلون الهزائم بأعدائه الذين استولوا على وطنه [3]"، فيصف الأساطيل الأندلسية بوصف دقيق يبعث الخوف، وينشر الفزع في نفس من يتصورها، فهذه السفن قادرة بهمة الأندلسيين العالية على التدمير،فهي تقذف بالحمم، وترمي باللهب، كأنها بركان قد انفجر وتطايرت حممه.

---

(١) نفح الطيب، ج٤ ص ٥٨.

(٢) ديوان ابن حمديس، ص ٤٦٨.

(٣) الأدب الأندلسي، الشكعة، ص ٤٩٥.

ويقول ابن حمديس :

رَأوا حَربيةً ترمي بِنفطٍ لإخمَادِ النُّفوسِ لهُ اسْتعارُ
كأنَّ المُهْلِ في الأنبوب منه إلى شيِّ الوجُوه له ابتدَارُ
إذا ما شُكّ نحرُ العَلجَ مِنه تَعالى بالحِمَام لهُ خُوَارُ
كأنَّ مُنافسَ البُركانِ فِيها لأهوَالِ الجَحيمِ بها اعْتِبارُ
نحاسٌ ينبري منه شِواظٌ لأرواحِ العُلوجِ به بَوَارُ [(١)].

لم يخرج شعراء الأندلس في أوصافهم للسفن الحربية، والأساطيل إلى المعجم القديم، والمصطلحات الصحراوية، فلم يعقدوا مقارنه بين السفينة والناقة على غرار شعراء المشرق، فسفينة الأسطول عند الأندلسيين كالغراب في لونها مما تطلى به من القار، وكالشاهين في أفعالها وسرعة انقضاضها، وهذه السفن ترمي بالحمم والنيران واللهب، كأنها بركان قد انفجر، وهذه السفن تجري بفعل الريح، وإذا سكنت الريح حركوها بالمجاذيف.

وقد تخرج السفينة من معناها الحقيقي إلى معان مجازية مختلفة، كأن يقصد بها الانتقال من حال إلى حال، أو التخبط بالعيش، فيتأمل الشاعر من سفينة النجاة أن تنقذه، وتخلصه مما هو فيه. فهذا أبو زكريا يحيى بن الزيتوني يطلب من المعتضد قضاء حاجته، فيقول :

سَفينةُ الوَعدِ في بَحرِ الوَفا وقَفَت فَامنن بريحٍ مِن الإنجَازِ تجْرِيهَا [(٢)].

وهذا ابن حمديس يرى سفن الآمال، والأعطيات راسيات على بحار الفكر والتأمل، لا يحركها إلا رياح الممدوح بأعطياته، لتجلب معها من خيرات الممدوح، فيدفع الشاعر مع السفن أجود قوافيه، وبديع مدائحه. يقول فيها :

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٢٣٩.
(٢) الذخيرة، ج ٤ ص ٢٦٠.

كَريمٌ إذا هَبّت رياحُ ارتياحهِ جرتْ سُفنُ الآمالِ في بَحرِ سَائلهِ
رَفعْنا عُقيراتِ القَوَافي بِمَدْحِهِ فأطْرَبْنَ أسْمَاعَ العُلى في مَحَافِلهِ [(١)].

وقال ابن حمديس في ساقية ماء مستديرة في بستان، والندامى على جوانبها متقابلون، بحيث يضع ساقيها لمن أراد أن يسقيه منهم في مائها زجاجة مضمنة خمراً، ويقول : كأسك يا أبا فلان، فيجري بها الماء إلى يده، فيتناولها، ويشرب ما فيها، ويرسلها في الماء، فتعود إلى يد الساقي من الناحية الأخرى، وقد شبه الشاعر زجاجة الخمر وهي تجول على الماء بالسفينة، وهم كالمدن التي ترسو عليها. يقول :

وسَاقيةٍ تَسقِي النُّدامَى بِمدّها كُؤوسَاً مِن الصَّهباءِ طَاغِيةَ السُّكرِ
يَعوَّمُ فيها كلّ جامٍ كأنّما تَضَمّنَ روح الشَّمس في جَسدِ البَدرِ
إذا قَصدتْ منّا نَديماً زُجاجَةً تَناولها رفقاً بأنمُلهِ العُشرِ
فَيشرَبُ مِنها سَكرةً عِنبِيَّةً تنّومُ عينَ الصَحو مِنه ومَا يَدرِي
ويُرسِلُهَا في مَائها فيُعيدُهَا إلى راحَتي سَاقٍ على حُكمه تَجرِي
جَعلنا على شُرْبِ العُقَارِ سَمَاعَنَا لُحوناً تغنّيها الطيورُ بلا شِعرِ
وسَاقينا ماءً يَنيل بِلا يدٍ ومشرُوبَنَا ناراً تضيء بلا جَمرِ
سَقانا مَسَرّاتٍ فكانَ جَزاؤُهُ عَليها لَدينا أنْ سَقينَاه للبَحرِ
كأنّا عَلى شطِّ الخَليجِ مَدائنٌ تُسافرُ فِيما بَيننا سُفُنُ الخَمرِ [(٢)].

وهذا ابن عمار تتخبط سفينته في بحر الحياة الهائج، فقال مستشفعاً بالمأمون الفتح ابن المعتمد :

كم أسكَبَ العذبَ الفراتَ على فمي يرمي يدي باللؤلؤ المكنونِ

(١) ديوان ابن حمديس، ص ٣٧١.
(٢) المرجع السابق ص ١٩٣.

والْيَومَ قدْ أصبَحتُ في غَمَراتِهِ   إنْ لمْ تُغِثْني رحمةٌ تُنجِينِي
بَعُدَتْ سَواحِلُه عليَّ وأدركتْ   أمواجُهُ فَتلاعبتْ بِسفِينِي
لا شَكَّ في أنّي غَريقُ عُبابهِ   إنْ لمْ يَمدَّ الفَتحُ لِي بَيمينِ [١].

وبعد ما أشرنا إلى السفن الكبيرة، وقدرتها على خوض البحار، والأساطيل الحربية المقاتلة المحملة بالرجال، والعتاد الحربي، جاء الدور أن نتحدث فيه عن السفن الصغيرة، أو ما يسمى بالزوارق، وهي : "القارب يدفع بالمجاديف [٢]"، ولا يكون الزورق في مياه البحار المفتوحة، وإنما نجده قريب من الساحل، أو في مياه الأنهار، وقد وصفت الزوارق في الشعر الأندلسي، فهذا أبو الحسن حكم بن محمد غلام أبي عبيد البكري يصف زورقاً على نهر، يقول فيها :

أعْجِبْ بِمَنْظرِ ليلةٍ ليلاءِ   تُجنى بها اللذّاتُ فَوق الماءِ
في زَورقٍ يزهُو بغرّةِ أغْيدٍ   يَخْتالُ مثلَ البَانةِ الغَينَاءِ
قَرَنَتْ يَداهُ الشَّمعتين بوجْههِ   كالبَدرِ بَين النَسِر والجَوزَاءِ
والتَّاحَ تَحتَ الماءِ ضَوءِ جَبينِهِ   كالبَرق يَخْفقُ في غَمَامِ سَمَاءِ [٣].

وقد وصف ابن اللبانة في أشعاره زوارق حربية، قد امتلأت بالمحاربين الأبطال، وطارت بهم على صفحة الماء. يقول فيها :

طَارتْ بَناتُ المــاءِ فِيه ورِيشُهـــــا   رِيشُ الغُرابِ وغَيرُ ذَلك شَـــوذقُ [٤]
وعَلى الخَليج كَتيبــــةٌ جَـــرارةٌ   مِثلُ الخَليــجِ كِلاهُمَــــا مُتدفِقُ
وبَنو الحُروبِ عَلى الجَـــوارِيّ التَّي   تَجرِي كَما تَجرِي الجِيَــادُ السُّبَـقُ
خاضتْ غَديرَ الماءِ سَابحـــةً بـــه   فكأنما هي في سَـــــرابٍ أينُقُ

(١) الذخيرة ج ٢ ص ٣٢١.
(٢) المعجم الوسيط، مادة زرق .
(٣) نفح الطيب، ج ١ ص ٦٥٧.
(٤) الشوذق : الصقر أو الشاهين، معجم تاج العروس مادة شذق.

مَلأ الكمَاةُ ظُهورَها وبُطونُهـــــــــا فَأتتْ كَما يَأتي السَّحابُ المُغْــــــــــدِقُ
عَجباً لهَا مَا خلتْ قَبــــــــــل عيَانهَا أنْ يَحملَ الأُسدَ الضَّـــــــــواري زَورَقُ
هَزّت مَجاذِيفاً إليكَ كأنَّهـــــــــا أهْدابُ عَينٍ للرَّقيبِ تُحـــــــــدّقُ
وكأنَّهـــــــا أقلَامُ كَاتـــــــبِ دَولةٍ فِي عَرضِ قِرطاسٍ تُخطُّ وتمشُـــــــقُ
يَا ناصرَ العَلياءِ دُونك مِن فَمـــــــي دُرَّاً على أجْيَــــــــاد جُودِك يُنسَــُــــقُ
وتَقلُ فِيك الشُّهبُ لوْ هِي أحــــــرفٌ واللَّيــــــلُ حِبرٌ والمجَرةُ مُهــــرَقُ[1] [2].

لون الزورق أسود كالغراب، إلا أن سرعته وأفعاله كالشاهين في السماء، ثم أخذ الشاعر بوصف السفن المصاحبه لهم في الحرب، فهذه السفن قد امتلأت بالمقاتلين الأبطال على ظهر السفينة، وفي جوفها، وهم على أتم استعداد للقتال، كالمطر يحمله السحاب، ويلقيه على الأرض بسرعة، فما هي إلا لحظات والمكان يعج بالجنود. وبعد أن وصف الشاعر الزورق، واستعداد الجنود، أشار إلى المجاذيف التي تحرك الزورق، وقد صورها الشاعر بصورتين مختلفتين : الصورة الأولى: شبه فيها المجاذيف بأهداب العين بكثرة هدبها، وسرعة حركتها وحمايتها، والصورة الثانية: جعلها في عدة الكاتب، فكأن الرجل يخط بالمجذاف على الماء، ثم يعود مرة أخرى ليخط بسرعة، كما فعل في المرة الأولى.

وهذا ابن عمار يصف زورقاً على نهرٍ قد صفاء الماء من تحته، فكأنك تنظر إلى السماء في يوم صحو :

وجَاريةٍ مِثل الهِلالِ ألِفتُها على نَهَرٍ مِثل السَّماءِ رقِيقِ
تَجلَّى لنَا الإصْباحُ وَهو زُمُردٌ فألفَتْ عَليهِ الشَّمسُ ثَوبَ عَقِيقِ[3]

---

(١) المهرق : الصحيفة البيضاء يكتب فيها ،المعجم الوسيط، مادة هرق، ص ١٠٢٣.
(٢) ديوان ابن اللبانة ص ١٠١.
(٣) الحلة السيراء، ج٢ ص ١٦٤ .

لقد انتبه شعراء الأندلس إلى اختلاف أشكال السفن، والزوارق، فذكروها في أشعارهم بجميع أنواعها السلمية والحربية، فذكروا أنواع السفن، وألونها، والأشرعة الطائرة بها، والرياح المحركة لها، وسرعة السفينة، وطيرانها على الماء، ولم يذهبوا بأوصافهم بعيداً نحو المشارقة، الذين يحاولون في الغالب أن يربطوا بين السفينة وأوصاف الناقة، بل أبقوا على أوصافهم بين الطبيعة، وما يشاهدونه في مراكبهم.

الأشرعة :

ازدهرت حركة النقل المائي في الأندلس إبان الحكم الإسلامي، وذلك لوجود البحار والمحيطات حولها، وكثرة الأنهار العظيمة التي تجري على أرض الأندلس، لذلك اتخذ أهل الأندلس من السفن وسيلة نقل سريعة بين الجزر الأندلسية، وبين الأندلس والشمال الأفريقي، وغيرها من الأماكن الأخرى.

ومع كثرة مصادر المياه، ووفرة المواد الخام من أشجار، ومعادن، بنيت المصانع، وأنشأت الدور لصناعة السفن وأدواتها، وبنيت على السواحل، وضفاف الأنهار الكبيرة المرافئ التي ترسو عليها السفن، ونتيجة لهذا الازدهار بدأت تظهر على صفحة المياه الأندلسية السفن، والأساطيل الحربية بكثرة، مما جعل السفن على مقربة من المجتمع الأندلسي، والحياة اليومية للإنسان فيها، فهو يشاهد السفينة على ضفة النهر، وبالقرب من الساحل، فتنقل هذه السفن أهلهم وأصحابهم، وتُصدر منتجاتهم وخيراتهم، وتجلب لهم البضائع من البلدان المجاورة، ومع كثرة احتكاك الأندلسيين بالسفن، والتعامل معها، رصدها الكثير من الشعراء في قصائدهم، فمن الشعراء من أحب السفن والبحار، ومنهم من تخوف منها وتشاءم، وقد رصد العديد من الشعراء بعضاً من تفاصيل السفن في العصر الأندلسي من :سرعة، وقوة، ولون، وشكل، ومجاذيف، وآلات حرب، وأشرعة. .. وغيرها.

وفي هذا المبحث- بمشيئة الله تعالى- نناقش العنصر الأساسي المحرك للسفن في ذلك الوقت، وهي الأشرعة، التي تصنع من نسيج قوي ومتين بأحجام مختلفة، فتعلق على صواري السفينة، لتهب فيه الريح، وتدفع السفينة إلى الإبحار، فقد استغلوا الطاقة الكامنة في الرياح لركوب البحر، حتى إذا سكنت الريح عنهم توقفت سفنهم عن الإبحار، قال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾)[1].

---

(١) سورة الشورى آية ٣٢.

قد تسكن الرياح، فتبقى السفينة راسية بانتظار الرياح؛ لتدفعها إلى عرض البحر،وقد تخذل الرياح الملاح فتوجهه إلى وجهة هو لا يريدها، فهذا الشاعر أحمد ابن عبد الولي البِتّي الذي اشتهر بالفسق والمجون، ووصف بأنه " أليف غلمان، وحليف كفر لا إيمان، ما نطق متشرعاً، ولا نظر متورعاً، ولا أعتقد حشراً ولا صدق بعثاً ولا نشراً، وربما تنسك مجوناً وفتكاً، وتمسك باسم التقى، وهو يهتكه هتكاً [(١)]"، فأراد ناصر الدولة أن يريح البلاد والعباد منه، وأن يطمس رسم فسقه فنفاه، فأقلع الشاعر إلى المشرق "وهو جار، فلما صار من ميورقة على ثلاثة مجار، نشأت له ريح صرفته عن وجهته، إلى فقد مهجته، فلما لحق بميورقة أراد ناصر الدولة إماحته، وأخذ ثار الدين منه وإراحته، ثم آثر صفحه، وأخمد ذلك الجمر ولفحه، وأقام أياماً ينتظر ريحاً علها تزجيه، ويستهديها لتخلصه وتنجيه، وفي أثناء بلوته لم يتجاسر أحد على إتيانه من إخوته، فقال يخاطبهم :

أحِبّتَنا الألى عَتَبوا علينا   فأقْصرنا وقدْ أزفَ الوَدَاعُ
لقدْ كُنتمْ لنَا جَذَلاً وأُنساً   فهلْ في العَيشِ بَعدكمُ انتِفَاعُ
أقولُ وقدْ صَدرنَا بَعدَ يومٍ   أشَوقٌ بالسَّفينة أمْ نزَاعُ
إذَا طَارتْ بنَا حَامتْ عَليكمُ   كأنَّ قُلوبَنا فِيها شِرَاعُ[(٢)]."

عاد إليهم بعد أن ردته الرياح لهم، فكأن قلبه شراع تسوقه رياح المحبة إلى أحبته ووطنه، فكم من أيام أنس، ولحظات فرح قضاها بصحبتهم، خرج منها منفي، وعادت به الريح ليلقاهم مجدداً، ولكن لم يحضر أحد لمقابلته على الرغم من الصداقة التي تربطهم، فأنشد هذه الأبيات معاتباً لهم، وواصفاً لحاله، وما آل إليه.

وهذا ابن حمديس يصف اهتمام الملاح بالشراع، فهو يرقبه بعينه، ويحاول أن لا يغفل عنه، فهو الأساس في حركتهم وجريهم على الماء. يقول فيها :

---

(١) المغرب في حلى المغرب، ج ٢ ص ٢٨٩ .

(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٣٠.

وقدْ تَشُقّ بِنا الأهْوالَ جَاريةٌ تَجرِي بِريحٍ مَتى تسْكُنْ لهَا تَقفِ
لهَا شِراعٌ تَرى الملاَّحَ يَلحَظُهُ كَكاهنٍ يُقسمُ الألحَاظ في كتِفِ[١].

لقد أغرم ابن خفاجة بالطبيعة، وحاول استغلالها في جلب السعادة له، فيمرح بين رياض مزهرة، وحدائق عناء، وبساتين مثمرة، حيث الأشجار ندية والأغصان مزهرة، والأطيار مغردة، والأصحاب حاضرة، والسماء غائمة، والطل على أوراق الأغصان لامعة، كل هذا كان من شأنه أن يخلق جواً طيباً، يشرح الصدر، ويشد الشاعر إليه، ليقضي أطيب الأوقات، وأمتعها بعيداً عن المدينة وحضارتها، وقد ركب الشاعر النهر على سفينة، تدفع الرياح شراعها. يقول فيها:

أَلَا ربَّ يَومٍ لي بِبابِ الزَّخَارفِ رَقِيقِ حَوَاشِي الحُسنِ، حُلوِ المَرَاشِفِ
لَهوتُ بِهِ والدَّهرُ وسَنانُ ذَاهِلٌ و غُصنُ الصِّبى ريّانُ لَدْن المَعاطِفِ
أُعَاطي تَحَايا الكأسِ، والآسِ فِتيَةً تخَايلُ سُودَ العُذرِ بِيضَ السَّوالفِ
وذَيلُ رِداءِ الغَيمِ يَخفِقُ، والصَّبا تَخُب، ومَوجُ النَّهرِ ضَخمُ الرّوادِفِ
يَطيرُ بِنا فِيهِ شِرَاعٌ كأنَّهُ إذَا ضَربتهُ الرِّيحُ أحْشاءُ خَائِفِ
وَقَدْ بَلّ أعْطافَ الرّبى دَمع مزنةٍ تَحَيّرَ في جَفنٍ، مِن النَّورِ طَارِفِ [٢].

لقد استغل الشاعر قدرته على التشبيه، وبراعته على ربط الصور، فقد صور منظر الشراع والرياح تلعب به، بأحشاء الخائف الذي ترتعد فرائصه من شدة الفزع.

وهذا أحمد بن محمد بن الأبار، يطيل النظر في السفينة، وسرعة حركتها على الماء، فكأنها إذا اشتدت عليها الريح تطير على الأمواج، وقد حاول الشاعر أن يمزج في وصفه لنا بين لون السفينة وطيرانها، فربط أوصافها بالطيور المحلقة، فهي في لونها الأسود الذي طليت به كأنها غراب، وكأن أشرعتها البيض أجنحة حمامة بيضاء، فهي مستعدة للطيران والتحليق إذا سنحت لها الريح. يقول

(١) ديوان ابن حمديس ص ٣٢٠.
(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٢١٠.

فيها :

يَاحَبَّذا مِن بَناتِ الماءِ سَابِحةً تَطفُو لِمَا شبَّ أهلُ النّارِ تطفئُهُ
تُطيرها الرّيحُ غِرباناً بأجنِحَةِ الـ حَمائِمِ البِيضِ للأشْراكِ تَرزؤُه [1].

ويقول ابن اللبانة مشبهاً الشراع بجناح الطائر :

ومَتى ركبتْ لهَا أعَالي أيكةٍ نَشَرتْ جَناحَاً للرّياحِ مُعرضَاً
والبَحرُ يسْكنُ خِيفةً مِن نَاصرٍ أرْضَى الرِّئاسَةَ بَعد مَوت المُرتضَى [2].

ويقول ابن اللبانة :

طَارت بَناتُ الماءِ فِيه ورِيشُها رِيشُ الغُرابِ وغَيرُ ذَلك شَوذَقُ [3].

لقد استغل الشاعر شاعريته الخصبة في رسم صورة جميلة للسفينة، وقد استفاد من الطبيعة المحيطة به في تشبيهاته، فريش الغراب لوناً للسفينة، والصقر لسرعة إبحارها على الماء، فكأن السفينة تطير بين البحار.

وقد تحل المجاذيف محل الأشرعة إذا سكنت الريح، وتوقفت السفينة عن الحركة، وقد تتكون بعض المراكب والزوارق من مجاذيف فقط، فلا يوجد بها أشرعة تحركها إذا هبت عليهم الريح، فهذا ابن اللبانة يصف زورقاً قد استخدموا فيه المجاذيف. يقول فيها :

هزّت مجَاذيفاً إلَيكَ كأنَّها أهدَابُ عَينٍ للرَّقيبِ تُحدّقُ

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٥٨.
(٢) ديوان ابن اللبانة ص ٨٢.
(٣) الشوذق: هو الصقر أو الشاهين، معجم تاج العروس .
ديوان ابن اللبانة ص ١٠١.

وكأنَّها أقْلَامُ كَاتبِ دَولةٍ في عَرضِ قِرطاسِ تُخَطُّ وتُمشَقُ [1].

لقد أراد الشاعر في هذه الأبيات أن يبين مدى اشتياقه لممدوحه، وأن يظهر له استعجاله في القدوم له باستخدامهم للمجاذيف، وقد إعطى الشاعر للمجاذيف في شكلها عدة صور، فقد شبهها في المرة الأولى بأهداب العين، والثانية بالأقلام، فكأنها تخط بحركتها على صفحة الماء، وتمسح.

(١) ديوان ابن اللبانة ص ١٠١.

الرحلات النهرية :

إنَّ النهر في الطبيعة الأندلسية رافدٌ من روافد الشعر الأندلسي، فقد حضي بعناية فائقة عند الشعراء بما يرمز له من خير، ونماء...

ولقد اتصل الشعراء بالنهر، كما اتصلوا بغيره من عناصر الطبيعة الأخرى، وتأملوا ما به من سحر فاتن، يربط على قلوبهم، ويجذبهم لمحبته، فكم من شاعر وقف على معاني الحسن في تلك الأنهار، ووصفها، وكم من خليفة خرج مع ندمائه مستمتعاً بأجواء الأنهار، ومناظرها الخلابة، ولقد كان أمراء الأندلس والشعراء يخرجون في رحلات نهرية على زوارق تتراقص على وقع الأمواج، وبين ألحان الطبيعة، فهذا طائر ينشد فرحاً، وهذه السحاب تمطر ترحيباً، وهذه النجوم تتلألأ لتضيء عرس الطبيعة بحضورهم.

ولم يكن وصف الرحلات النهرية حكراً على شعراء الأندلس، بل كان امتداداً وتطوراً للشعر في المشرق، فبعد انتقال الخلافة الإسلامية إلى الشام والعراق، انتقل الشعر والشعراء إليهم، وبعد رقي العيش وانتشار الحضارة في الدولة الإسلامية، توجه الشعراء من وصف الصحاري المقفرة إلى وصف الرياض المزهرة، والأدواح الملتفة، والأنهار الجارية، فوصفوا رحلاتهم على الأنهار، إلا أن تشبيهاتهم في المشرق لا زالت مرتبطة بحياة البادية والصحراء، ونجد ذلك في قصيدة لبشار بن برد يصف رحلته النهرية إلى يزيد بن عمر بن هبيرة. يقول فيها :

وَمَلعبِ النُّونِ[1] يَرى بَطنهُ — مِن ظَهرِهِ أخْضرَ مُستَصعَبِ
عَطْشَانَ إنْ تأَخُذُ عَلَيْهِ الصَّبَا — يَفْحُشْ عَلَى الْبوصِيِّ[2] أو يَصْخَبِ
كأنَّ أصْوَاتـــــــــــــــاً بِأرْجَائِه — مِن جُندبٍ[3] فاضَ إلى جُندِبِ[1].

---

(١) ملعب النون هو النهر، لان فيه يلعب الحوت .

(٢) البوصي :الملاح .

(٣) الجندب :نوع من الجراد .

لقد أراد الشاعر في هذه الأبيات أن يصف رحلته إلى الأمير يزيد (بواسط)، فاستهلها بوصف النهر وحاله، فالنهر عطش قليل الماء بسبب ما حل به من الجزر، ولكن إذا هبت عليه الريح تحركت الأمواج، واضطرب القارب، وارتفع هدير الموج بأصوات عجيبة، كأنها صوت الجراد في تحليقه، وازدحامه في السماء.

وبعد ما وصف النهر ، وما به من أهوال، بدأ يصف رحلته على ظهر القارب الذي يركب عليه، ويصفها وصفاً دقيقاً، محاولاً ربط السفينة والرحلة النهرية بالناقة، فهذه السفينة بكر عذراء، لم تركب إذا لم يتمكن منها الملاح، ولكن إذا قوي عليها الملاح وذللها وقادها، فهي كالثيب تحمل في جوفها الفرش والبسط، وهذه السفينة ليست كالناقة التي تحتاج إلى عصا يقودها، فهي تجري من غير ضرب، وبسرعة شديدة كالنعام، ومع ذلك كله، فهي لا تشتكي التعب، والإرهاق، والعطش.

رَكِبتُ في أهْوالِهِ ثيِّباً[٢] إِلَيْكَ أَوْ عَذْرَاءَ لَمْ تُرْكَبِ
لمَّا تَيَمَّمْتُ عَلَى ظَهْرِهَا لمجلسٍ في بَطنها الحوشبِ
هيَّأتُ فيها حينَ خيَّستها مِنْ حَالِكِ اللَّونِ ومِنْ أصْهَبِ
فأصْبحتْ جَاريةً بَطنها مَلآنُ مِنْ شَتَّى فَلَمْ تُضْرَبِ
لا تشتَكي الأينَ إذا مَا انتحتْ تهدِى بهادٍ بعدهَا قلَّبِ
رَاعي الذِّرَاعَيْنِ لِتَحْرِيزهَا من مشربٍ غارَ إلى مشربِ
إِذَا انْجَلَتْ عَنْهَا بِتَيَّارِهِ وارْفَضَّ آلُ الشَّرَفِ الأَحْدَبِ
ذكَرْتُ مِنْ هِقْلٍ غَدَا خَاضباً أو هقلةٍ ربداءَ لم تخضبِ
تُصرُّ أحياناً بسُكَّانِهَا صَرِيرَ بَاب الدَّار فِي الْمِذْنَبِ
بمِثْلِهَا يُجْتَازُ فِي مِثْلِهِ إِنْ جَدَّ جَدَّتْ ثُمَّ لَمْ تَلْعَبِ

---

(١) ديوان بشار بن برد تحقيق : محمد الطاهر ابن عاشور، راجعه وصححه: محمد شوقي أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦ م، ج ١ ص ١٧١ .

(٢) أراد بالثيب والعذراء السفينة .

دُعْمُوصُ نَهْرٍ أَنْشَبَتْ وَسْطَهُ   إن تنعبِ الرِّيحُ لها تنعبِ
إِلى إِمَام النَّاسِ وَجَّهْتُهَا   تَجْرِي عَلَى غَارٍ مِنَ الطُّحْلُبِ [(١)].

يبدو أن الشاعر كان متعلقاً بالرحلة الصحراوية، التي تكون على ظهر الجمال، ففي وصفه لرحلته على النهر حاول أن يربط بين كثير من أوصاف الناقة والصحراء برحلة المركب، فصوت الأمواج كصوت الجراد، وجعل السفينة ثيباً أو عذراء، وهذه المراكب لا تجهدها الرحلات الطويلة، ولا تحتاج إلى الضرب لكي تسير بسرعة، فهي في اندفاعها وسرعة سيرها كالنعامة.

وقد صور بشار بن برد رحلة نهرية إلى الخليفة المهدي، وقد كرر فيها من المعاني الصحراوية السابقة، وكثيراً ما كان يستعير في تشبيهاته لأوصاف السفينة من أوصاف الإبل، والخيل، والنعام. يقول فيها :

وعَذرَاءُ لا تَجري بِلحمٍ ولا دَمٍ   بَعِيدَةِ شَكْوَى الأيْنِ مُلْحَمَةِ الدَّبْرِ
إِذَا طعنتْ فيها القبُولُ تشَمصتْ   بفُرسَانها لاَ في سهولٍ ولا وعِرِ
وإِنْ قَصَدَتْ دَلَّتْ عَلَى مُتَنَصِّبٍ   ذليلِ القُرى لا شَيءَ يُفري كَما تفرِي
تُلاعِبُ نِينانَ البُحُور وربَّما   رأيتَ نُفوسَ القَومِ مِن جَريها تَجرِي
تَحملتْ مِنها صَاحِبي ومُنصفِي   تزُفُّ زفِيفَ الهيقِ[(٢)] في البَلدِ القَفرِ
إِلَى مَلكٍ مِنْ هَاشِمٍ في نُبُوءَةٍ   ومِن حِميرٍ في المُلكِ والعَددِ الدَّثرِ [(٣)].

فقد ركب الشاعر سفينة عذراء جديدة لم تركب من قبل، وهذه السفينة لا تشتكي التعب والإعياء، وهذه الخدوش على ألواح خشب السفينة، كملحمة الدبر الذي أشار إليها محمد الطاهر عاشور بقوله :"والدبر قشر جلد الحيوان من أثر جرح أو احتكاك، وأطلقه هنا على أخداش لوح

---

(١) ديوان بشار بن برد ج ١ ص ١٧١.
(٢) الأهيق: الظليم، صار هيقاً: مفرط الطول، والظليم هو ذكر النعام، المعجم الوسيط، مادة هيق ص ١٠٤٦.

(٣) ديوان بشار بن برد، ج ٣ ص ٢٨٠.

السفينة، فإنه يطلى بالقار ليصح، فيجعل ذلك إلحاماً [(١)]"، وقد غلب على الشاعر معجم الصحراء في ألفاظه، وصوره، وتشبيهاته، فقد استخدام (الشمص)،وهي أن "ساقها سوقاً عنيفاً حتى أعيت [(٢)]"،واستخدم الطعن لريح القبول التي تحرك المركب، وتجعله يجري بسرعة.

ويظهر على أوصاف الشاعر أنه وازن بين السفينة والناقة، "فقد ردد أن السفينة لا تتكون مما تتكون منه الناقة، ولا تسير فيما تسير فيه، ولا تتألم ولا تتعب، وإنما تتألف من ألواح لا لحم عليها، ولا دم فيها، وتجري في وسط النهر، وشاكل أيضاً بين زمام الناقة التي تقاد به، وبين دفة السفينة التي ترشد بها.[(٣)]"، ونلاحظ أنه قد أوغل في استخدام أوصاف الإبل، والصحراء على رحلته النهرية.

أما في الشعر الأندلسي، فقد طبعوا رحلتهم النهرية بطابع خاص، فقد ذكروا رحلتهم النهرية، وجعلوا أوصافها من بين الطبيعة المحيطة بهم، والقارب الذي يركبون عليه، والنهر الذي يشقون أمواجه بقواربهم، فهذا ابن خفاجة يصف رحلة نهرية له على قارب، وقد جعلها قبيل الأصباح، وذلك خشية أن يراه الحساد. يقول فيها :

وَانسابَ بي نَهرٌ يَعُبُّ وَزَورَقٌ ... فَتَحَمَّلَتني عَقــــــرَبٌ وَحُبابُ
تُجلى مِنَ الدُنيا عَروسٌ بَينَنا ... حَسناءُ تُرشَفُ وَالمُـــدامُ رُضابُ
ثُمَّ اِرتَحَلتُ وَلِلسَماءِ ذُؤابَةٌ ... شَيباءُ تُخضَبُ وَالظَـــلامُ خِضابُ
تثني مَعاطِفي الصَبابَةُ وَالصِـــبى ... وَاللَيلُ دونَ الكاشِحينَ[(٤)] حِجابُ
حَيثُ اِستَقَلَّ الجِسرُ فَـــوقَ زَوارِقٍ ... نُسِقَت كَما تَتَواكَبُ الأَحبـــابُ

(١) ديوان بشار بن برد ج٣ ص ٢٨٠.
(٢) المعجم الوسيط مادة شمص، ص ٥١٣.
(٣) وصف البحر والنهر في الشعر العربي، ص٦٤.
(٤) الكاشح : العدو المبغض، مادة كشح، المعجم الوسيط ص ٨١٨.

لَم تَستَبِق وَكَأَنَّها مُصطَفَّـــــــةً دُهمٌ تُنازِعُكَ السِّباقَ عِـــــــرابُ [1].

لقد دفعت المحبة الشاعر للسير إلى صاحبه رغم مشقة السفر، فركب الزورق، وتوجهه نحوه عبر النهر، مشتاقاً إلى صاحبه، فرحاً بالذهاب إليه، متطلعاً لملاقاته أشد من فرح الزوج بعروسه الحسناء، وقد قاده الشوق إليه، وسهلت المحبة رحلته، فصعد على زورق تعطف كذنب العقرب، فندفع عبر أمواج النهر المتلاطمة في وقت كانت الشمس فيها قد اختفت، ونور الشفق بادئ، فهو قبل الليل أو الصبح، ولكن كان الظلام حاجباً لهم عن أعين الحساد، ثم عاد يصف أشكال الزوارق وهي مصطفة، كأنها خيول سود مستعدة للسباق.

إنَّ احتذاء شعراء الأندلس للمشارقة لم يمنعهم " من أن يكون لهم خصائص وأغراض لم تكن للمشارقة، فإن البيئة الأندلسية التي كانت تختلف من البيئة المشرقية اقتضت أن يختلف الأدب في الأندلس من الأدب في المشرق في نواحي عدة. .. فإن الشعر في الأندلس كان أكثر رقة مما كان عليه المشارقة، والوصف في الشعر الأندلسي كان أوسع مدى، وأكثر صور بلاغية مما نجد في الشعر المشرقي[2]"، فنجد أن شعراء الأندلس لم يستعينوا بالمعجم القديم الذي نجده عند بشار ابن برد وغيره في ذلك العصر ،الذين استدعوا فيه أوصاف الناقة والنعام، وجعلوها للقوارب، وإنما كان شعراء الأندلس قريبين من بيئتهم، وطبيعتهم المحيطة بهم، فوصفوا القوارب التي تقلهم، والنهر الذي يشقونه،والريح التي تجري بهم، والأشجار التي تظلم، والسحاب التي تمطر عليهم، وغيرها من جمال طبيعتهم.

وهذا ابن خفاجة، يعجب بأبيات قالها ابن صارة في رحلة على نهر ويعارضها، فقد ركب "أبو محمد ابن صارة مع أصحاب له في نهر إشبيلية في عشية، سال أصيلها على لجين الماء عقياناً، وطارت زواريقها في سماء النهر عقباناً، وأبدى نسيمها من الأمواج والدارات سرراً وأعكاناً، في زورق يجول

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٢٦٥.

(٢) المنهج الجديد في الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ج ١ ص٣٣٢.

جولان الطرف، ويسود أسوداد الطرف، فقال بديهاً :

تأمّلْ حَالنا والجَوُّ طَلَقٌ محيّاهُ وقدْ طَفَـــلَ المسَاءُ
وقدْ جَالتْ بنا عَذراء حُبلى تُجاذبُ مِرْطَها ريـــحٌ رُخَاءُ
بَنهرٍ كالسَّجنجلِ[١] كَوثريٍ تُعَبّسُ وجْهها فِيه السَّمَــــاءُ [٢].

واتفق أن وقف أبو إسحاق بن خفاجة على القطعة، واستظرفها واستلطفها، فقال يعارضها على وزنها، ورويها، وطريقتها :

ألَا يَا حَبَّذا ضَحِكُ الحُمَيَّا بحانَتِها وَقدْ عَبَسَ المَسَاءُ
وَأدهَمُ مِن جِيادِ المَاءِ نَهْدٌ تُنازعُ جُلّهُ رِيحٌ رُخَاءُ
إذا بَدَتِ الكَوَاكِبُ فيهِ غَرقَى رَأَيت الأرض تحسُدُها السَّماءُ [٣].

لم يبتعد ابن خفاجة في وصفه عن ابن صارة، فكلاهما قد أعجب بطبيعته، وأجوائها اللطيفة، فوصفوا القارب، ودفع الريح له على صفحة الماء النقي الصافي، حتى كاد أن يصبح النهر كالمرآة، فالنهر يعكس ضوء النجوم، فكأنها غرقى حال انعكاسها على صفحة الماء، فتغبط السماء الأرض لتجسد العالم العلوي فيها.

لقد كان ملوك الطوائف يخرجون إلى الطبيعة، ويستمتعون بمناظرها الفاتنة، وكانوا يركبون الأنهار، ويتأملون ما فيها من جمال، وقد حرصوا على أن يصحبوا معهم الشعراء والندماء، ويتطارحون الشعر، ويستمعون إليهم، فيجيزون المبدع الناظم، ويشحذون همم الشعراء للنظم، ومما يحكى عن المعتمد أنه أول ما تعرف إلى زوجته (اعتماد الرميكية) كان عن طريق الشعر في رحلة نهرية، فقد ذكر المقري " أنه ركب المعتمد في النهر ومعه ابن عمار وزيره، وقد زردت الريح النهر،

(١) السجنجل : المرآة والذهب وسبائك الفضة . المعجم الوسيط ص ٤٣٥.
(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ٣١٨ .
(٣) ديوان ابن خفاجة ص ٣٦٧.

فقال ابن عباد لابن عمار :أجز:

(صَنع الرّيحُ مِن الماء زَرَدْ)

فأطال ابن عمار الفكرة، فقالت امرأة من الغسالات :

(أيُّ دِرعٍ لِقتالٍ لوْ جَمَدْ)

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به، مع عجز ابن عمار، ونظر إليها، فإذا هي صورة حسنة، فأعجبته، فسألها :أذات زوج هي؟ فقالت :لا، فتزوجها، وولدت له أولاده الملوك النجباء[1]."

ومن الرحلات النهرية ما ذكره صاحب النفح، أن "المستعين بن هُود ملكَ سرقسطة والثغور، ركب نهر سرقسطة يوماً لتفقد بعض معاقله، المنتظمة بجيد ساحله، وهو نهر رقَّ ماؤه وراق، وأزرى على نيل مصر، ودجلة العراق، قد اكتنفته البساتين من جانبيه، وألقت ظلالها عليه، فما تكاد عين الشمس أن تنظر إليه، هذا على اتساع عرضه، وبعد سطح مائه من أرضه، وقد توسّط زورقه زوارق حاشيته توسُّطَ البدر للهالَة، وأحاطت به إحاطة الطفاوة[2] بالغزالة، وقد أعدوا من مكايد الصيد ما استخرج ذخائر الماء، وأخاف حتى حوت السماء، وأهلة الهالات طالعة من الموج في سحاب، وقانصة من بنات الماء كُلَّ طائرة كالشهاب، فلا ترى إلا صُيُوداً كقصد الصوارم، وقدود اللهاذم، ومعاصم الأبكار النواعم، فقال الوزير أبو الفضل ابن حسداي، والطرب قد استهواه، وبديع ذلك المرأى قد استرق هواه :

لِلّهِ يومٌ أنِيقٌ واضِحُ الغُرَرِ ... مُفضَّضٌ مُذهبُ الآصَال والبُكرِ
كأنّما الدَّهرُ لمّا سَاء أعتبَنا ... فِيه بعُتبى فَأبدى صَفْحَ مُعتذرِ
نَسيرُ في زَورقٍ حَفّ السُّرورُ بهِ ... مِن جَانِبيهِ بِمنظومٍ ومُنتثِرِ

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٢١١.

(٢) الطفاوة :الدارة حول الشمس والقمر ،المعجم الوسيط ص ٥٨١.

مَدَّ الشِّراعُ بِه قَداً عَلى مَلِكٍ بَذَّ الأوائِلَ في أيَامِهِ الأخَرِ
هُو الإمَامُ الهُمامُ المستَعينُ حَوَى عَليَاء مُؤتمنٍ في هَدِيٍ مُقتدِرِ
تَحوي السَّفينةُ مِنه آيةً عجَباً بَحرٌ تَجَمّعَ حتى صَار في نَهَرِ
تثَار مِن قعْره النّينانُ مُصْعدةً صَيداً كَما ظَفر الغَواصُ بالدُّررِ
وللنّدامى بِه عَبٌّ ومرتَشَفٌ كالرِّيقِ يعذبُ في وِرْدٍ وفي صَدَرِ
والشّرْبُ في وُدّ مَولى خُلقه زَهرٌ يَذكُو وبَهجتُهُ أبْهى مِن القَمرِ [1].

كثيراً ما تغنى شعراء الأندلس بأجوائهم الجميلة، وشمسهم الدافئة التي تخترق بشعاعها النهر، فتكسوه ذهباً يجري بين الرياض، ونجد في هذا النص ما يجمله من سهولة في الألفاظ، ودقة في المعاني الواضحة، فقد عزا بعضهم الباحثين سر سهولة ألفاظ الشعر في الأندلس، وعذوبتها إلى " سهولة طباعهم، ولين أخلاقهم، وإرسالهم القول من غير تكلف ولا تصنع، فجاء أكثره جارياً مع الطبع. ..وأما ما يميز معانيهم : فإننا نجد معاني الشعر الأندلسي واضحة جليلة بعيدة عن تعمق الفلاسفة، وتدقيق الحكماء؛ لقلة المشتغلين منهم بالحكمة، وبغض العامة لها، وغلب على الشعر الأندلسي الخيال والبديع.[2]"

ونلاحظ في وصف الرحلة النهرية، أنها كانت بداياتها في المشرق لا تتجوز كونها وصفاً للنوق، وحياة الصحراء، حتى يظن البعض أن القصيدة التي قيلت في وصف رحلة نهرية، أنها في وصف رحلة صحراوية قديمة، وتطور هذا الوصف حتى أخذوا بالتخفف من المعجم القديم، ومن وصف الرحلة الصحراوية القديمة، إلى أن وصل الحال في الشعر الأندلسي إلى مرحلة النضج، وتخلص الشعراء من ربط السفينة بالناقة، والحياة الصحراوية، وانتقل الوصف إلى وصف المركب، وتأمل مناظر الجمال الخلابة، والإعجاب بالطبيعة، والأجواء المصاحبه لها، وذكر الملاح، والريح التي تسير

(١) نفح الطيب ج٣ ص ٢٦٦.
(٢) الأدب الأندلسي التطور والتجديد، محمد عبد المنعم خفاجي ،دار الجيل، بيرون، لبنان، الطبعة الاولى، عام ١٩٩٢ م، ص ٣١٠

بهم، ولون القارب، وشكل الشراع إذا هبت عليه الريح، وغيرها من أجزاء القارب، ومن عناصر الطبيعة المصاحبه لهم في رحلتهم.

الفصل الثانـي

الصورةُ في شعرِ المائياتِ

- **مفهوم الصورة :**

لقد ارتبط الشعر العربي منذ بدايته بالصورة، "إذ إن الصورة الشعرية هي أبرز مميزاته[(١)]"، فالشعر العربي "لا يعتمد أصحابه على فن الموسيقى فقط، وما يحدثونه فيه من قواعد والتزامات دقيقة؛ بل هم يعتمدون على فن آخر، لعله أكثر تعقيداً ، وهو فن التصوير.[(٢)]"

إن الصورة عنصر مهم، وأداة جوهرية في بناء العمل الأدبي، فالأديب يوظف الصورة لترسم رؤيته الشعرية، فالصورة تعد "الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة. ..في معناها الجزئي أو الكلي، فما التجربة الشعرية كلها إلا صورة كبيرة ذات أجزاء، هي بدورها صورة جزئية تقوم من الصورة الكلية مقام الحوادث الجزئية. ..فالصورة جزء من التجربة، ويجب أن تتآزر مع الأجزاء الأخرى في نقل التجربة.[(٣)]"

واستخدام الصورة في الشعر للتعبير عن أبعاد الرؤيا الشعرية عند الأديب موجود منذ القدم، فالشعر "قائم على الصورة منذ أن وجد وحتى اليوم، ولكن استخدام الصورة يختلف من شخص إلى آخر [(٤)]"،فالصورة مستخدمة في الشعر الجاهلي، وحتى يومنا هذا، ولكنها تختلف في طريقة تناولها من شخص إلى آخر. ويجتهد الأديب في إنتاجه للصورة الأدبية، وإخراجها بحلة جديدة، باعثاً فيها الحياة والحركة، "فالصورة الأدبية بشتى ألوانها مادية ومعنوية، هي خلاصة جهد الأديب في عمله القائم على حسن التصوير الأدبي، بعرض لغوي ينتقل بالمعنى من حيز ما ربما بارد، إلى فضاء يعج بالحياة[(٥)] "، مستخدماً قدراته على التصوير، وإشراك مشاعره، وانفعالاته في تكوين

---

(١) مرجعية الصورة في شعر الطبيعة، لمياء عبد الحميد القاضي ،مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ٢٠١٢م. ص ١٨.

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط ١٠، ص ١٤.

(٣) النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، نهضة مصر، مصر، ط ٧، ٢٠٠٧ م، ص ٤١٧ .

(٤) فن الشعر، إحسان عباس دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، الطبعة الخامسة، ١٩٩٢م، ص ١٩٣.

(٥) في نظرية الأدب، عمر بن قنينة ،مكتبة الشقري، الرياض، ط ١، ٢٠٠٦ م، ص ١٣٢.

الصورة، "فالأديب حين يبدع الأثر الأدبي لا يكون في ذهنه حال المتلقي فحسب، ولكنه يجمع إلى هذا اهتماماً بالغاً بأداء ما في نفسه، وتجسيد مشاعره وانفعالاته بألفاظ، وإيقاع، وصور.[١]"

وشعرنا العربي يزخر بالصور، " ولعل أول النصوص التي لامست مفهوم الصورة في نقدنا العربي القديم ما ورد في قول الجاحظ، وهو يتحدث عن الشعر[٢]" حيث يقول: " الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير[٣] "، فقد جعل الجاحظ الشعر قسيم النسج والتصوير في قدرته على تحويل الأشياء البسيطة إلى مادة محسوسة جميلة، "فقد أضفى- الجاحظ - على الشعر نوعاً من التقديم الحسي، وجعله قريناً للرسم، ومشابهاً له في طريقة التشكيل، وإن اختلف عنه في المادة التي يصاغ بها، ويصور بواسطتها [٤]."

ونجد اهتماماً كبيراً بالصورة في النقد الحديث، فالصورة "هي التركيب القائم على الإصابة في التنسيق الفني الحي لوسائل التعبير التي ينتقيها وجود الشاعر – أعني خواطره ومشاعره وعواطفه – المطلق من عالم المحسات، ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى، في إطار قوي نام محس مؤثر، على نحو يوقظ الخواطر، والمشاعر في الآخرين [٥]."

وفي هذا الفصل- بمشيئة الله تعالى- سوف يتطرق البحث إلى دراسة مصادر الصورة وتشكلها، وأنواع الصورة في شعر المائيات.

---

(١) الصورة بين البلاغة والنقد، أحمد بسام ساعي، المنار للطباعة والنشر ،دمشق، ط ١، ص ٣١.

(٢) الصورة الفنية في شعر الشماخ، محمد علي ذيب، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠٣ م، ط ١، ص ١٣.

(٣) الحيوان، عمر بن بحر الجاحظ ،تحقيق، عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط٢ ،١٩٦٥م ،ج ٣، ص ١٣٢.

(٤) مرجعية الصورة في شعر الطبيعة، لمياء القاضي، ص ١٩.

(٥) البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، علي علي صبح ،المكتبة الأزهرية للتراث ،مصر ،١٩٩٦ م، ص ١١.

- **مصادر الصورة وتشكلها :**

للشاعر مصادر إلهام يستقي من منابعها إبداعه، ولكل شاعر مصدره الخاص، وأسلوبه الذي يميزه عن غيره في استخدام صوره الشعرية، لأن مصادر الإلهام هي المنطلق الذي ينطلق فيه خيال الشاعر إلى عالم رحب لا تقيده حدود، وإذن " فمصادر الصورة هي كل ما يمكن أن يعتمد الشعراء عليها في إبداعاتهم في تكوين الصورة، ولذا فإن إبداع الصورة يتأثر تبعاً لتأثره بمصدر دون غيره، أو حضوره أكثر من غيره في هذا الموقف أو ذاك. ..وكل شاعر يصدر في شعره عما رآه، وعلمه، وتربى عليه، متأثراً في ذلك باستعداداته الفكرية والفطرية [(١)]"، فيعمد الشاعر إلى "إقامة علاقات بين الأشياء الملموسة والمشاعر المتدفقة، ليقدم إلى القارئ عالماً رحباً من التصوير الفني الممتع[(٢)] "، وتجتمع في العصر الأندلسي الكثير من مصادر الإلهام المختلفة التي تؤثر في شعراء ذلك العصر . ومن تلك المصادر الملهمة لشعراء الأندلس ما يلي:

أولاً / الطبيعة:

تعد الطبيعة ركيزة من ركائز الإلهام في جمال الصورة في القصيدة الأندلسية، فقد حاول الشعراء الاستفادة من الطبيعة بصورها المختلفة، والإحاطة بها، والتفاعل معها، ورسمها في أشعارهم بعد مزجها بخيالهم الخصب، فقد كانت الطبيعة ملجأً للشعراء في حال فرحهم وحزنهم، فالشاعر الأندلسي تتفتح عينه منذ ميلاده، وقد " أحاطت به الطبيعة بمظاهرها المختلفة، ويحيا الإنسان في بيئته، وقد شكلت الطبيعة أحد أهم المؤثرات في تكوينه. والفنان هو أكثر طبقات المجتمع رهافة في استقبال مظاهر الطبيعة، ثم وبعد عملية الاستقبال تلك تتم عملية الإبداع [(٣)]"، فيطبع الشاعر تلك المصادر بطابعه الخاص التي تميزه عن غيره، إما بتصوير الطبيعة بشكل مباشر، أو تقديمها في حلة بلاغية، تبرز بعض عناصرها كما يريد الشاعر.

---

(١) مرجعية الصورة، لمياء القاضي، ص ٢٢٣.

(٢) عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، فوزي خضر، البابطين، الكويت، ٢٠٠٤م، ص ١٦٨.

(٣) مرجعية الصورة، لمياء القاضي، ص ٢٤٧.

وهذه الطبيعة تنقسم إلى قسمين:

(الطبيعة المائية التي تصدرها الطبيعة، والطبيعة المائية الصناعية)

فالأولى يقصد بها: كل عنصر من عناصر الطبيعة التي تتفاعل مع الماء من بحار، وأنهار، وسحاب، وبرق، ورعد ... وغيرها، فقد تتشارك الطبيعة مع الشاعر في حمل همومه، فيلقي أحزانه مع أمواج البحار، ويرسل حنينه مع السحاب، ليتساقط سلاماً على موطنه، أو تشاركه في أفراحه، فتغرد الطيور، وترقص الأغصان، وتمطر السماء، فهذا ابن حمديس يربط بين صفات البحر المضطرب، والناقة الهائجة:

وَمُنَسَّمٍ الآذيِّ يُعنِقُ شَطُّهُ   من نكبةٍ هوجاءَ حُلّ وثاقها
وكأنَّما رأت الحِقاقَ فعجعجت   فيها القرومُ وأزبدت أشداقها[١].

لقد استخدم الشاعر الناقة القريبة من ذهن العربي، ليصف أحوال البحر الهائج، فقد شبه ابن حمديس البحر المضطرب بالناقة التي عصفت بها الريح، ففرقتها عن صغارها، فهاجت الناقة ترغي، وتزبد بحثاً عن صغارها، وهي في هيجانها كالبحر في اضطراب أمواجه وزبده.

ونلمس عند ابن خفاجة إعجابه بمنظر النهر، وانسياب مائه، فالمياه تلتف بين الرياض والبساتين، كما يلتف السوار على معصم الحسناء .يقول فيها:

للهِ نهرٌ سالَ في بطحَاء   أشْهى وُروداً مِنْ لَمَى الحَسنَاءِ
مُتَعَطفٌ مِثلَ السِّوَارِ كَأَنَّهُ   والزَّهرُ يكنُفُهُ مَجَرُ سَمَاءِ
قَد رَقَّ حَتى ظُنَّ قَرساً مُفرَغاً   مِن فِضَّةٍ فِي بُردَةٍ خَضرَاءِ[٢].

لقد أحب الأندلسيون الربيع، ونواوير الأزهار، وأبدعوا في وصفها، ووصف الطبيعة من

(١) ديوان ابن حمديس ص ٣٢٨.
(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٣٥٦ .

حولها، فهي عناصر مكملة لبعضها البعض، فبقطر السماء، وجريان الأنهار تزهر الأشجار، وتورق الأغصان. يقول أبو الوليد الإشبيلي:

انْظُر إلى النْهَرِ واعجَب لِحسنِ مَرآه وأرضَــــهْ
قـــدْ حَلَّ بَين رِياضٍ مِــن النَّواويرِ غَضَّـــــهْ
فِيهـــــا بهــــارٌ بَهِيٌ بَــــدا فزيَّن أرضَــــــهْ
كأنّــــه جِيدُ تِبْر يلُوح في طَوْق فِضَّـــــهْ
ونَرجسِ مَثل لَــــون ال مَهجُـــورِ فارَقَ غَمضَــــــهْ
وأُقحُــــوانٌ أنيــــــقٌ بُـــــرودُهُ مُبْيَضَّـــــهْ
قـــدْ طَّرزَتْها بتبـــــرٍ عَينُ النَّـــدى المرفَضَّهْ
وباقِلاءٌ قدْ آبـــــدَى بنَورهِ الحُســـنَ مَحضَهْ
كأنّما هُو خـــــالٌ بخدِّ بيضَاءَ بَضَّـــــهْ
كأنّما النَهر أُفق السَّ ماءِ عانَقَ أرْضَــــــهْ [(١)].

إنَّ عناصر الطبيعة الأندلسية كثيرة، لذا أطال الشعراء فيها النظر، وتوقفوا متفكرين في بديع صنعها، فهذا ابن حمديس يشاهد النجوم، وهي تختفي عن الأنظار بنور الصباح. يقول فيها :

والصّبح قَدْ دَفَعَ النّجومَ عُبَابه كأنَّه سَيلٌ يَسُوقُ حَبابَا [(٢)].

لقد رسم الشاعر لوحة فنية من البيئة المحيطة به، وحاول الربط بين حال النجوم في السماء، وبين السيل على الأرض، فالنجوم قد أفل نورها بنور الصبح الذي دفع النجوم عن الأفق، كما يدحرج السيل حبابه عن النظر.

وابن خفاجة تَأسِر عينيه مناظر الأشجار في البساتين، وجدول الماء الذي يلتف حولها، فيصور هذا

---

(١) البديع في وصف الربيع، ص ٤٧.
(٢) ديوان ابن حمديس ص ٧.

الجمال بالمرأة الحسناء التي شد خصرها. يقول فيها:

وَأَراكَةٍ ضَرَبَت سَماءً فَوقَنا تَندى وَأَفلاكُ الكُؤوسِ تُدارُ
حَفَّت بِدَوحَتِها مَجَرَّةُ جَدوَلٍ نَثَرَت عَلَيهِ نُجومَها الأَزهارُ
فكَأَنَّها وَكَأَنَّ جَدوَلَ مائِها حَسناءُ شُدَّ بِخَصرِها زُنّارُ [(١)].

إن كثرة الأنهار ، والجداول، ومنابع المياه دليل على كثرة الأمطار، فابن خفاجة يقف متأملاً سحابةً ماطرةً، قد ساقها الريح إلى أرضهم بكل هدوء، فهذه الريح كالمطية المأمونة الظهر، فلا تفتر عن السير ،ولا تتعثر. يقول فيها :

وخَميلَةٍ قد أخمَلَتْ سِربالَها كفّا صَناعٍ، تَستَهِلّ، هَتُونِ
طَوَتِ السُّرَى، والبَرقُ سوطٌ خافقٌ بيَدِ الدُّجى، والرّيحُ ظَهرُ أمُونِ
بُشرَى تهَادَى في وِشاحٍ مُذْهَبٍ قَلِقٍ، وتَسحَبُ من ذُيولٍ جُونِ
طبِعتْ على النوارِ بيضَ دراهمٍ مدّتْ إليكَ بها بَنانُ غُصُونِ
فَرَفَلتُ، حيثُ تَعَثّرَتْ بي نَشوَةٌ في ثوبِ وَشيٍ، للرّبيعِ، مَصُونِ
والأرضُ تسفُرُ عن وُجوهِ محاسنٍ بيضٍ، وتَنظُرُ عن عُيونٍ عِينِ [(٢)].

ويقف أبو الحسن بن علي الأشجعي[(٣)] على روض في يوم طش[(٤)]، وقد صقل الطل أغصانها، وأظهر جمال نوارها، وأذهب ما عليها من غبار كالنمش، وسقى أشجارها فلا تشتكي العطش. يقول فيها :

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٣٥١.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٣ .

(٣) هو علي بن عبد الله بن علي المعروف بابن الاستيجي، ذكره الحميدي مرتين وتصحف سمه في الموضع الثاني إى الأشجعي، كان فقيه نحوي ،شاعرر ،من أهل قرطبة ،سكن إشبيلية،من شعراء القرن الخامس . ينظر ترجمته عند الحميدي في (جذوة المقتبس ص٤٥٦-٥٧٨) والضبي في (بغية الملتمس ١٥٢٨)، وابن بسام في (الذخيرة ج٢ ص١٥٨) .

(٤) الطش : المطر الضعيف .

وَقَفتُ على الرَّوضِ في يَوم طَشْ ... وللدُّجنِ ظِلٌّ كظلِّ الغَبَش

وقدْ صَقل الطلُّ نُواره ... وأذهبَ ما فوقَه مِنْ نَمَشْ

فمَا غُصُنٌ يشْتكي عُطلةً ... ولا شَجرٌ يتشكَّى عَطَشْ

ترَى النبتَ صِنفينِ من بَهجةٍ ... فمِن مُستقلِّ ومِن مُنعرِشْ

ومِن لابسٍ ثَوبَ طاؤُوسة ... ومِن مترِدٍ بَوشِي الحَنَشْ

وفَصٍّ من النَّور لمْ ينتقِش ... وثانٍ لطَبع المنَى قد نُقِشْ

جَمالٌ يُحَيِّر لُبَّ الفَتى ... ويُكسِبُه مِن شُرورٍ دَهَشْ [(١)].

لقد ساعد المطر على تكوين طبيعة الأندلس، فوقف الشعراء على جمال منظر الطبيعة، واستقوا منها ما يغذي إلهامهم، فهذا عبد الملك بن رزين يصف روضاً، وقد أبدع الطل في تزيينه، فالأغصان رواقص إذا لاعبها النسيم، وصفحة الماء مبرد إذا لامستها الريح، وإذا ما سكنت الرياح حسبت صفاء الماء السيف الصقيل المجرد من الغمد. يقول فيها :

ورَوضٍ كسَاهُ الطَّلُّ وشْيَاً مُجَدداً ... فأضْحَى مُقِيماً للْنفُوسِ ومُقعِداً

إذَا صَافَحتهُ الرِّيحُ خلتْ غُصونِهِ ... رَواقصَ في خُضرٍ مِن القُضبِ مُيَّدَاً

إذَا ما انْسكابُ الماءِ عَايَنتْ خُلتهُ ... وقدْ كَسرتهُ رَاحةُ الرَّاحِ مِبردَاً

وإنْ سَكنتْ عَنه حَسبتَ صَفاءهُ ... حُسَاماً صَقيلاً صَافِيَ المتنَ جُرِّداً

وغنَّتْ به وُرقُ الحَمائِمِ حَولَنا ... غنَّاءَ ينسِّيكِ الغَريضَ وَمَعبَدَاً [(٢)].

ويقف صنوبري الأندلس أمام شجرة قد كساها النوار، والماء السائح بينها، والغيم قد حاك للأرض القميص الأخضر، فطرزه بمختلف الأزهار والثمار، فيصفه لنا، ويقول فيها :

يَا رُبّ مَائسَةِ المعَاطِفِ تَزدَهي ... مِن كلّ غُصْنٍ خَافقٍ بِوشَاحِ

---

(١) البديع في وصف الربيع ص ٢٢.

(٢) المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ٣٤٦ .

مُهتَزّةٍ، يَرتَجّ، مِن أعطافِها ما شئتَ من كفلٍ يموجُ رداحِ

نَفَضَتْ، ذوائِبَها، الرّياحُ عَشيّةً فتَمَلّكَتها هِزّةُ المُرتاحِ

حَطّ الرّبيعُ قِناعَها عن مَفرِقٍ شَمطٍ، كَمَا تَرتَدّ كأسُ الرّاحِ

لّفَّاءُ حَاكَ لَها الغَمَامُ مُلاءَةً لَبِسَتْ بها، حُسْناً، قَميصَ صَباحِ

نَضَحَ النّدَى نُوّارَها، فكأنّما مَسحتْ مَعَاطِفَهَا يَمينُ سَمَاحِ[١].

وأما الثانية، وهي الطبيعة المائية الصناعية، فهي تتعلق بما أبدعه الإنسان في الطبيعة لينعم بجمالها، فقد حاولوا تسخير هذه الطبيعة لخدمتهم، لذلك نجدهم قد بنوا القصور، وزرعوا الحدائق، وأنشأوا القناطر والموانئ.. وغيرها، وقد اهتموا بفن العمارة "ومن آثار العمارة هناك مالا يزال ناطقاً بما كان لهم من البراعة في بناء المدن، والقصور والمساجد. ولهم من الإتقان في ذلك ما لم يكن لغيرهم في زمنهم[٢]"، وقد ساعدهم على هذا التطور في مجال العمارة " طبيعة الأندلس، وكثرة خيراتها الزراعية، والمعدنية، ونشاط تجارتها.. فأصبحت قرطبة في هذا العصر تنافس المشرق في روعة عمرانها، وفي طمأنينة الحياة في ربوعها [٣]"، فلم يلجم الشعراء أنفسهم عن تأملها، وذكر بديع صنعها، فقد حاول بعض الشعراء أن يجمعوا " بين وصف الطبيعة الطبيعية، والطبيعة الصناعية. ..فالشاعر عندما ينطلق من قيود همومه وأحزانه، يعكف على الطبيعة، ويمتع عينيه بجمالها، فيتحدث عن النهر، والزهر، والليل، والصيد، والقصر، والبركة، ومجالس الأنس [٤]"، ولنتأمل قول ابن وهبون عندما تثيره صورة البركة، وما هي عليه من حسن وجمال، فيقف واصفاً لتلك البركة، والأزهار التي عليها، والنسيم الذي يمر بهم، فيذكره برائحة الحبيب. يقول فيها:

وبِركَةٍ تُزْهى بِنَيلَوفَرٍ نَسيمُهُ يُشبه ريحَ الحَبيبْ[١].

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٢٨١.

(٢) بلاغة العرب في الاندلس، أحمد ضيف، ص ٢٨ .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص ١٩

(٤) في الأدب الأندلسي، جودت الركابي، ص ١٤٧.

(١) الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ج ١٨ ص ٣٤.

وغير بعيد من هذا المعنى وصف المعتصم بن صمادح لبركته التي بناها، وتتوسطها نافورة مستديرة، ويقف متأملاً لها، فيقول فيها :

كَأَنَّ انْسِياب الماءِ في صَفحَاتِها حُسَامٌ ثَقيلُ المتنِ سُلَّ مِن الغِمْدِ
تَفورُ فـــــوَّارةٌ مُستدِيـــــرةٌ لهَا مُقلْـــة زَرقاُء مَوصُولَةُ السّهدِ[١].

حينما وقف ابن عمار متأملاً قصر الدمشق بقرطبة راقه المنظر، والماء العذب، والثرى العطر، والرائحة الطيبة الزكية، فقال:

كلُّ قصرٍ بعد الدمشقِ يُذَّمُ فِيــهِ طـــــابَ الجنى ولذّ المشَمُّ
منظرٌ رائِقٌ، ومـــــاءٌ نميرٌ وثَــرى عاطرٌ، وقصـــرٌ أشمُّ
بِتُّ فيه والليلُ والفجرُ عِندي عنبرٌ أشهبٌ ومِسكٌ أحـــمٌّ[٢].

إنَّ بديع صنعة القصور الأندلسية، ساعدت الشعراء على إثراء مخيلاتهم بصور جديدة ممزوجة بين الطبيعة وجمال العمران، فهذا أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الإشبيلي[٣] يصف حديقة أحد القصور، وما خلع عليها الربيع من جمال :

تجمَّعتْ وهي أشتاتٌ محاسنُها هذا الغَدير وهذِي الرَّوضةُ الأُنُفُ
يُضاحكُ النُّور فيها النَّوْرَ من كَثَبٍ مهما بكتْ للغَواني أعينٌ ذُرُفُ
خُضرٌ خمائلها زُرقٌ جداولها فالحُسْنُ مُتلفٌ فيها ومختلفُ
دَوْح وظلٌّ يلذُّ العيشُ بينهما هذا يَرِفُّ كما تهوَى وذا يَرِفُ

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية، ص ٣٦.
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٤٧٠.
(٣) أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي الداني، كان فاضلاً في علوم الآداب، وكان عارفاً بفن الحكمة، يقال إن عمره كان ستين سنة، وتوفي بالمهدية يوم الأثنين مستهل سنة ٥٢٩هـ، وقيل في العاشر من محرم سنة ٥٢٨هـ،ينظر ترجمته عند ابن خلكان في (وفيات الأعيان ج١ ص٢٤٣)، وابن سعيد في (المغرب ج١ ص١٨٨)، والمقري في (نفح الطيب ج١ ص٤٩٦-٤٩٧) .

يَجري النسيمُ على أرجائِها دَنِفاً ومِلؤه أرَجٌ يشفَى به الدَّنِفُ
حاكَ الربيعُ لها من صوبِهِ حِبَراً كأنَّها الحُلَلُ الأفوافُ والصُّحف
غَريرةٌ من بناتِ الرَّوضِ ناعمةٌ يَثني معاطفَها في السُّندس التَّرَف
تَندَى أصَائلُها صُفراً غلائلُهَا كأنَّ ماءَ نُضارٍ فَوقَها يَكِفُ [(١)].

لقد كثر استخدام السفن والزوارق في بلاد الأندلس، لكثرة البحار المحيطة بها، والأنهار العظام التي تشق مدنها، فقد شاهدها الشعراء، وتأملوا قدرتها على مخر البحار، والتغلب على أمواجها المضطربة، ووصفوا أشرعة السفن وألوانها، وما تحمله في جوفها، وعلى ظهرها من ملاحين، ورجال، ومجدفين، فهذا ابن حمديس الصقلي يصف سفينة قد شقت بهم أهوال البحر، يقول فيها :

وقدْ تَشُقّ بِنا الأهوَالَ جَاريةٌ تَجري بريِح مَتى تَسْكُنْ لهَا تَقفِ
لهَا شِراعٌ تَرى الملاَّحَ يلحَظُهُ كَكاهنٍ يَقسمُ الألحَاظَ في كتِفِ [(٢)].

إن بعض مظاهر الطبيعة تذكر الشاعر (بالغربة والحنين إلى الوطن)، فهذا ابن حمديس عاش معظم حياته مغترباً بعيداً عن وطنه وأهله، فإذا شاهد البحر تذكر أهله بجزيرة صقلية، فيقول مخاطباً البحر :

وَراءكَ يَا بَحرُ لي جَنّةٌ لَبستُ النّعيمَ بِها لا الشَّقاءَ
إذَا أنَا حَاولتُ مَنها صَباحَاً تَعرضتَ مِن دُونها لي مسَاءَ
فلوْ أنّني كُنتُ أعطِي المُنى إذَا مَنَعَ البَحرُ مِنها اللّقَاءَ
رَكبتُ الهِلالَ بهِ زَورقا إلَى أنْ أعَانقَ فِيها ذُكاءَ [(١)].

---

(١) تحفة القادم، ابن الأبار، ص ١١.
(٢) ديوان ابن حمديس ص ٣٢٠.
(١) المرجع السابق ص ٤.

إذا رأى الشاعر الهلال تذكر الزورق وسيلة عبوره مياه البحار ولقائه الأحبة، فعصف الشوق بالشاعر، ليحرك وجدانه للقاء الأصحاب، فيحلم ويتمنى اللقاء والوصل؛ ليعود من جديد إلى وطنه، فالشاعر يتمنى لو أن الهلال تحول إلى زورق يمخر به السماء، ويحلق به بين النجوم؛ ليصل إلى موطنه صقلية، ويحصل له لقاء الأحبة.

وهذا ابن عمار يشبه الزورق بالهلال. يقول فيها :

وجَاريةٍ مِثل الهِلال أَلِفتُها   عَلى نَهَرٍ مِثل السَّماءِ رَقِيقِ[1].

ومن إحساس ابن حمديس بالغربة، واشتياقه لوطنه "وصفه للنيلوفر بأنه مثيل له في الغربة، لأن كليهما غريب عن وطنه[2]"

هُو ابْنُ بلادي كاغترابِي اغترابُهُ   كِلانَا عَنِ الأوْطَانِ أزْعَجَه الدَّهْرُ [3].

وهذا يذكرنا بعبد الرحمن الداخل عندما شاهد نخلة في الرصافة، فرأى من حال النخلة في بلاد الأندلس، واغترابها عن موطنها وأرضها، ما يشاهده في حاله من غربة، وتركه لأرض الأحبة في الشام، فتأجج الحنين والشوق لموطنه، فقال:

تبدَّتْ لنا وَسْط الرصافةِ نخلةٌ   تناءتْ بأرضِ الغربِ عَن بلدِ النَّخلِ
فَقلتُ شَبيهِي في التَّغرُّبِ والنّوى   وطولِ اكتِئابي عن بنيَّ وعَن أهلِي
نَشأتِ بأرضٍ أنتِ فِيها غَريبةٌ   فَمِثلك في الإقْصَاء والمنتَأى مِثلِي
سَقَتْكِ غَوادي المزنِ في المنتَأى الذَّي   يَسحُّ ويَستَمري السَّماكِين بالوَبْلِ[1].

---

(١) الحلة السيراء، ابن الأبار، ج ٢ ص ١٦٤.

(٢) الخطاب الشعري عند ابن حمديس الصقلي، محمد كمال سليمان حمادة، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠١٢م، ص ٢٠٠.

(٣) ديوان ابن حمديس ص ١٨٥.

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٥٤ .

لقد أسهمت المجالس الأدبية، ومجالس الأنس التي تعقد بين يدي الأمراء والوزراء، وبحضور نخبة من أهل الشعر والنقد في إثارة الصور والأخيلة لدى الشعراء، فهذا المعتصم "أحضر مجلسه في بعض ليالي أنسه صورة حسنة قد ركبت من ريحان في هيئة جارية، ثم طيبت وقلدت، وأمر من حضر من الشعراء بوصفها [1]". فقال ابن خفاجة في ذلك:

أمَا واعْتِزازِ الضَّيفِ والسَّيفِ والنَّدى	بخَيرِ مّليكٍ هَشَّ في صَدرِ مَجلِسِ
بَدا بَينَ كَفٍ للسَّماحِ مُغيمَةٍ	تصُوبُ ووجهٍ للطَّلاقةِ مُشمِسِ
لقدْ زفّ بنتاً للخَميلةِ طلقةً	يَهُزّ إليها الدَّستُ أعْطافَ مُعرِسِ
تُشيرُ إليها كلُّ راحَةِ سُوسَنٍ	وتَشخصُ فِيها كلُّ عَينٍ لِنرجسِ
تَنُوبُ، عَن الحَسناءِ والدّارِ، غُربَةٌ	فمَا شِئتَ مِن لهوٍ بِها وتَأَنُّسِ
تَحَفّتْ بها رِيحٌ بَليلٌ وربوَةٌ	بمَسرَى غَمامٍ، جادَها، متَبَجّسِ
فجاءت تروقُ العينَ في ماء نضرةٍ	تشنّ على أعطَافِها ثَوبَ سُندِسٍ[2].

استهل الشاعر قصيدته بالمدح والثناء، وجاءت صوره وتشبيهاته من الطبيعة الأندلسية التي أثارتها صورة الجارية المصنوعة من الورد، فصنعوا من الطبيعة عناصر التشبيه، والتي بدورها رسمت صورة لجمال الجارية.

ثانياً / الخيال:

يعد الخيال أحد العناصر الرئيسة في تكوين العمل الأدبي، فالخيال "أجل قوى الإنسان، وأنه لا غنى لأية قوة أخرى من قوى الإنسان عن الخيال[3]"، وللخيال أثر قوي في تكوين الصورة، فهو "تلك القدرة الكيماوية التي بها تمتزج. ..العناصر المتباعدة في أصلها، والمختلفة كل الاختلاف، كي تصير مجموعاً متآلفاً منسجماً[1]"، فالخيال "يخلق الحياة، ويضيف إلى حصيلة التجربة ما يزكو بها

(١) ديوان ابن خفاجة ص ١٥٥.
(٢) المرجع السابق ص ١٥٥.
(٣) النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، ص٣٨٨.
(١) المرجع السابق ص ٣٨٩.

وينميها.[١]"

إن الخيال هو " الفضاء الذي ينتقل الفكر خلاله بحرية وسعة، ليلتقط أطراف ما يبتكره من صور، فيضم متناثرها، ويعمل فيها يده الفنية؛ حتى تعود خلقاً جديداً [٢]" فيها نفحة من روح الشاعر، ينقل خلالها عواطفه وأحاسيسه، لتصل تلك الصورة إلى المتلقي، وهي مفعمة بالحركة والحياة.

فالخيال يعد "من أهم مصادر تشكيل الصورة الشعرية، لا سيما أنه يقوم بتأليف صورة جديدة غير مألوفة من قبل لدى فنان، لا نجدها عند غيره من الشعراء؛ بل لا نجدها في كثير من نتاجه الفني الذي يبدعه في مراحل عمرية متباينة، فهناك أشياء كثيرة تبدو أول وهلة غير شاعرية، أو ذات موضوع منحسر القيمة، ولكن الشاعر المبدع إذا أسبغ عليها من شعوره، وتصويره، وأخيلته الخلاقة يستطيع أن ينفذ إلى معان جمالية يودعها عالم الشعر [٣]"، والخيال يخلق لدى الأديب قدرة على استعادة الصور، وإثارتها في ذهنه من جديد، وإن غابت عنه، فللخيال " القدرة على تكوين صورة ذهنية لأشياء غابت عن متناول الحس، ولا تنحصر فاعلية هذه القدرة في مجرد الاستعادة الآلية لمدركات حسية ترتبط بزمان، أو مكان بعينه؛ بل تمتد فاعليتها إلى ما هو أبعد وأرحب من ذلك، فتعيد تشكيل المدركات، وتبني منها عالماً متميزاً في جدته وتركيبه، وتجمع بين الاشياء المتنافرة والعناصر المتباعدة في علاقات فريدة، تذيب التنافر والتباعد، وتخلق الانسجام والوحدة[١]."

---

(١) الخيال مفهوماته ووظائفه، عاطف جودة نصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، ١٩٨٤م، ص٢٦٠.

(٢) الصورة، أحمد بسام ساعي، ص ١٧.

(٣) مصادر الصورة الشعرية في رائية العجاج ،عبد اللطيف شنوشول دكمان، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد ٢٦، عام ٢٠١٢ م، ص ١٠٣.

(١) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت،ط ٣، ١٩٩٢م، ص ١٣.

وذلك ما طالعنا به ابن حمديس حينما مزج بين ما يشاهده من طبيعة تسحر العيون، وخياله الخصب الواسع، حيث يقول في يوم ممطر على روض:

يَومٌ كأنَّ القَطْرَ فيهِ لؤلؤٌ   يَنْظمِ للرّوْضِ عُقوداً وَوُشَحْ
يَقدحُ ناراً من زِنادِ بَرْقِهِ   ويُطفىءُ الغَيثَ سَريعَاً مَا قَدحْ[١].

لقد عمد الشاعر إلى استغلال الطبيعة في خياله، فأجلسها على عرش الجمال، وأخذت السماء تحليها بعقود الدر التي تنظمها قطرات المطر عليها كاللؤلؤ. ونشاهد قدرة الشاعر الإبداعية على رسم صورة متحركة للسماء، فهذا القطر يزين الروض بدرره، وهذا البرق يقدح من شرره النار، وهذا الغيث يسارع إلى إطفاء ناره، فكأن الشاعر يتخيل سبب سرعة اختفاء نور البرق، وذلك بأن المطر سريعاً ما يطفئه بقطره. ونلمس ذلك عند ابن خفاجة حينما يسير في وسط الطبيعة، فيحلق به الخيال، فيرى جمال الأزهار، وما صنع المطر بها، فيرى الأرض قد نثر عليها الدر والدراهم. يقول فيها:

نَثَرَت بِحِجرِ الأَرضِ فِيهِ يَدُ الصِّبا   دُرَرَ النَّدى وَدَراهِمَ النُّوَّارِ[٢].

فقد شبه الشاعر الندى على أطراف الأوراق بالدر، والأزهار البيضاء المنتشرة في الروض بالدراهم الفضية.

وهذا ابن حمديس يمدح أمير المهدية تميماً، ويتخيل حال ضربه للأعداء، فسيفه إذا جرده من غمده، تفجر كالصاعقة المميته. يقول فيها :

حُمَاةٌ إذا أبْصَرْتَهُمْ في كَرِيهَةٍ   رَضيتَ مِن الآسَادِ عَن كلِّ غَاضبِ

(١) ديوان ابن حمديس ص ٨٧ .
(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٣٣٦.

إِذَا ضَارِبُوا في مَأزِقِ الضَّربِ جَرّدوا   صَواعِقَ مِن أيدِيهِمُ في سَحَائِبِ[1].

وهذا ابن شهيد وقف متأملاً للسماء، والنجوم اللوامع حول القمر، فتخيل هذه النجوم، وإحاطتها للقمر بالغدير تحف به الحمام لتنهل منه. يقول فيها:

وبَدرَ الدُّجى فِيها غَدِيراً وحَوَلهُ   نُجُومٌ كَطلعَاتِ الحَمَامِ النَّواهِلِ[2].

ويتخيل لابن شهيد ما يراه من زهر الكواكب المتلألئة حول المجرة بأزهار النرجس المشرقة على ضفتي وادي، وهذا كله من شدة جمال الأزهار في الطبيعة الأندلسية، يقول فيها :

تَخَالُ بِها زهُرَ الكَوَاكِبِ نَرجِسَاً   عَلى شَطِّ وادٍ للمَجَرّةِ سَائِلِ[3].

- **أنواع الصورة في شعر المائيات:**

إن للصور والأخيلة أثراً بارزاً في النص، فمن دونهما يأتي الكلام جافاً بارداً، لا يثير لدى المتلقي أي أحساس، ولا انفعال، ولا عاطفة، فالصورة تضفي على النص الشاعرية والخيال، وتبعدنا عن الواقع، "لأنها أقل منه تكراراً على العين، .. والصورة المحاكاة تقوم على اقترانات جديدة بين عناصرها المكونه لها من ناحية، وبينها وبين العالم الخارجي من ناحية أخرى[4]."

وشعراء المائيات في الشعر الأندلسي توصلوا بالتجسيم، والتشخيص، والحركة، واللون للوصول بأعمالهم الأدبية إلى أعلى غاية، إذ إن " الصورة تنقل - في بعض الحالات – ما تعجز عنه اللغة[1]".

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٣١.

(٢) ديوان ابن شهيد الأندلسي، تحقيق يعقوب زكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، مصر، القاهرة، ص ١٤٣.

(٣) ديوان ابن شهيد ص ١٤٣.

(٤) الصورة الفنية، جابر عصفور، ص ٣٨١.

(١) شعر ابن اللبانة –دراسة وصفية تحليلية – عواطف محمد الصواف، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٩٩٧ م، ص ٢٠٣.

وهذه بعض أنواع الصورة في شعر المائيات الأندلسي:

١. التجسيد:

لقد عرف معجم المصطلحات العربية التجسيد بأنه: "نسبة صفات البشر إلى أفكار مجردة، أو إلى أشياء لا تتصف بالحياة[(١)]. "وإن هدف التجسيد الأول هو تحويل المجردات الذهنية إلى مدركات حسية، تتحد فيه الذات والموضوع، فصورة التجسيد "تمنح الذات فيه موضوعها، وجسمها، وأعضاءها وباختصار شيئيتها، ويتجلى هذا في المجردات، إذ يقدمها الشاعر مجسمة[(٢)]."

وقد لاحظ النقاد قدرة التجسيد على "محاورة الأشياء الجامدة، وغير العاقلة والمعاني التي لا تدرك إلا بالذهن عن طريق الأنسنة التي تلبس الأشياء صفات الكائن الحي، وسلوكه بأجواء استعارية لا تقوم على التشبيه، وإنما تقوم على بث الحياة، والحركة في المشبه لغرض المبالغة.[(٣)]"

والتجسيد في شعر المائيات الأندلسي يتخذ أكثر من لون، فهو يبدأ من التشبيه المحسوس حتى يرتقي إلى المعنويات، والعواطف الإنسانية، فيبرزها محسوسات ملموسة، وأما النوع الأول من التجسيد فهو التشبيه بالمحسوس، "وفيه يكون الوصف حسياً بطبيعته، فيختار الشاعر للشيء الموصوف هيئة تجسمه أو تجسده، أي: توضيح المحسوس المجسم بمحس آخر يزيده وضوحاً، ويعين على جلائه؛ ليتعاون الجانبان معاً في تعميق الصورة [(١)]"، ومن ذلك تحول السحاب الجالب

---

(١) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكمال المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤ م، ص ١٠٢.

(٢) الصورة الشعرية عند المعتمد بن عباد، حسناء أقدح، مجلة جامعة دمشق، العدد ٢، المجلد ٢٨، ٢٠١٢م، ص ٤٥.

(٣) التجسيد في الدرس البلاغي والنقدي عند العرب، فاضل عبود التميمي، مجلة الفتح، العدد ٢٩، ٢٠٠٧. ص ٢٢٥.

(١) الصورة الشعرية عند المعتمد، حسناء أقدح ،ص ٤٦ .

للمطر، إلى ذات ضرع تستدر بأنفاس الرياح، كما يقول ابن حمديس:

وَمُجَلْجِلٍ دَرّتْ بأنْفَاسِ الصّبا وهناً لقَضباءِ النَّباتِ ضُرُوعُهُ[1].

فقد جسد الشاعر صورة السحاب الممطر بكل ذات ضرع، والتي يستدر ضرعها بأنفاس صغيرها، كما السحاب التي تستدر وتساق بالرياح. ويجسد ابن خفاجة البطاح، فيجعلها ترضع من الغمام الذي يدر عليهم بالمطر :

فِي أَبطَحٍ رَضِعَت ثُغورُ أَقاحِهِ أَخْلافَ كُلِّ غَمَامَةٍ مِدرَارِ[2].

وابن حمديس يجسد النهر في سرعة جريه على البطاح بالأرنب الذي أفزعه النسر، فجرى مسرعاً ليختبئ، فقد جسد الشاعر النهر في سرعته بالأرنب الذي جد في الهرب خوفاً من قبضة النسر، أما في انسياب الماء عبر ممراته وتعرجاته؛ فيجسده بالحية. يقول فيها:

إذَا ما جَرى واهتزّ للعَينِ مُزبِداً حَسِبتَ بِه فرُواً مِن النِّسرِ يُنفَضُ
وتنسَابُ مِنه حَيّةٌ غَير أنَّها تطُولُ عَلى قَدْرِ المَسَابِ وتعْرُضُ [3].

وهذا ابن عمار يجسد انسياب النهر عبر الرياض بالثعابين التي تنساب حركتها على الأرض بانحناءات جسدها والتوائه، كما يتعرج النهر في أثناء مسيره. يقول فيها:

وليلٍ لنَا بالسُدِّ بين معَاطفٍ من النَّهر ينسَابُ انسِيابَ الأراقمِ[4].

ويقول ابن حمديس في موقف آخر مجسداً السيول عقب نزول المطر بالثعابين التي خرجت من أوكارها مسرعة :

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٣١٣ .
(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٣٣٦.
(٣) ديوان ابن حمديس ص ٢٩١.
(٤) الذخيرة، ابن بسام ج٢ ص ٢٨١.

فَجَرَتْ منهُ سيولٌ حولَنَا كثعابين عِجالٍ تطّردُ[1].

ولا يفتأ شعراء الأندلس يمعنون النظر في طبيعتهم، يتأملون أنهارها الجميلة مما ساعدهم على إثراء مخيلاتهم بصور عديدة، فقد تجسد النهر عندهم بأنواع الصور، فهاهم يجسدون سرعة النهر بكل ذي فرو جد في الهرب من ذي مخلب، ويجسدون انسيابه بالأفاعي المتحركة، ولم يغفلوا عن شكل النهر ولونه، فقد جسدوه بالسيف الفضي الذي أُلقي على بساط أخضر. يقول ابن خفاجة :

قدْ رقَّ حَتَّى ظُنَّ قَوسَاً مُفرغاً من فِضةٍ في بُردةٍ خَضرَاءِ[2].

ومن تجسيد المحسوس بمحسوسٍ ما جسده ابن اللبانة لأشرعة السفينة المستعدة للمسير، بأجنحة الطائر المستعد للتحليق. يقول فيها:

ومَتـــــــــى ركبتَ لهَا أعَالي أيكـــــةً نشَرتْ جَناحَـــــاً للرِّياحِ مُعرَّضَـــــــاً[3].

وثمة نوع الآخر من أنواع التجسيد، هو تصوير المعاني، والمفاهيم، والعواطف الإنسانية، وإبرازها إبرازاً حسياً تجسيمياً، ونقلها " من حالة التجرد إلى حالة. .. التجسيد، وبث الحياة فيها، وإبرازها أجساماً ومحسوسات. .. تدرك بالحواس، لتكون أعون على فهمه، وتوضيحه من العقل وحده مستقلاً، فيصير العقل طريقاً واحداً للإدراك من طرق شتى متعددة الجوانب في الحواس المختلفة. [4] "

ومن تجسيد المعنويات بما هو محسوس ما قاله يحى بن الزيتوني في المعتضد، يطلب منه قضاء حوائجه. يقول فيها :

(١) ديوان ابن حمديس ص ١١٧.

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٣٥٦ .

(٣) ديوان ابن اللبانة ص ٨٢.

(٤) الصورة الشعرية عند المعتمد، حسناء أقدح، ص ٤٨.

سَفينةُ الوَعدِ في بَحرِ الوَفَا وقَفَتْ   فَامنُنْ بِريحٍ مِن الإنجَازِ تُجرِيهَا [(1)].

فقد جسد الشاعر ما هو معنوي لا يدرك بالحواس بما هو محسوس، فجسد الوعد بالسفينة العالقة في بحر الوفاء، فالشاعر يستحث المعتضد، لتهب رياح الهبات والاعطيات، وينال الشاعر مراده.

وهذا ابن حمديس يمدح المعتمد بن عباد، ويصور كرمه بالريح المحركة لسفن الآمال في بحر خيال من سأله. يقول فيها:

كَريمٌ إذا هبّتْ ريَاحُ ارتِيَاحِهِ   جرَتْ سُفُنُ الآمَالِ في بَحرِ سَائلهِ
رفَعْنا عقِيراتِ الْقوَافي بِمَدْحِهِ   فأطْرَبْنَ أسْماعَ العُلى في مَحَافِلهِ [(2)].

الرجاء عند المعتمد كالبحار في اتساعها، والشعراء بسفن الآمال يخوضون غمارها، ويبحثون عن رياح الأعطيات لتحرك أشرعتها.

وهذا ابن خفاجة يصف حاله، وما آل إليه عقب مطرٍ أصابه، فصور حاله بالطائر الذي قد ابتل جناحه، وفزع فراخه، فما يستطيع الطيران. يقول فيها :

وهَا أنَا مَبلُولُ الجَناحِ مِن الحَيا   بِصوبٍ ومَذعُورُ الفِرَاخِ مِن الوَكرِ
بِدارٍ سُقتها دِيمةٌ إثرَ دِيمةٍ   فَمَالتْ بِها الجُدرانُ سَطْراً على سَطْرِ [(3)].

كثيراً ما يجسد ابن خفاجة المعنويات إلى أمورٍ محسوسة، فها هو يقف أمام خصومه بكل حزم وقوة، فقد جسد حال جريه في العناد مع خصومه بالسيل الذي لا يرحم، فقد تلاطمت أمواجه، ودفع بعضها بعضاً. يقول فيها:

---

(١) الذخيرة، ج ٤ ص ٢٦٠.
(٢) ديوان ابن حمديس، ص٣٧١.
(٣) ديوان ابن خفاجة ص ٣٠٨.

جَارِينَ فِي شَوطِ العِنادِ، كأنّهمُ سَيلٌ، تَلاطَمَ مَوجُهُ، دَفّاعُ[١].

عندما كان ركوب البحر عند شعراء الأندلس فيه مشقة وتعب وعناء، ولا يعلم راكبه ما تخبئه الأمواج لهم من أهوال، ربطوا ركوب البحر بركوب الناقة التي لم ترض، فقد جسد ابن وهبون ركوب البحر بركوب الدابة، التي يكون السوط قائداً لها. يقول فيها :

رَكِبْتَ فِي اللهِ حتَّى البَحرَ حِينَ طمَا آذّيُهُ وبِسُوطِ الرِّيحِ يَنحصرُ[٢].

ولعّل أبا جعفر اللمائي يتناول صورة أحبته الذين رحلوا عنه بصورة أخرى، يجسد فيها البين، وهو يُبعد من شغف بهم، وقلبه غير عابئ بما يعانيه الشاعر من لوعة الوداع، ومرارة الفراق، فجسد الشاعر شوقه بالشيء المحسوس الذي استعمله للابتعاد عنه، ألا وهو السفين المقل لمحبوبه، ويسرق فرحته في قوله:

قدْ قُلتُ إذْ سَار السَّفينُ بهِ والبينُ يَنهبُ مُهجَتِي نَهبَا
لوْ أنَّ لِي مُلكاً أصُولُ بهِ لأخذْتُ كل سَفينةِ غصْبَا[٣].

وقد اقتبس الشاعر قوله (لأخذتُ كل سفينةِ غصبًا) من قوله تعالى في سورة الكهف: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} ﴿٧٩﴾[٤].

عندما دخل ابن اللبانة على المعتمد في المنفى أخذ يواسيه، ويرى أن ما أصابه لم يحجب ذكره، فالمعتمد كالهلال الذي قد حجب نوره بالسحاب، ولم يكن هذا المغيب الذي أصابه كسوفاً، وإنما غيمٌ يزيله شعاع الشمس سريعاً، ثم ينقشع، ويصور ابن اللبانة حالة المعتمد في نفسه، فيجسده بالدرة التي قد رصعت على تاج المعالي. يقول فيها:

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٢٢٤.
(٢) الذخيرة، ابن بسام، ج ٢ ص ٣٧٩.
(٣) المغرب في حلى المغرب، ج ١ ص ٣٦٧.
(٤) سورة الكهف.

وإذَا مَا الهِلالُ غَابَ بِغيــــــــــمٍ   لمْ يَكنْ ذَاكَ المَغِيبُ انكِسَـــــــافَا
إنـمَّـا أنتَ دُرّةٌ للمَعـــــــــــــالِي   ركَّبَ الدَّهرُ فَوقهَا أصْــــــــدَافَا(١).

لقد حاول بعض الشعراء تجسيد الطبيعة، وربطها مع عواطفه، وأحاسيسه الداخلية، فهذا ابن اللبانة يعقد موازنة بين بحر الهوى، وبحر الطبيعة . يقول فيها:

وبَحرٍ سِوى بَحرِ الهَوى قَدْ رَكبْتُهُ   لأَمرٍ كِلا البَحرَينِ مَركبُهُ صَعْبُ[٢].

رأى الشاعر المشقة والهلاك فجسدها في بحار الهوى والعشق والغرام، ولم يجدها بأيسر من بحار الدنيا فكلاهما مظان الهلاك والمشقة،فكل من يسير فيها تتخبط فيه الحياة وتضطرب .

وينشد ابن عباد في موقف آخر يستعطف أبيه، ويستدر رضاه، ويجسد من السحاب الذي علاه، ولا مفر له منه بسخط والده، ويتمنى أن تهب (ريح الرضا) فتنقشع معها سحاب الغضب والسخط، يقول فيها:

عَلَّتنِي مِن السُّخطِ الأَلِيمِ سَحابةٌ   فَاغفرِ بِها ريحَ الرِّضَا، كَي تَقَشَّعَا[٣].

لقد جسد ابن عباد ما أصابه من هم وحزن بسبب سخط والده بالسحابة، وجسد من الريح التي تدفع السحاب بـ (ريح الرضا).

وهذا ابن شهيد الأندلسي لما غرق ببحار أفكاره، حاول أخراجها مدائح تنهال على صاحبه .يقول فيها :

ولما طما بحر البيان بفكرتي   وأغرق قرن الشمس بعض جداولي

(١) ديوان ابن اللبانة ص ٩٤.
(٢) المرجع السابق ص ٢٧.
(٣) ديوان ابن عباد ص ٤١ .

زففت إلى خير الورى كل حرة　　　من المدح لم تخمل برعي الخمائل[1].

جسد الشاعر تزاحم أفكاره بمدح صاحبه بالبحار في كثرة مائها وتدافع أمواجها ،فقد استطاع شعراء الأندلس بالتجسيد أن ينفخوا الروح، ويبثوا الحياة في صورهم، وينقلونها من عالم المعنويات المجردة إلى عالم ينبض بالحياة والحركة.

٢. التشخيص:

غير خاف على من سبر أغوار الشعر ما للتشخيص من أثر في استنطاق الجمادات، والتفاعل مع عناصر الطبيعة المختلفة، فنتخذ منها الصاحب الذي نبث إليه أحزاننا، ونشاركه همومنا....

ويمكن تعريف التشخيص بأنه: "خلع الحياة على المواد الجامدة، والظواهر الطبيعية، والانفعالات الوجدانية. هذه الحياة التي قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية، تشمل المواد، والظواهر، والانفعالات، وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية، وخلجات إنسانية، تشارك بها الآدميين، وتأخذ منهم وتعطي، وتتبدى لهم في شتى الملابسات، وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عليه العين، أو يتلبس به الحس، فيأنسون بهذا الوجود أو يرهبونه[1]. "ويمكن تعريف التشخيص باختصار بأنه: "أسلوب يحيي به الشاعر مالا حياة له، وينمي إليه معاناته وحواره، وما على ذلك[2]."

---

(١) ديوان ابن شهيد ص ١٤٤.

(١) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق ،القاهرة، مصر، ط ١٦، ٢٠٠٢ م ،ص ٧٣ .

(٢) نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص، إيليا سليم الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٣، ١٩٦٩م ،ص ٩٣١.

لقد استوقف الشعراء البرق، وخاطبوا الغيم، وأسروا إلى البحر والنهر، فكلما أحس الشعراء بضرورة المحاورة والخطاب، ذهبوا إلى الجمادات، وبثوا فيها الحياة، فهذا ابن خفاجة يقف أمام الجبل، ويجري حواراً معه، ويحوله إلى شيخ وقور عاصباً رأسه بعمامة، ويجري ابن خفاجة بعض مشاهدات الجبل على لسانه، يقول فيها:

وأرعَنَ طمَاحِ الذُّؤابةِ باذِخٍ　　يُطاولُ أعنَانَ السَّماءِ بِغَارِبِ
يسُدُّ مهَبَّ الرِّيحِ عن كُلِّ وِجهةٍ　　ويزحمُ ليلاً شُهبهُ بالمنَاكبِ
وَقُورٍ على ظَهرِ الفَلاةِ كأنَّهُ　　طِوَال الليَالي مُطرِقٌ في العَواقِبِ
يَلُوثُ عَلَيهِ الغيمُ سُودَ عَمَائِمٍ　　لَهَا مِن وميض البَرقِ حُمرُ ذَوائِبِ
أصخَتُ إليهِ وَهوَ أخرسُ صَامِتٌ　　فحَدثني ليلَ السُّرى بالعجَائِبِ
وقَالَ : ألا كمْ كُنتُ مَلجأَ فاتِكٍ　　وَمَوطِنَ أَوَّاهٍ تبتَّلَ تَائِبِ [(١)].

إن " إنسانية الجبل [(٢)]" تظهر في جو هذه الأبيات، وباستخدام الشاعر للتشخيص لا يقف عند حدود الحس والعقل، فقد استطاع الشاعر أن يقلب بالتشخيص حال الجبل الجماد إلى كائن حي ينبض بالحياة، معبراً عن تأملاته وتجاربه الشخصية، باستخدام خياله الواسع الذي يلخصها التشخيص، ويحولها إلا صورة معبرة عن أفكار الشاعر بإيجاز، فالتشخيص "ذو قدرة على التكثيف والاقتصاد، أو الإيجاز [(١)]".

ويعد التشخيص من أهم الخصائص الأسلوبية في تكوين الصورة، فهو " يؤمن بأن حدود النفس لا تقف عند العقل والحس، وأن للجماد والنبات، وما إليهما حديثاً ونجوى، وأنها تخاطب البشر وتخاطبهم. وهم يؤمنون أن غاية الشعر هي تلمس روح الأشياء الجامدة،الثابتة، فينصتون إلى حديث الليل والنهار والنجوم، ويسمعون منها ما لا يسمعه الإنسان في أذنه الأليفة، ويبصرون ما

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٢١٦.
(٢) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، ص ١٦٨.
(١) الصورة الأدبية، مصطفى ناصف ،دار الأندلس، بيروت ،لبنان، ص ١٣٦.

لا يبصره بعينه الداجنة. وقد يعبرون من الصورة الواقعية العاقلة إلى الصور المثيرة بالدهشة، وإلى الحوار الغريب فيما بينهم وبين الأشياء دون غرابة أو تعذر؛ لأن تلك المعاناة واقعة في نفوسهم، وإن كانت تستحيل في الواقع الفعلي[(١)]."

إن من صور التشخيص في شعر المائيات الأندلسي، مخاطبة الشعراء لمختلف عناصر الطبيعة المائية، وكأنها عاقل يسمع، ومن ذلك مخاطبة ابن حمديس للبحر، ومعاتبته لأمواجه التي أغرقت جاريته جوهرة. يقول فيها:

أقُولُ للبَحرِ إذْ أغشَيتُهُ نظَري ... مَا كَدرَ العَيشَ إلَّا شُربُها كَدرَكْ

هَلاّ كفَفتَ أُجَاجَاً مِنك عَن أشَرٍ ... مِن ثغرٍ لميَاءَ لولَا ضَعفها أسَرَكْ

هَلاّ نظَرتَ إلى تَفتِير مُقْلتِها ... إنّي لأعْجبُ مِنه كَيف مَا سَحرَكْ [(٢)].

لقد جعل الشاعر من البحر إنساناً يخاطبه (أقول للبحر)، فهذا البحر يسمع ويفهم ويتكلم، ويحاول الشاعر استدرار ما بقي عنده من رحمة، فيقول له : (هلا كففت، هلا نظرت)، واستطاع الشاعر الكشف عن نية البحر تجاه جاريته لإغراقها المتعمد، فكأن البحر إنسان حسود. يقول فيها:

أمَاتكِ البَحرُ ذُو التَّيارِ مِن حَسدٍ ... لمّا دَرى الدُّرُّ مِنه حّاسدَاً ثغرِكْ[(١)].

وفي موقف آخر، يقف الشاعر أمام البحر، ويصوره بإنسان فاسق ماجن، يسعى إلى الملذات، اختطف جاريته منه بغير وجه حق. يقول فيها:

يَا بَحرُ أرخصَتَ غَير مُكترثٍ ... مَنْ كُنتُ لا للبَياع أغْليهَا[(٢)].

---

(١) نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص، إيليا سليم الحاوي، ص ٩٣١.

(٢) ديوان ابن حمديس ص ٢١٣.

(١) المرجع السابق ص ٢١٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٥١٧ .

كثيراً ما كان ابن حمديس يشتاق إلى موطنه بصقلية، فيخاطب البحر وكأنه عاقل يستمع إليه، وقد منعه هذا الكائن عن موطنه وأحبته، وقد كان البحر في بعض الفترات " للروم دون العرب [(١)]". يقول فيها :

ورَاءكَ يَا بَحـــــــــرُ لي جَنّـــــةٌ لبِستُ النّعيمَ بِها لَا الشَّقـــــاءَ[(٢)].

فقد رمز الشاعر للبحر بالعدو الذي يمنعه من وصل أحبته ودياره، فقد لبس بغير موطنه ثياب الغربة والشقاء . وهذا ابن عباد يخاطب الغيم، ويعقد مقارنة بين دموع عينيه التي ما فتئت تبكي أبناءه، فهي دائمة الهملان، وبين الغيم الذي يستهل قليلاً ،ثم ينقشع. يقول فيها :

يـــا غَيمُ عَيني أَقْوى مِنك تَهتانَـــــــا أَبكِـــــي لِحُزني وَمَا حُمّـــلتَ أَحزَانَـــــا[(٣)].

فشاعرنا هنا يخاطب الرياح، ويرى فيها القدرة على إجابة النداء، لتسوق إليه السحاب، فيملأها من دموعه وهموم ما لا يسعه إلا (جهام السحاب)، فيشاطره همومه وأحزانه. يقول فيها:

وَيَا رِيحُ إمّا مرِيتِ الحَيـــــا ورَوّيْتِ مِنه الرُّبوعَ الظِمـــــــــاءَ
فسُوقِي إليّ جِهامَ السَّحـــابِ لأملاهُنّ مِن الدَّمعِ مَـــــــــاءَ[(١)].

يحاول الشعراء الارتباط بالطبيعة التي يتفاعلون معها في الحياة، فيجعلونها تشاطرهم همومهم وأحزانهم، لتظلم الشمس، ويخسف القمر، وتبكي السماء، "تقول العرب إذا أرادت تعظيم مهلك رجل عظيم الشأن: رفيع المكان، عامّ النفع، كثير الصنائع، أظلمت الشمس له، وكسف القمر لفقده، وبكته الرّيح والبرق والسماء والأرض. يريدون المبالغة في وصف المصيبة به، وأنها قد

---

(١) الأدب الأندلسي، الشكعة، ص ٤٧٤.
(٢) ديوان ابن حمديس، ص ٤.
(٣) ديوان ابن عباد ص ٦٩.
(١) ديوان ابن حمديس ص ٤.

شملت وعمّت. وليس ذلك بكذب، لأنّهم جميعا متواطئون عليه[1]"، وقد سار شعراء الأندلس على نهج العرب، فجعلوا المظاهر الكونية تبكيهم، فهذا ابن عباد يتشارك مع قصوره، وما حوته في أحزانه، فالشاعر يُأنِسَهَا لكي تبكي معه. يقول فيها:

بَكى المُبارَكُ في إثرِ ابن عَبّـــــــــادِ   بَكى عَلى أَثر غِزلانٍ وَآســـــــــــادِ
بَكَت ثُرَيّاهُ لا غُمَّت كَواكِبُهــــــــــا   بِمِثلِ نَوءِ الثرَيّا الرائح الغـــــــــادِي
بكىَ الوَحيدُ بَكى الزاهي وَقُبَّتُــــــــهُ   وَالنَهرُ وَالتاجُ كُلٌّ ذُلُّهُ بـــــــــادِي[2].

إن في كثرة البكاء على الراحل دليل على عظم محبته، وفي مشاركته للجمادات والقصور تخفيفاً من حمل الأحزان على كاهل الشاعر، " وإن تشخيص المعتمد للقصور ومحتوياتها، في صورة إنسان يستنزف دموعه حزناً وألماً على ما ضاع، يساعد على تحرير الحمولة النفسية المخبوءة في غور ذاته، لتنثال على شفتيه أنغاماً حزينة من وطـأة المحنة عليه[3]".

لقد استعار ابن عباد بعض الأفعال الإنسانية كالبكاء، والبوح، والدموع لتشخيص الطبيعة وأنسنتها، وجعلها حية تفيض بالمشاعر والأحاسيس الإنسانية، فهذا هو يشرك السماء معه في البكاء على أبنائه، وليست أي سحاب تبكيهم، وإنما سحاب المزن المعرف عنه بكثرة القطر، فلعل سحاب المزن يوفيهم قدرهم من البكاء والشكوى والألم. يقول فيها :

تَبكِي السَّماءُ بِمزنٍ رَائحِ غَـــــــــادِي   عَلى البَهـــالِيلِ مِن أبنَاء عَبَّـــــــــادِ[1].

إن انهمار قطر السماء فيه حياة للأرض، كما أن في انهمار الدموع على الخد حياة للقلب.

---

(١) تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٣م، ص ١٦٧.
(٢) ديوان ابن عباد ص ٩٥.
(٣) الصورة الشعرية عند المعتمد، حسناء أقدح، ص ٥٥.
(١) ديوان ابن عباد ص ٦٨.

شبه الشعراء دمع المقلتين بقطر السماء، للدلالة على عظيم الأثر في النفس، وكثرة البكاء على الفقيد دليل على محبته، فهذا ابن حمديس يقول في دموع العين:

ومُسبلةٍ دَمعاً يَسُوغُ عذُوبةً   على أنَّ دمعَ المقلَتين أُجُاجُ [(١)].

وهذا ابن خفاجة يشخص المزن بالإنسان الباكي. يقول فيها:

وقدْ بلّ أعطَافَ الثَّرى دمعُ مُزنةِ   تَحَيّرَ في جَفنٍ، مِن النَّورِ، طَارِفِ[(٢)].

ويقول في موقف آخر واصفاً روضاً قد مُنع الناس عنه بحمى السلطان، فيشخص الطبيعة التي تنعيه، وتعلن المأتم والنياح على فراق زواره، فما مياه الجدول إلا دموع الباكين، وما شدو الطائر إلا نياح. يقول فيها:

فَجَريةُ مَاءِ جُدولِهِ بُكـــــاءٌ   عَليهِ وشدوُ طَائرهِ نِيــــــــاحُ [(٣)].

إن مقدرة شعراء الأندلس على الإبداع في مجال الطبيعة جعلهم يعكسون معطياتها، فالفرحة المشرقة عابسة متجهمة، تبكي على فراقهم، وتشتاق لمحياهم، ولكن ذلك لا يمنع الشعراء من وصف الطبيعة في حال الفرح والسرور -وهو المتعارف عليه-، فابن خفاجة يصف عرس الطبيعة...، فالأغصان ترقص، والطيور تغني وتطرب في تلك الأجواء العليلة، ويشخص الرعد بالشاعر الذي يملي على البرق، فيكتب إبداعه على أفق السماء. يقول فيها:

بِرَوضٍ كَأَنَّ الغُصنَ يَزهى فَيَنثَني   بِهِ وَكَأَنَّ الطَيرَ يُسقى فَيَطرَبُ
قَدِ اِرتَجَزَ الرَعدُ المُرِنُّ بِأُفقِهِ   فَأَملى وَجالَت راحَةُ البَرقِ تَكتُبُ[(١)].

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٧٥.

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٢١٠.

(٣) المرجع السابق ص ١٣٧.

(١) المرجع السابق ص ٣٠١.

لقد جمع ابن خفاجة بين مظاهر الحياة المختلفة، وجعلها تفيض بالحياة والحركة، ووجها في نسق واحد نحو الفرح والسرور، فنقل صورة السعادة من الأرض في الأغصان والطيور إلى السماء عبر تشخيص البرق والرعد، لتنتشر السعادة في شتى الأرجاء ويعم السرور.

لقد شخص الشعراء الكثير من عناصر الطبيعة، وحاولوا التفاعل معها، وتقريبها إلى الأذهان بتلك الصورة المشخصة، لكي يتفاعل معهم المتلقي عبر تلك اللوحة الفنية، ولا يقف المتلقي معهم عند حدود البصر، وإنما ينتقل معهم إلى عالمهم الخاص الذي يشاركهم فيه حواسه، فهذا ابن حمديس رسم لوحة فنية لليلة مطيرة قد جلجل فيها الرعد، وتساقط القطر، فيشخص حال السحاب وهو يدوي بصوت الرعد، بالمرأة الحامل التي قد ملأت الليل بأنينها. يقول فيها :

ومُديمةٍ لَمْعَ البروقِ كأنَّما هَزّتْ من البِيضِ الصِّفاحِ مُتُونَا
وسرتْ بها الرِّيحُ الشِّمالُ فكمْ يدٍ كانتْ لها عِند الرّياض يَمِينَا
صَرختْ بصَوتِ الرّعد صَرخَة حَاملٍ ملأت بها الليلَ البهيم أنينَا[1].

تأمل الشعراء الطبيعة، فأعطوها بعض الصفات الإنسانية، فهذا ابن خفاجة ينظر إلى الثلج وما صنع بوجه الأرض، فشخص الثلج بالإنسان الذي قد غطى وجه الحسناء بالبرقع. يقول فيها :

وَقَدْ بَرقَعَ الثَلجُ وَجهَ الثَرى وَأَلحَفَ غُصْنَ النَقى فَاِحتَبى[1].

لما كانت الطبيعة الأندلسية فاتنة للعين، وساحرة للقلب بجمالها، خاف الثلج فتنتها، فغطاها وبرقعها عن عيون الحاسدين.

وإذا نظرنا إلى ابن خفاجة وهو واقف يتأمل الفجر ونور الصباح، فيشخصه بالإنسان الذي

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٤٩٠ .

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٢٦٢ .

ينظر من خلف حجاب، وهو الغمام. يقول فيها:

والفَجرُ يَنظرُ مِن وَراءِ غَمَامـــــةٍ   عَن مُقلَةٍ كُحِلَتْ بها زَرقَـــــاءِ [(١)].

وهذا ابن عباد يمدح فيصور الطبيعة، ويستغلها في تشخيصه، فالشمس تخجل من الشروق لما ترى من جمال الممدوح، والغيث يستحي من النزول لما يرى من كرم الممدوح، فجعل الشاعر عناصر الطبيعة تظهر مشاعرها وأحاسيسها تجاه ممدوحه. يقول فيها:

الشَّمــسُ تَخجَلُ مِن جَمـــــــــالِك   فَتَغيبُ مُسرِعَــــــــــــةً لـــــــذِلكْ
وَالغَيثُ يَحيَــــــا أَنْ يُصـــــــــو   بَ لِما يَـــــــراهُ مِن نَـــــــــــوالِكْ [(٢)].

لم يقف التشخيص عند حد الجمادات أو الطبيعة، وإنما تعدى إلى المجردات المعنوية، فهذا ابن حمديس يشخص الكرم بالإنسان الذي يبحث عن أهل الآمال والطموح؛ ليجدوا ما يطمحون له عند ابن عباد، ويشخص البحر أيضاً بالإنسان الذي يهدي ويعطي من أعماقه الدرر، فإذا كان البحر غير العاقل يعطي الدرر، فكيف بالبحر العاقل وعطاياه. يقول فيها :

نَادَى نَدَاكَ بَني الأَمَالِ فَازدحَمُوا   بالوَاخدَاتِ عَلى الرّوْحاتِ والبُكَــــرِ
كَما دعَا الرَّوضُ إذْ فَاحتْ نَواسِمهُ   روّادَهُ بنَسِيمِ النُّور في السَّحــــرِ
يَهدِي لَك البَحرُ مِما فِيهِ مُعْظَمَهُ   والبَحرُ لا شَكَّ فِيه مَعدنُ الدُّررِ [(١)].

إن التشخيص في الدواوين الأندلسية كثير، فقد حاولنا الإلمام بالعديد من صوره، فمنها ما جاء كئيباً حزين، ومنها ما جاء ناشراً للفرح والسعادة، ومنها ما استغل الشعراء فيه عناصر الطبيعة، ومنها ما استغل الشاعر فيه الجمادات، والعواطف الإنسانية المجردة فشخصوها؛ ليتفاعل معها المتلقي، ويحسها كائن حي نابض بالحياة قادر على الشعور والكلام، فتظهر للمتلقي

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ١٥٤ .

(٢) ديوان ابن عباد ص ٤١ .

(١) ديوان ابن حمديس ص ٢٠٨.

تلك اللوحة الفنية القادرة على وصف إبداع الشاعر والشعور بعواطفه وأحاسيسه من خلال تشخيصه، فيجري الشاعر ما يريد أن يبوح به على لسان ذلك المشخص، ويجعل منها ما يشاركه أحاسيسه وانفعالاته.

٣. الحركة:

تعتبر الحركة عنصراً رئيساً في الصورة الفنية، فمن دونها يخفق الشاعر في رسم أحداث متعاقبة متتالية، فالشاعر كالفنان يرسم بريشة الألفاظ لوحة فنية، نابضة بالحياة والحركة على عكس الرسام الذي تتسم رسوماته بالجمود المكاني، فالمصور "يخفق إذا عالج تصوير الحركات المتعاقبة، كذلك يخفق الشاعر إذا هو حاول أن يرسم لك بالألفاظ المتعاقبة منظراً ثابتاً خالياً من الحركة ... وخيال القارئ هنا هو الذي يفعل كل شيء ،ويتناول العناصر التي سردها الشاعر ، ثم يرتب منها صورة على مثال ما يروقه من المناظر المألوفة [(١)]".

فالحركة تضفي على الشعر جمالاً، وتجعل الصورة تنبض بالحياة، فالتصوير، "لون وشكل ومعنى وحركة، وقد تكون الحركة أصعب ما فيه، لأن تمثيلها يتوقف على ملكة الناظر، ولا يتوقف على ما يراه بعينه، ويدركه بظاهر حسه [(١)]"، فتلك المناظر يجعلها الشاعر تمر في ذاته، ويمزجها بخياله الواسع؛ لتخرج لوحه فنية قادرة على استيعاب ما يتطلع إليه الشاعر، وعاكسة للواقع الذي يريده، ويفسح الشاعر المجال للمتلقي؛ لكي يقوم بربط تلك الصور في خياله، ليتكون في ذهنه مشهداً كاملاً قادراً على الحركة والحياة كما يريده الشاعر.

وتحريك الأجسام المتحركة يختلف عن تحريك الأجسام الثابتة، فالصورة المتحركة تختلف عن الصورة الحركية: "فالأولى ترصد حركة الجسم المتحرك، في حين تحرك الثانية الجسم الثابت

---

(١) حصاد الهشيم، إبراهيم عبد القادر المازني ،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ،مصر، ط ١، ٢٠١٢ م، ص ١١٢-١١٣.

(١) ابن الرومي حياته من شعره ،عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ط١، ٢٠١٢ م، ص ٢٣٧.

الذي لا يملك حركته إلا في خيال المتلقي، وهي تتكئ على الخيال الخلاق، وعلى الرؤية المتداخلة للمتقابلات، إذ يمزج الضوء بالظلام، والحياة بالموت، والزمان بالمكان. .. والصورة الحركية تخلف آثاراً مشعةً في التعبير الصوري، لأنها تقوم على الحياة النامية العضوية بأبعادها الغائرة، وعلاقاتها العديدة المتشابكة[1]"، والشعر الأندلسي مليء بالحركة والحياة، فهذا ابن خفاجة يصور المطر والبرد، وقد غشي الرياض والبطاح. يقول فيها :

حَصبَ الأبَاطحَ مِنهُ مَاءٌ جَامِدٌ   غَشّى، البِّلادَ بهِ، عَذابٌ ذائِبُ
فالأرضُ تَضحَكُ عن قلائدِ أنجمٍ   نُثِرَتْ بها، والجَوُّ جَهْمٌ قاطِبُ
فكأنَّما زنتِ البسِيطةُ تَحتهُ   فأكَبّ يَرجمُها الغَمَامُ الحَاصِبُ [2].

هنا رسم الشاعر لنا من صورة المطر منظرين مختلفين، أحدهما: عابس متجهم، قد أحل على الأرض العذاب والهلاك، وقد جسدها في صورة امرأة زنت وحق عليها الرجم والهلاك، والمنظر الآخر: للأرض وهي تضحك وتستبشر بالمطر، وما صنع اللؤلؤ للأرض من قلائد زينه، فبالمطر صلاح الأرض ونبات الزرع، وفي كلا المنظرين حركة، تترجم لنا نفسية الشاعر الخائف من الموت تارة، والمتطلع للآمل والحياة تارة أخرى، وفي هذا النص تظهر قدرة الأديب على رسم العديد من الصور المتعددة، فإذا أراد الرسام أن يرسم مثل هذه الصور؛ احتاج إلى أن يصنع العديد من اللوحات حتى يصل بالفكرة التي أرادها الشاعر.

ويصور لنا ابن حمديس حال صبي يلعب في البحر، ينغمس في الماء تارة، ثم يخرج ويشير بيده أن أدركوني فإني غرق. يقول فيها :

وسَابحٍ لاَعبٍ في بَحرِه مَرَحاً   تُشِيرُ كفّاه تَعوِيذاً مِن الغَرَق

---

(١) الصورة الشعرة عند المعتمد بن عباد ،حسناء أقدح، ص٥٦.
(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٧٦.

يَدعُو ولمْ يَكُ مُضطراً : خُذُوا بِيديَّ وعِندَه الفَرْقُ بَين الأمْنِ والفَرَق[1].

أما ابن الحناط، فيطير على الأرض بفرس كالعقاب، إلا أن فرسه لا يجوز به البحر، ولا يمخر أمواجه، مما يضطره إلا ركوب السفينة، ومعاناة أهوال البحر،وخوض تجربة جديدة يتمنى فيها البقاء حياً. يقول فيها:

ورُحنَا على ألبِيرةٍ فاسْتَقلَّ بِي جَناحُ عُقابٍ لَا يَرُوحُ إِلى وَكنِ
ولَمَّا تنكّبَنا المنكِبَ لمْ نَجِدْ لنِا مَركباً أهْدى سَبِيلاً مِن السُّفنِ
تَرامتْ بنَا الأهْوالُ فِي كُلِّ لُجةٍ تَخيَّلُها جَواً تَجلّلَ بالدَّجنِ
تَرى السُّفنَ فَوق الموجِ فِيها كأَنَّها تَحدَّرُ مِن رَعنٍ وتُوفي عَلى رَعنِ[2].

فالشاعر يرسم لنا من رحلته الشاقة مشاهد عديدة مفعمة بالحركة والحياة، استهلها بامتطائه الحصان إلى صعوده على ظهر السفينة، وما تكبده فيها من عناء ومشقة، وما كانت تصنع الأمواج في السفينة من صعود ونزول.

وقد تأمل ابن حمديس الخيل، فوقف واصفاً لها، وحائراً أمام جمالها، وشدة بأسها، وأحب الشاعر سرعة الخيل، ورشاقتها في نفس الوقت، فوصف حركتها، وسرعة تغيير موضعها. يقول فيها :

يَعدُو ولَا ظلٌّ لهُ فَكأنَّهُ برقٌ فَيا للْبرقِ مِن مَركُوبِ

إلى أن قال ...

وكأنَّه مِرداةُ صَخرٍ حَطّهُ مِن عُلوَ سَيلٌ مَاجَ في تَصوِيبِ[1].

نلمس في حركة الأغصان، واهتزاز أوراق الأشجار تأثيراً في خيال الشاعر وإبداعه، فبالنسيم العليل تتكون الدروع على صفحة الماء، ويذوب اللجين، وتتراقص الأغصان، وينتشر عبق الأزهار في

---

(١) ديوان ابن حمديس ص ٣٢٤.
(٢) الذخيرة ج ١، ص ٣٤٩.
(١) ديوان ابن حمديس ص ٦١.

الأرجاء، فهذا ابن خفاجة يصف حركة الأغصان، والرياح تعبث فيها، والماء يجري من جوارها، وقد صبغته الشمس بنورها الأصفر. يقول فيها:

والرِّيحُ تَعبثُ بالغُصُونِ وَقَد جَرَى ذَهَبُ الأَصِيلِ عَلَى لُجينِ الماَءِ[1].

لحركة الريح على صفحة الماء نقوش بديعة ترسمها يد الطبيعة، ويغرم بها الشعراء، فهم يعلمون أنها ملهم مؤثر، ومذكر يقظ بجمال الطبيعة، ونجد ذلك عند ابن حمديس عندما يصف ما يحدثه النسيم على صفحة الماء من نقوش وتموجات، ويصف انسيابية حركة الماء في انحداره. يقول فيها :

وتَحسبُه إنْ حَبكتْ مُتنهُ الصَّبا عَمُوداً عَلاه النَّقشُ وهُو مُفَضَّضُ
لهُ رِعْدَةٌ تَعتادُهُ فِي انْحدَارهِ كما تبسطُ الكف العنان وتقبضُ
كأنَّ لهُ في الجسِم رُوحَاً إذَا جَرى بهِ نهضَةٌ والجِسمُ بالرُّوح يَنهَضُ [2].

ففي حركة مياه النهر بين الرياض، ونقش النسيم على صفحته النقوش، يجعل الشعراء يفطنون إلى كثير من مناظر جمال الطبيعة، فتأسر قلوبهم، وتطير بخيالهم، فوقفوا متأملين لها، حائرين من روعتها، فلم يغفلوا شيئاً من جمالها، فكل ما وقعت عليه أبصارهم تفننوا في وصفه، فهذا ابن خفاجة يرسم لنا صورة حية لجمال الطبيعة النابضة بالحياة، قد تشاركت فيها العديد من صور الحواس الإنسانية، فكأن الأغصان قد تنازعت فيما بينها، ودخل بعضها ببعض، وارتفع صوت جدال الماء بالخرير. يقول فيها :

فكَأَنَّما بَينَ الغُصونِ تَنازُعٌ وكأنَّما بَينَ المِياهِ جِدالُ[1].

إحساس الشاعر بالطبيعة، ورؤيته للحياة، جعلته ينظر للطبيعة من منظور آخر أحس فيه بنبض الحياة في الطبيعة التي يراها، فلم يرها الشاعر مجرد أغصان تتمايل بفعل الريح، ولا جدول ماء ارتفع صوت خريره، وإنما رآها طبيعة حية، مفعمة بالحركة والحياة، قادرة على مشاركة

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٣٥٧ .
(٢) ديوان ابن حمديس ص ٢٩١.
(١) ديوان ابن خفاجة ص ١١٩.

الشاعر أفراحه وأحزانه.

إن صورة الحركة شائعة في شعر المائيات الأندلسي، وهذه النمط من التصوير قادر على جعل الطبيعة تفيض بالحياة والحركة، مستغلة خيال الشاعر الواسع، وقدرته على تأمل الطبيعة، واستغلالها في أدق تفاصيلها.

٤. اللون :

إنَّ الصورة اللونية في الشعر العربي تخفي وراءها في الغالب نفسية الشاعر، وفكره، وخلجات نفسه، فعند المرور بأي صورة لونية علينا البحث فيما وراء السطور، والنظر فيما أراد الشاعر أن يخبرنا به بأسلوب غير مباشر. ولقد تعددت الألوان في الطبيعة، لذلك نجدها قد اختلفت مسمياتها، وقد كان العرب لا يصفون الشيء بلونه في الغالب؛ بل يعتمدون بالدرجة الأولى على " عنصر التشبيه، وهو عنصر يستمده من الواقع يضع المشبه في مقابلة المشبه به،. .. قد يرى لحية الرجل حمراء، فيشبهها بالعرفجة ويقول : (كأن لحيته حزام عرفجة). .. وقد تعجبه الناقة الحمراء فيشبهها بعروق [(١)]الأرطاة [(٢)]"، لذلك نجد استغلال الشاعر للبيئة المحيطة به للدلالة على اللون الذي يريده، فإن "العرب حينما يصفون أقمشتهم يستخدمون تعابير تصويرية مشتقة من مفردات تذكرنا بأوراق الزهر، والحجارة الكريمة، ولمعة الحرير، وبريق السماء، فتأتي الصورة لونية ممتزجة بعاطفة الشاعر ،ومما يؤدي إلى تخليصها من الجمود والثبوت.[(١)] "

ولقد تعددت الألون في الشعر العربي "ويأتي في مقدمة الألوان شهرة وعموم انتشار الأسود والأبيض، فهما بداية لونان متضادان، مرتبطان بالليل والنهار، والظلمة والنور، لذلك هما لونان

---

(١) عروق الأرطاة حمرة زاهية في ثرى الرمال الممطورة في الشتاء، تراها إذا انتثرت واستخرجت من الثرى، حمرا ريانة مكتنزة. قاموس الألوان عند العرب ص ١٦٣

(٢) قاموس الألوان عند العرب، عبد الحميد إبراهيم ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٩ م، ص ٤-٥.

(١) الصورة اللونية في شعر ابن سهل الأندلسي، أناهيد عبد الأمير الركابي، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد ٩٧، عام ٢٠٠١ م . ص ٢٩٣.

متداولان في جميع الحضارات ولغاتها. ويلي ذلك مكانة اللون الأحمر، فهو من أوضح الألون لارتباطه بالدم، وعلاقة ذلك بالقرابين والحروب، يليه اللون الأخضر، فهو لون مستقر ثابت لارتباطه بالنبات، والخصب، والماء، والحياة، يليه الأصفر وهو حالة من حالات الحياة، وله انعكاسات نفسية متباينة بين اليبوسة والجفاف والشحوب، إلى حالة الحصاد وجني الثمار ... أما الأزرق فتكمن أهميته بالدرجة الأولى لاقترانه بالسماء(١)". ويختلف استخدام الشعراء للألوان، فمنهم من يستخدم اللون على حقيقته للدلالة على اللون، ومنهم من "يستخدم اللون بدلالات عميقة، وصور فنية مؤثرة (٢)."

للألوان نصيب من الصورة في الشعر الأندلسي، فهذا البحر الذي يحيط بهم قد لونوه بالعديد من الألوان حسب رؤية الشاعر له، فهذا ابن وهبون يصف الخليج بلونه الأزرق المعتاد. يقول فيها :

يَا حُسْنَهَا يَوماً شَهدتُ زِفَافهَا بِنتَ الفَضَاءِ إلَى الخَلِيجِ الأَزْرَقِ(٣).

فهنا الشاعر يتغزل بسفينة من سفن الأسطول التي تمخر مياه الخليج الزرقاء، وربما يقصد المياه البيضاء، "لأن تصوير العرب للألوان يختلف عن التصوير الشائع في أذهان المعاصرين، فالزرقة تعني البياض (١)"، وابن وهبون هنا في مقام غزل وتفاخر بسفن الأسطول، لذلك ناسبه اختيار الألوان الدالة على ذلك بما فيها من دلالة، إلا أن الشعراء تختلف نفسياتهم، وانطباعاتهم عن البحر، فقد يرى بعضهم في البحر الهلاك والموت، فهذا ابن حمديس يقول :

---

(١) ينظر دلالات اللون في شعر نزار قباني، أحمد عبد الله محمد حمدان، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ٢٠٠٨ م، ص ٢٧.

(٢) عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، فوزي خضر، البابطين، الكويت، ٢٠٠٤م، ص ١٩٣.

(٣) نفح الطيب ج ٤ ص ٦٠ .

(١) قاموس الألوان عند العرب ،عبد الحميد إبراهيم، ص ٥.

وأخْضَرٍ حَصَلَتْ نَفسي بِهِ ونَجَتْ   ومَا تفَارقَ منهُ روعَةٌ رُوعِي[1].

وفي موقف آخر يرسم ابن حمديس لوحة قاتمة يغلب عليها السواد والظلمة، يرى السفن الحربية تسوق الموت للأعداء في البحر المظلم. يقول فيها :

فَهِي تَجْلُو عَرَائسَ الموتِ سُوداً   هَوّلَتْ في عُبَابٍ أخْضرَ طَامِ[2].

في هذه الأبيات "الخضرة تعني السواد [3]"، لما يدل عليه من نفسية الشاعر وخوفه من البحر والموت المنتشر بين جنود الأعداء، كقول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب حينما قال:

وأَنَا الأَخْضَرُ مَن يَعرفُني   أَخْضَرُ الجِلْدَةِ مِن بَيْتِ العَرَبْ[4]

"أراد بالخضرة سمرة لونه. والخضراء من الكتائب مثل الجأواء[5] يعلوها سواد الحديد[6]"، كما يقول ابن خفاجة في كتيبة قد اصطكت بحديد الدروع والسيوف، فشبه كثرة الحديد والجنود بالبحر الأخضر . يقول فيها:

ومَقامِ بَأسٍ في الكَريهةِ قُمتُهُ   فَسَبَحتُ في بَحرِ الحَدِيدِ الأخضَرِ[1].

في هذا البيت يدل اللون الأخضر على السواد من كثرة الجنود ، وما يحملونه من دروع وسيوف، وقد ارتبطت هذه الأبيات بمفهوم السواد، وما يحمله معه من دلالات تشاؤمية، تفصح عن ما يضمره الشاعر في نفسه عن البحر، وكرهه لمنظره لما يخبئه لهم بين أمواجه من موت،

(١) ديوان ابن حمديس ص ٣١١ .
(٢) ديوان ابن حمديس، ص ٤٦٨.
(٣) قاموس الألوان عند العرب ،عبد الحميد إبراهيم، ص ٦.
(٤) ديوان الفضل بن عباس اللهبي ،تحقيق مهدي عبد المحسن النجم ،المواهب للطباعة والنشر، بيروت ،لبنان، ط ١، ١٩٩٩ م، ص ١٩.
(٥) كتيبة جأواء بينة الجأى ،وهي التي يعلوها السواد لكثرة الدروع، قاموس الألوان، ص٢٧.
(٦) قاموس الألوان عند العرب ،عبد الحميد إبراهيم، ص ٦٧.
(١) ديوان ابن خفاجة ص ٥٠.

وهلاك، وظلمة.

قد تكون بعض أوصاف الشعراء، وما يطلقونه على البحر من ألوان هي حقيقية بالفعل، فقد تختلف ألوان مياه البحر من مكان إلى آخر حسب طبيعة الأرض التي يستقر عليها، ولقد كانت العرب على دراية ببعض ألوان البحار، فقد ذكر صاحب المستطرف رواية عن ابن عباس – رضي الله عنه – في ألوان البحار، حيث " قيل: إنما سمي البحر الأسود، لأن ماءه في رأى العين كالحبر الأسود، فإن أخذ منه الإنسان في يده شيئاً، رآه أبيضاً صافياً، إلا أنه أمر من الصبر، مالح شديد الملوحة، فإذا صار ذلك الماء في بحر الروم، تراه أخضر كالزنجار(١)، والله تعالى يعلم لأي شيء ذلك، وكذلك يرى في بحر الهند خليج أحمر كالدم، وبحر أصفر كالذهب، وخليج أبيض كاللبن، تتغير هذه الألوان في هذه المواضع، والماء في نفسه أبيض صاف. وقيل: إن تغير الماء بلون الأرض (٢). " قد يكون وصف الشعراء على حقيقته، وقد تكون تلوينهم لمياه البحر حسب حالتهم النفسية، وما يشعرون به تجاهه، فيؤثر ذلك اللون الذي أعطوه للموصوف في نفسية المتلقي، فيشارك الشاعر في مشاعره، وانفعالاته التي يريد منا مشاركته معها.

للأنهار أهمية بالغة في أرض الأندلس، لكونها مصدر من مصادر المياه المتجددة، ودائمة الجريان، لذلك نجد الشعراء قد تأملوا النهر في جميع حالاته، في حال مده وجزره، وفي حال انحسار مائه، ووقفوا على الرياض والبساتين المجاوره له، ومجالس الأنس التي كانت تزين ضفاف الأنهار، وزاروا الأنهار في الصباح، وعند الغروب، وفي المساء، فشاهدوا تغير لون الماء بفعل الطبيعة، فهذا ابن خفاجة يرى الشمس عند الغروب، وهي تغير لون النهر إلى الحمرة. يقول فيها :

وقَدْ ولَّتِ الشَّمسُ مُحتثَّةً إلى الغَربِ تَرنُو بِطَرفٍ كَحِيلِ
كَأَنَّ سَنَاهَا عَلَى نَهرِهِ بَقَايَا نَجِيعٍ بِسَيْفٍ صَقِيلِ (١).

---

(١) الزنجار : صدأ الحديد . المعجم الوسيط .

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، تحقيق محمد خير طعمه الحلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط ٥، ٢٠٠٨ م، ص ٥٣٥.

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٣٧٨.

وهذا ابن عمار يركب زورقه في يوم صحو على نهر قد صفا ما به من ماء كأفق السماء، فلما بزغت عليهم الشمس كست صفحة النهر بلونها، وألبسته ثوب العقيق الأحمر. يقول فيها :

وجَاريةٍ مِثل الهِلال أَلِفتُها عَلى نَهَرٍ مِثل السَّماءِ رقِيقِ
تَجلَّى لنَا الإصْبَاحُ وهُو زُمردٌ فألفَتْ عَليه الشَّمسُ ثَوبَ عَقِيقِ [(١)].

لقد اختار الشاعر ألفاظاً راقية، وعبارات تدل على النعيم الذي هم فيه مرحون، فالنهر بمثابة الزمرد لمعاناً، والعقيق لوناً. وإذا كان ابن خفاجة وابن عمار يشبهان لون النهر بعد امتزاجه بأشعة الشمس بدم القتلى وثوب العقيق، فهذا ابن حمديس يرى النهر عند الغروب بالذهب الأصفر. يقول فيها :

ومَغربٍ طَعنَتُهُ غَيرَ نَابيةٍ أَسِنَّةٌ هي إنْ حَققتهَا شُهبُ
ومَشرقٍ كِيميَاءُالشَّمسِ في يَدهِ فَفضَةُ المَاءِ مِن إلقَائِها ذَهَبُ [(٢)].

لقد أعجب الشاعر بلون النهر الفضي، وزاده جمالاً لما أتت عليه الشمس بأشعتها التي انغمست في مائه كأسنة الرماح، ولم يجد ابن حمديس من المعادن النفيسة ما ينافس الفضة جمالاً إلا الذهب، الذي تحول لون النهر إليه، فكأن الكيمياء قد غيرت ماء النهر وهو في مكانه من الفضة إلى الذهب.

إن الوزير أبو الأصبغ أعجب بلون النهر وهو في أتم زينة، والتفت إلى الطبيعة وما تصنعه في النهر من جمال، لتزيده جمالاً على جماله. يقول فيها :

والنَّهـــــــرُ سَبـــــكٌ لَجِـــــينٌ جَــــــرى فَـــزينَ أرضَــــــهُ [(١)].

يتحدث الشاعر عن روض قد زانه هذا النهر، فكأنه الفضة قد ذوبت لتجري على أرضه،

---

(١) الحلة السيراء، ابن الأبار، ج ٢ ص ١٦٤.

(٢) ديوان ابن حمديس ص ٢٥ .

(١) البديع في وصف الربيع ،أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب الحميرى الإشبيلي ،ص ٥١.

وابن اللبانة يرى النهر بين الرياض، والتفاف الدوح سيف حمائله خضر. يقول فيها :

ومَـــــا هُو نهرٌ أعْشَبَ النّبتِ حَوْلَـــه ولَكِنّهُ سَيـــــفٌ حَمَائلـــــُهُ خُضْـــرُ [(١)].

إنه من شدة الجمال الذي يراه الشاعر في الطبيعة، وبديع صنعها لا يرى ذلك النهر وما حوله من خضرة إلا سيفاً فضياً حمائله خضر. وهذا أحمد بن برد الأصغر يصف رياض الرصافة، ويقف متأملاً لجدولها المنساب، فيشبهه بسنان السهم والرمح التي قد صقلت؛ حتى أصبحت فضيةً تلمع. يقول فيها :

كَأَنَّ الجَدولَ المنْسَابَ نَصْلٌ صَقِيلُ المَتِنِ هُزَّ إلى كِفَاحِ[(٢)].

لقد استطاع الشاعر في هذا البيت أن يرسم لنا صورة بصرية حركية من خلال تصويره لحركة الجدول ولونه، وهذا يوسف بن عبد الصمد يعكس إحساسه بصور الطبيعة الضاحكة المتفائلة بالحياة من لون الفضة، وقد جمع الشاعر بين إعطاء الجدول لون الفضة، وتشبيهه بصفحةالمهند. يقول فيها :

والجَدوَلُ الفِضِّي يَضحَكُ مَاؤُهُ فكَأنَّه في العَينِ صَفحٌ مُهنَدُ[(٣)].

ومن الصور التشبيهية المرتبطة بجمال المرأة ومفاتنها، التي استخدم الشاعر فيها جمال لونها وصفاء جلدها، حينما استعمل ابن عمار مفاتن الحسناء للدلالة على صفاء الماء وجماله. يقول فيها :

رَوضٌ كأنَّ النَّهرَ فِيه مِعْصَمٌ صَافَ أَطَلَّ عَلى رِدَاءٍ أخْضَرَا [(١)].

لقد اعتاد الشعراء على مشاهدة النهر في كل حين، وعلى اختلاف حالاته وألوانه، فهذا ابن

---

(١) ديوان ابن اللبانة ص ٦٥.

(٢) الذخيرة، ج ١ ص ٣٩٩ .

(٣) نفح الطيب، ج ١ ص ٥٣٣.

(١) الذخيرة، ابن بسام، ج ٢، ص ٢٨٩ .

خفاجة يصف النهر بلونه الأزرق المعتاد. يقول فيها :

أَمَا وَالتِفَاتِ الرَّوضِ عَن زرَقِ النَّهرِ وَإِشْرَافِ جَيدِ الغُصْنِ في حِليَةِ الزَّهرِ [١].

وهذا ابن زيدون يتذكر مواضي أيامه بين الرياض والبساتين، فيرسم لوحة فنية ملونة بشتى ألوان الطبيعة المختلفة، بين الجداول الزرق، والحدائق الخضر، والهضاب الحمر . يقول فيها :

حِينَ نَغدُو إلى جَداوِلَ زُرقٍ يَتَغَلغَلنَ فِي حَدَائِقَ خُضْــــــرِ
في هِضابٍ مَجلُوَّةِ الحُسْنِ وَبَوَادٍ مَصقُولَةِ النَبتِ عُفـــــرِ [٢].

وابن خفاجة يصف مجلس أنس في أحضان الطبيعة الفاتنة، وقد تنبه الشاعر فيه إلى دقيق تفاصيل الطبيعة، حيث إن الشاعر رسم لنا منظراً للغروب عقب مطرٍ قد سقى الرياض بقطره، وقد ازدحم السحاب في الأفق، فأمست الأشجار تقطر الندى فضة من أوراقها، وباقي سناء الشمس يودع السماء فكساه صفرة الذهب، وقد حل الظلام على الأرض ليرى كأس الخمر الأشقر ، يسطع نوره على جدول الماء الأشهب[٣] من ظلمة الليل. يقول فيها :

وَجِزعٌ بِأَندَاءِ الغَمَامِ مُفَضَّضٌ وَذَيلٌ عَلَيهِ لِلعَشِيِّ مُذَهَّبُ
وَقَدْ جَالَ مِن كَأسِ السُلافَةِ أَشْقَرٌ يُسَابِقُهُ مِن جَدوَلِ المَاءِ أَشهَبُ[١].

وهذا المعتصم بن صمادح يصف لون الخمر في وسط الماء، فقد شبهه الشاعر بنار ابراهيم – عليه السلام – في اللون والبرد. يقول فيها :

أدَرْنَا بِها كَأسَاً كأنَّ حَبابَها حَبابُ سَقِيط الطَّلّ في وَرَق الوّردِ

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٢٣ .
(٢) ديوان ابن زيدون ص ١٢٥.
(٣) الأشهب : لون بياض، يصدعه سواد من خلاله، قاموس الألوان .
(١) ديوان ابن خفاجة ص ٣٠١.

لَهَا في غَدِير المَاءِ لَألآءُ جَمْرَةٍ حَكَتْ نَارَ إبراهِيمَ في اللَونِ والبْرَدِ [1].

الشاعر في بنائه للصورة نقل لنا مدى قدرته على الربط والاستحضار، فقد وظف الشاعر هنا نار إبراهيم –عليه السلام – في قوله تعالى (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾) [2]. فقد جاء بها الشاعر في طاقة إبداعية جديدة، فلم يجعل النار للحر والبرد، وإنما جعلها كذلك للون، فاللون لون النار، والبرد برد نار إبراهيم - عليه السلام -. وهذا ابن حمديس يصف لنا أزهار النيلوفر على بركة ماء، ويعطيها ألوانها مباشرة (محمرة النوار خضراء)، ثم بعد ذلك يؤكد عليها بالوصف فيشبهها بـ(ألسنة النار) في حمرتها. يقول فيها :

اشْرَبْ عَلى بِركَةِ نَيْلُوْفَرٍ مُحْمرّةِ النّوارِ خَضْرَاءِ
كَأنَّما أزْهَارُها أخْرَجتْ ألسِنةِ النَّارِ من المَاءِ[3].

وهذا ابن خفاجة المفتون بالطبيعة يتغزل بوردة حمراء، قد كساها المطر درر الندى، فزادها نضارة إلى نضارتها، فكأن الماء ينزل عليها فضة، وإذا جمد على أوراقها كان كالذهب جمالاً. يقول فيها :

ومَائِسَةٍ تُزهَى، وقَد خَلَعَ الحَياَ عليها، حُلى حُمرَاً، وأردِيةً خُضرَا
يذوبُ لها ريقُ الغَمامةِ فِضّةً ويَجمُدُ، في أعطَافِها، ذَهَباً نَضرَا [1].

نستطيع أن نلمح في هذه الأبيات مدى تأثر الشاعر بواقعه المحب للنساء، وافتتانه وتفاعله مع الطبيعة، فهو يرى في هذا الوردة صورة المرأة الجميلة التي تتبختر بحسنها. وفي موقف آخر يرى ابن خفاجة الطبيعة بعينه المفتونة بجمالها، فيرى الندى على الأشجار درر،والأزهار بقطع الدراهم

---

(١) المطرب، ابن دحية ،ص ٣٦.
(٢) سورة الأنبياء آية ٦٩ .
(٣) ديوان ابن حمديس ص ٥.
(١) ديوان ابن خفاجة ص ٦٩.

المنثورة على البساط الأخضر، فكأن الطبيعة في عرس قد كساها البياض واللمعان. يقول فيها :

نَثَرَت بِحِجرِ الأَرضِ فيهِ يَدُ الصِّبا　　دُرَرَ النَّدى وَدَراهِمَ النُوّارِ [(١)].

كثيراً ما كان الشعراء يشبهون جمال الطبيعة بالبياض؛ لما له من دلالات على "الإشراق والإضاءة [(٢)]"والصفاء، والنقاء، والطهر . وكما أعطت العرب دلالات اللون الأبيض، فإنها أعطت كذلك دلالات للون الأسود، فهو يدل على العداوة [(٣)]،والحقد، والكراهية، وسوء العاقبة، وغيرها من المعان الآخرى التي تدل على السيادة والكثرة، و هذا أحمد بن محمد ابن الأبار -أحد شعراء المعتضد- يصف سفن الأسطول الأندلسي بطائر الغراب، لما هي عليه من سواد، بسبب طليها بالقار. يقول فيها :

تُطَيرهَا الرِيّحُ غِربَاناً بأجنِحَةِ الـ　　حَمَائِمِ البِيضِ للأَشرَاكِ تَرزؤُهُ [(٤)].

لقد استخدم الشاعر الغربان السود لوصف لون السفينة، واستخدم الغربان لما لها من دلالة شؤم في نفوس العرب، فأرادها الشاعر أن تكون فألاً سيئاً، وعارض سوء للأعداء. وهذا ابن الحداد يشبه السفينة بالغربان في لونها الأسود، أما غير ذلك فهي كالشواهين بأفعالها، يقول فيها:

طَارَتْ بَنَاتُ المَاءِ فِيهِ وَرِيشُهَـــــــــا　　رِيشُ الغُـرَابِ وغَـيرُ ذَلكَ شَـــــوذَقُ [(١)(٢)].

لقد استطاع الشاعر أن يخلق واقعاً جديداً بصورته المرئية، المشتقة من الواقع، والممزوجة بالخيال، فقد أعطى الشاعر الصورة شكلاً جديداً، يفوق الواقع الحاضر شكلاً، وجمالاً، وتأثيراً.

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣٦.

(٢) اللغة واللون، أحمد مختار عمر، عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط ٢، ١٩٩٧م، ص٤١.

(٣) المعجم الوسيط مادة سود

(٤) نفح الطيب، ج٤ ص ٥٨.

(١) الشوذق : الصقر أو الشاهين، معجم تاج العروس مادة شذق.

(٢) ديوان ابن اللبانة ص ١٠١ .

الخاتمة

في ختام هذا البحث أجد أنه من الواجب عليَّ أن ألخص أهم ما توصلت إليه من نتائج من خلال هذه الدراسة.

لقد حاول هذا البحث أن يترجم نظرة شعراء عصر ملوك الطوائف في الأندلس للمائيات، وعن مدى استغلال الأدباء لتلك الطبيعة المائية في الأندلس، فقد جال البحث جولة واسعة، امتدت إلى الشعر العربي بجميع عصوره عموماً، والشعر الأندلسي بصفة خاصة، ليقف مع القارئ على أبرز النتائج التي توصل إليها هذا البحث.

فبعد تجوال هذا البحث في أشعار طبيعة الأندلس المائية الطبيعية والصناعية، لفت انتباهنا أن شعراء الأندلس قد أطالوا الوصف، والحديث عن بعض عناصر المائيات، مثل: البحر، والنهر، والسحاب، والمطر ... وأوجزوا في بعض العناصر الأخرى، كحديثهم عن السيل، والثلج، والبرد ... فجاء ذكرهم لها في معرض حديثهم عن المدح، والفخر، والرثاء.

لم يكتف شعراء الأندلس بربط الطبيعة بالجمال، ومجالس الخمر، وإنما استطاعوا أن يحولوا مفهوم الطبيعة الضاحكة المبهجة بأسلوبهم الخاص، إلى طبيعة عابسة متجهمة، فقد شاركوها مشاركة وجدانية بانفعالاتهم وعواطفهم، فجعلوها ترثي موتاهم، وتبكي لفراق أحبتهم، ويظهر الحزن على معالم الطبيعة لمفارقتهم، فما شذى الطائر إلا نياح، وما جري النهر إلا بكاء، وما خرير الماء إلا أنين. ... ولم يكن استدعاء الشاعر لهذه الطبيعة العابسة بهذه الصور إلا بدافع حالة نفسية كان يمر بها الشاعر، ولم يكن جميع الشعراء على علاقة جيدة مع الطبيعة المائية،فبعضهم كان يخاف أهوالها، ويهاب ظلمتها، فتدفعه تلك المخاوف إلى أن ينظر لها بعينه المتشائمة، على عكس بعض الشعراء الذين يرون في الطبيعة ملجأ لهم عن كدر الحياة. وشاعت في قصائدهم

البهجة والمرح.

لقد وقف شعراء الأندلس على عناصر المائيات المختلفة، فأفردوا لبعضها قصائد مستقلة في وصفها، والحديث عنها، في حين جاء الغالب في حديثهم عن عناصر المائيات المختلفة على شكل مقطعات، أو أبيات متضمنة قصائد المدح، والرثاء، والفخر.

لم يكن حضور الماء في بعض قصائدهم كمصدر من مصادر المياه، أو كمادة أساسية من الصورة، وإنما جاءت صور المائيات في بعض الأحيان، كمادة الصورة الأساسية في التشبيه، بحيث تصبح عناصر المائيات المشبه به لا المشبه.

لقد وجد شعراء الأندلس في الطبيعة من حولهم عناصر جذب وتشويق، فحاولوا ربط الطبيعة بمفاتن المرأة التي سحرتهم، فكلاهما قد فتن الشعراء بالحديث عنها، ووصفها، والتغزل بجمالها، فالمرأة كانت وما زالت تمثل قيمة جمالية، فضلاً عن كونها معنى سامياً من معاني الارتباط الروحي في حياة الإنسان العربي، لذلك كان الشعراء إذا أرادوا أن يعلوا من شأن الطبيعة، ويرفعوا من قدرها، ويعبروا عن إعجابهم بها، وعشقهم لمحاسنها شبهوها بالمرأة، فخيال الشعراء قادر على مزج العناصر المتباعدة في أصلها، كي تصبح مجموعةً متآلفةً منسجمةً، إذا أسبغ عليها الشاعر المبدع مع خياله، وشعوره، وتصويره، فيمزجها مع عواطفه؛ ليستطيع من خلالها أن ينفذ إلى معان جمالية، يودعها عالم الشعر.

لقد استمد الشعراء صورهم من الطبيعة التي تحيط بهم، فالطبيعة أساس لصورهم وتشبيهاتهم، فيستعيرون عذوبة النهر لحلو الريق، ورقة الأغصان وتثنيها للجمال الأجساد، والأزهار للخدود الزاهية، والبرد للأسنان ... وقد جاء وصفهم للجمال وصفاً حسياً قائماً على مفاتن الحسان الجسدية.

لقد ورد في أشعارهم ذكر بعض أنواع الأشجار التي لا تنبت في الأندلس، وإنما توجد في

جزيرة العرب، وما هذا إلا امتثال للتقاليد الكلاسيكية المتوارثة في المخزون الثقافي لدى الشاعر الأندلسي. أما ذكرهم لبعض الأماكن والديار كنجد والقاع، فقد جاء ذكرهم لها من باب الخيال لا الحقيقة، فاتخذوها رموزاً للإيماء لمنازل يهواها، وأشخاص يولهم ثقته وحبه.

ولقد ناقشنا من خلال دراستنا لهذا البحث ما جاء به جودت الركابي، والمستشرقين الأسبان (إميليو جارثيا)، و(آنخل جنثالث بالنثيا) من أن الشعر الأندلسي كان فقيراً من الناحية العاطفية، فيما خلا فلتات قليلة. فلم يصدر هذا الشعر - كما يرون - عن فيض العاطفة الصادقة إلا في النادر، والغالب عليه تكرار صور بعينها في الوصف أو المديح، ولكن إذا خلا الشعر من الخيال، والعاطفة، والتصوير لا يمكن أن نعد ذلك شعراً، وإنما كلام منظوم على وزن وقافية، قد سلبت منه أهم خصائصه الشعرية، فما الشعر إلا تصوير لخلجات النفس والوجدان، وما تحتفظ به الذاكرة من تجارب إنسانية ومعارف.

من خلال حديثهم عن الطبيعة استبدل شعراء الأندلس في بعض مقدماتهم الوقوف على الأطلال، والدمن، والديار الخربة، وصورتها الكئيبة، فوقفوا على صور الطبيعة المبهجة، وتغنوا بمجالس الأنس، وما فيها من خمر، وسقاة، وجوار، وغلمان جعلت في الكثير من القصائد مقدمة للولوج إلى الغرض المقصود، ممزوجة بالطبيعة الأندلسية المرحة من حولهم.

وما هذا إلا استجابة لطبيعة الحياة، وتماشياً على معطياتها، وذلك لانغماسهم في الملذات، وتبعاً للتراث العربي، فقد ظل التراث العربي يتغلغل في وجدان الشعراء، وفكرهم، ومشاعرهم ...، فقد عارض شعراء الأندلس المشارقة، وقلدوهم في بعض صورهم وتشبيهاتهم، وتلقبوا بألقابهم كبحتري الأندلس، ومتنبي الأندلس، وعنترة الأندلس. ..، فشعراء مثل هؤلاء الشعراء المشارقة لهم شهرتهم وصيتهم، لا بد أن يكون لهم تأثير في غيرهم، سواء من المشارقة، أو الأندلسيين، وليس ببدعٍ أن يخضع الشعر الأندلسي لبعض المؤثرات المشرقية، فاللغة واحدة، والمنبع واحد، وهو الشعر الجاهلي، وذلك التأثير لا يجعلهم ينصهرون داخل النماذج المشرقية، وتُغيب شخصياتهم، وتطغى

على أسلوبهم، وإنما كان لهم طابعهم الخاص، ارتبط بذواتهم، واستغلالهم للعوامل البيئية من حولهم، فتحرر ساكنيها ساعدهم على إنتاج شعر مطبوع بالصبغة الأندلسية، التي تميزه عن غيره، وذلك التأثر بالشعر المشرقي لا ينكر التجديدات التي جاء بها شعراء الأندلس.

لقد أسهمت الطبيعة، وحياة الترف التي كان يعيشها الشعراء في بروز ظاهرة شرب الخمر، فقد توثقت الصلة عند بعض الشعراء بين الطبيعة والخمر، فيرون أن كل ما في هذا الطبيعة يحض على شرب الخمر .

إنه من خلال استقرائنا لدواوين الشعر في تلك الحقبة، لفت انتباهنا حب ملوك الطوائف للعمارة، ومحاولة تزيين مدنهم، وقصورهم بكل وسائل الرفاهية المتاحة في تلك الفترة، مع استغلالهم لعناصر الطبيعة المختلفة للمشاركة في تزيينها، فحفروا القنوات، ومدوا الجسور، وبنوا البرك، لكي يهنأوا بمياه عذبة صافية، تشاركهم جمال قصورهم، فشقت تلك المياه رياضهم، وسقت بساتينهم، وتناثرت المياه من نوافيرهم، لتملأ بركهم، وتشاركهم فرحتهم، وأنسهم.

من النادر أن نجد ألفاظاً صعبة، ومعان غامضة في أشعارهم عن المائيات، فقد جاءت ألفاظهم سهلة، ومعانيهم واضحة دقيقة، وما ذلك إلا من سهولة طباعهم، ولين أخلاقهم، وإرسالهم القول من غير تكلف ولا تصنع، فجاء أكثره جارياً مع الطبع، وأما ما يميز معانيهم، فإننا نجد معاني الشعر الأندلسي واضحة جلية، بعيدة عن تعمق الفلاسفة، وتدقيق الحكماء؛ لقلة المشتغلين منهم بالحكمة، وبغض العامة لها، وغلب على الشعر الأندلسي الخيال، والبديع.

كما حاول هذا البحث أن يثبت أن للطبيعة المائية في الأندلس أثراً بارزاً في توجيه الشعراء في تلك الفترة، حتى جعل التغني بجمال الطبيعة مقدمة للولوج في قصائدهم، فالأغراض الشعرية اتصلت اتصالاً وثيقاً بوصف الطبيعة الأندلسية؛ حتى أصبح وصف الطبيعة وعاءً للشعر العربي في الأندلس، فقد جعلوا من جمال طبيعتهم، وما يحبون منها صفات لمن أرادوا مدحه، والتغزل بدماثة

أخلاقه، فطغت أوصاف الطبيعة على الكثير من أغراض شعرهم كالغزل، والمدح. ..،في حين تضيق الدائرة على بعض الأغراض كالهجاء، والحكمة. ...

ومن خلال استقرائنا - أيضاً - للدواوين الأندلسية في تلك الحقبة، لفت انتباهنا أن ألفاظ القحط، والجدب، وقلة الأمطار، تكاد تكون معدومة في دواوينهم، ولعل هذا من الأمور البديهية، ولا سيما أن الأندلس تحظى بكثرة الأمطار ،ومنابع للمياه، تجعل أرضها خصبة.

لقد كانت بداية وصف الرحلة النهرية في المشرق لا تتجاوز كونها وصفاً للنوق، وحياة الصحراء، حتى يظن البعض أن القصيدة التي قيلت في وصف رحلة نهرية، أنها في وصف رحلة صحراوية قديمة، وتطور هذا الوصف حتى أخذوا بالتخفف من المعجم القديم، ومن وصف الرحلة الصحراوية القديمة، إلى أن وصل في الشعر الأندلسي إلى مرحلة النضج، وتخلص الشعراء من ربط السفينة بالناقة، والحياة الصحراوية، وانتقل الوصف إلى وصف المركب، وتأمل مناظر الجمال الخلابة، والإعجاب بالطبيعة، والأجواء المصاحبه لها، وذكر الملاح، والريح التي تسير بهم. ..وغيرها من عناصر الطبيعة المصاحبه لهم في رحلتهم.

كما تنوع حال الوداع مع تطور حركة النقل في الأندلس، وتنوعها في ذلك العصر، فبعد أن كان العرب يودعون أحبتهم على ظهور النوق، ومن وراء الهوادج، والقافلة تبدأ بالمسير، وتختفي بين رمال الصحراء،فيبكي الحبيب حبيبه، والصاحب يتحرق شوقاً على صاحبه، أخذوا في الأندلس يبكون أحبتهم وهم على ظهور السفن، عندما تغادر بهم المرافئ، وتبحر بهم في عرض البحر.

لم يخرج شعراء الأندلس في أوصافهم للسفن الحربية والأساطيل إلى المعجم القديم، والمصطلحات الصحراوية، فلم يعقدوا مقارنة بين السفينة والناقة على غرار شعراء المشرق، وقد انتبه شعراء الأندلس إلى اختلاف أشكال السفن والزوارق، فذكروها في أشعارهم بجميع أنواعها السلمية والحربية، إذ ذكروا أنوع السفن، وألونها، وأشرعتها، والريح المحركة لها، وسرعة السفينة

وطيرانها على الماء، ولم يذهبوا بأوصافهم بعيداً على نحو ما ذهب إليه المشارقة، الذين يحاولون في الغالب أن يربطوا بين السفينة وأوصاف الناقة.

إن بعض الصور التي يقدمها الشعراء في وصف الطبيعة، كانت ضمن إطار الصورة الوصفية للمناظر الطبيعية، ومرآة عاكسة لجمال الطبيعة في نظرهم، وما احتلته الطبيعة من مكانة في نفوسهم، في حين جاءت بعض الصور في أبعاد جديد، تدخل حيز البوح بما في النفس، والتأمل في المستقبل، والحنين إلى الماضي.

لقد جال الفصل الثاني من هذا البحث في دراسة الصورة في شعر المائيات، إذ استهل الفصل بالتعريف بمفهوم الصورة، وأهميتها، وذكر أول النصوص التي تحفظها لنا كتب الأدب والنقد عن الصور، والتعرف على مدى أهمية الصورة في النقد العربي الحديث، إلى أن وصلنا إلى مصادر الصورة في شعر المائيات الأندلسي، وحاولنا أن نثبت فيه أهمية الطبيعة المائية في الصورة الأندلسية، باعتبارها ركيزة من ركائز الإلهام في جمال الصورة، وقدرة الخيال على الإبداع، باعتباره عنصراً رئيساً في تكوين الصورة، فللخيال القدرة على مزج العناصر المختلفة، ويخلق لدى الأديب القدرة على استعادة الصور، وإثارتها في ذهنه من جديد، ورسمها بشكل آخر.

وانتهى بنا المطاف عند أنواع الصورة في شعر المائيات، وكان النوع الأول يتمحور حول التجسيد، وقدرته على تحويل المجردات الذهنية إلى مدركات حسية، والنوع الثاني في التشخيص، وأثره في استنطاق الجمادات، والتفاعل مع عناصر الطبيعة المختلفة، وقد بدا عند الشعراء أنهم يتخذون من الطبيعة الصاحب الذي يبثون إليه أحزانهم، فيحاول الشعراء الارتباط بالطبيعة التي يتفاعلون معها في الحياة، فيجعلونها تشاطرهم همومهم وأفراحهم، لتظلم الشمس، ويخسف القمر، وتبكي السماء ،ويضحك الربيع، وتغني الطيور. ...، وقد جاء النوع الثالث من أنواع الصورة في الحركة، إذ من دونها يخفق الشاعر في رسم أحداث متعاقبة متتالية، فالحركة تجعل العمل الأدبي نابضاً بالحياة، مفعماً بالحيوية، قادراً على استيعاب ما يتطلع إليه الشاعر، فتفسح المجال

للمتلقي لكي يقوم بربط تلك الصور المتحركة في خياله، ليتكون في ذهنه مشهداً كاملاً قادراً على الحركة والحياة كما يريده الشاعر، وجاء النوع الرابع من أنواع الصورة في اللون، فالصورة اللونية في الشعر العربي تخفي وراءها- في الغالب- نفسية الشاعر، وفكره، وخلجات نفسه، فالصورة قادرة على نقل ما تعجز عنه اللغة.

وأخيراً، أرجو أن تكون هذه الدراسة قد وفقت لرسم صورة واضحة لما كانت عليه المائيات في الشعر العربي في الأندلس بشقيها الطبيعي والصناعي، والكشف عن مدى تعلق الشعراء بطبيعتهم واستغلالهم لها.

وآخر دعوانا أنْ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ...

الباحث

المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم.
- آزاد محمد الباجلاني، المجالس الشعرية في الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
- آمنة بن منصور، المعتمد بن عباد شاعر المجد والانكسار، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان –الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٣ م.
- إبراهيم عبد القادر المازني، حصاد الهشيم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.
- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان –الأردن، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.
- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، دار الثقافة، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٨٥م.
- إحسان عباس، فن الشعر، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان –الأردن، الطبعة الخامسة، ١٩٩٢م.
- أحمد الإسكندري، أحمد أمين، علي الجارم، عبد العزيز البشري، أحمد ضيف، المفصل في تاريخ الأدب العربي في العصور القديمة والوسيطة والحديثة، تقديم: حسان حلاق، دار إحياء العلوم، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤ م.
- أحمد المراكشي، المعجب في تتلخيص أخبار المغرب (من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين)، تحقيق : محمد سعيد العريان،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث، القاهرة.
- أحمد بسام ساعي، الصورة بين البلاغة والنقد، المنار للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى.

- أحمد بن المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت –لبنان، الطبعة السادسة، ٢٠١٢م.
- أحمد بن علي ناصر الشرفي، البحر في الشعر السعودي المعاصر، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩ م.
- أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة _ تونس، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م.
- أحمد مختار عمر، اللغة واللون، عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، الطبعة الثانية، ١٩٩٧ م.
- أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار المعارف، القاهرة - مصر، الطبعة الثانية عشرة، ١٩٩٧م.
- أبو إسحاق الإلبيري الأندلسي(ديوان) ، تحقيق : محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق – سورية، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
- إسماعيل بن حمد الجوهري، معجم الصحاح، اعتنى به : خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.
- امرؤ القيس (ديوان) ، شرح : أبي سعيد السكري، تحقيق : أنور عليان أبو سويلم، محمد علي الشوابكة، مركز زايد للتراث والتحقيق، العين – الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ م.
- أمل محسن العميري، المكان في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ٢٠١٢ م.
- إيليا سليم الحاوي ،نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م،
- بشار بن برد (ديوان) ، تحقيق : محمد الطاهر ابن عاشور، راجعه وصححه : محمد شوقي أمين،

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦ م.

- أبو تمام بشرح الخطيب التبريزي(ديوان) ، تحقيق : محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.
- جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت –لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م.
- جودت الركابي، في الأدب الأندلسي.
- أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- أبو الحسن علي بن سعيد المغربي، رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- حسين عطوان ،وصف البحر والنهر في الشعر العربي من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي الثاني، دار الجيل، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٢ م.
- ابن حمديس (٤٤٧ هـ– ٥٢٧هـ) الديوان، صححه وقدم له: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- ابن خفاجة الديوان، تحقيق: سيد غازي، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، الطبعة الثانية.
- خليل إبراهيم السامرائي، و عبد الواحد ذنون طه، وناطق صالح مطلوب، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ م.
- ابن دحية أبو الخطاب عمر بن حسن، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، وأحمد أحمد بدوي، دار العلم للجميع للطباعة والنشر، بيروت – لبنان.
- ديزيره سقّال، من الصورة إلى الفضاء الشعري العلائق، الذاكرة، المعجم والدليل (قراءات بنيوية)، دار الفكر اللبناني، بيروت –لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

- رفعت التهامي عبد البر، شعر الطبيعة بين المشارقة والأندلسيين عرض وتحليل ونقد وموازنة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢ م.
- ديوان ابن زيدون، تحقيق : درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
- السيد عبد العزيز سالم، و أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ١٩٦٩ م.
- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة - مصر، الطبعة السادسة عشرة، ٢٠٠٢ م.
- سيد نوفل، شعر الطبيعة في الأدب العربي، مطابع مصر، القاهرة، ١٩٤٥ م.
- شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: محمد خير طعمه الحلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٨ م.
- ابن شهيد الأندلسي (ديوان) ، تحقيق: يعقوب زكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، مصر، القاهرة.
- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة العاشرة.
- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات (الأندلس)، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- صالح ويس، الصورة اللونية في الشعر الأندلسي، مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٣ م.
- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ م.
- الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصرية، القاهرة، دار الكتاب اللبنانية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩ م.

- طاهر سيف غالب، الروضيات في الشعر الأندلسي في القرنين الرابع والخامس الهجري، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمّان – الأردن، ٢٠١٤ م.
- عاطف جودة نصر، الخيال مفهوماته ووظائفه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٨٤ م.
- أبو عباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (٦٠٨-٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م .
- عباس محمود العقاد، ابن الرومي حياته من شعره، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة –مصر، الطبعة الأولى، ٢٠١٢ م.
- عبد الحميد إبراهيم، قاموس الألوان عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٩م.
- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، اعتنى بالكتاب : مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة، دمشق سوريا، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.
- عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار القلم، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.
- عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت -لبنان.
- عبد الله بن علي بن ثقفان، المقومات الفنية في القصيدة الأندلسية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ٢٠٠١م.
- أبو عبد الله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي، تحفة القادم، تعليق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامية، بيروت –لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
- أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق : إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت – لبنان.
- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق:

حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة - مصر، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.
- أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق : بشار عواد معروف، ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٦٥م.
- عدنان صالح مصطفى، في الشعر الأندلسي، دار الثقافة، الدوحة – قطر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- ابن عذارى المراكشي ،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق. ج. س. كولان، و ليفي بروفنسال، دار الثقافة بيروت، لبنان، ط ٣، ١٩٨٣م.
- علي أدهم، المعتمد بن عباد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة النشر، مصر .
- علي بن ظافر الأزدي المصري، غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، تحقيق : محمد زغلول سلام، مصطفى الصاوي الجويني، دار المعارف، مصر.
- علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الغرناطي الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، حاشية خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- علي علي صبح، البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ١٩٩٦م.
- علي محمد سلامة، الأدب العربي في الأندلس تطوره، موضوعاته وأشهر أعلامه، الدار العربية للموسوعات، بيروت –لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

- عمر الدقاق، ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق العربي، بيروت - لبنان.
- عمر بن قنينة، في نظرية الأدب، مكتبة الشقرى، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- عواطف محمد صالح بن محمد بكر الصواف، شعر ابن اللبانة الداني، دراسة وصفية تحليلية، دار المحمدي، جدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- الفضل بن عباس اللهبي(ديوان) ، تحقيق: مهدي عبد المحسن النجم، المواهب للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ م.
- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٤م.
- فوزي خضر، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ٢٠٠٤م.
- أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك، دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق جودة الركابي، دمشق، ١٩٤٩م.
- ابن اللبانة الداني (ديوان) ،جمع وتحقيق: محمد المجيد السعيد، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م.
- لسان الدين بن الخطيب، الأحاطة في أخبار غرناطة، تحقق: محمد عبد الله عنان، الشركة المصرية للطباعة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.
- لسان الدين بن الخطيب، جيش التوشيح، تحقيق: هلال ناجي، مطبعة المنار، تونس.
- لمياء عبد الحميد القاضي، مرجعية الصورة في شعر الطبيعة في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (نحو اعتماد المرجعية أساساً نقدياً)، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.
- المتنبي (ديوان)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ١٩٨٣ م.

- مجدي وهبة ،وكمال المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت –لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.
- محمد رضوان الداية، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.
- محمد سعيد محمد، ابن شهيد الأندلسي أديباً وناقداً، منشورات جامعة سبها، ١٩٩٨م.
- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، الطبعة الثانية ، ١٩٧٣م.
- محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب الأندلسي التطور والتجديد، دار الجيل، بيرون، لبنان، الطبعة الأولى، عام ١٩٩٢م.
- محمد عبد المنعم خفاجي، قصة الأدب في الأندلس، مطبعة العهد الجديد، مصر، ١٩٥٦م.
- محمد علي ذيب، الصورة الفنية في شعر الشماخ، وزارة الثقافة، عمان –الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة السابعة، ٢٠٠٧م.
- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية عشر، ٢٠٠٨م.
- المعتمد بن عباد ملك إشبيلية(ديوان) ، جمع وتحقيق : حامد عبد المجيد، و أحمد أحمد بدوي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠ م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، الطبعة الخامسة، ٢٠١١م.
- أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق : مفيد محمد حقة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

- نافع محمود، اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
- أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي الشهير بابن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق: حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.
- أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي الشهير بابن خاقان ،مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ،دراسة وتحقيق :محمد علي شوابكة ،دار الرسالة ،بيروت، الطبعة الأولى ،١٩٨٣ م .
- الوأواء الدمشقي (ديوان) ،محمد بن أحمد الغساني، تحقيق: سامي الدهان، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣ م.
- أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب الحميري الإشبيلي، البديع في وصف الربيع، تحقيق: عبد الله عبد الرحيم عسيلان، دار المدني، جدة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- الولي محمد، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
- يحيى بن حكم الغزال (ديوان)، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر بيروت -لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣ م.
- يوسف م. عيد، الحواسية في الأشعار الأندلسية، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس – لبنان، ٢٠٠٢م.
-

المراجع المترجمة :

١. آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، مصر .

٢. إميليو جارثيا جوميث، الشعر الأندلسي (بحث في تطوره وخصائصه)، ترجمة : حسين مؤنس، دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٨ م.
٣. ميخائيل أمارى، المكتبة العربية الصقلية، دار صادر، بيروت، ١٨٥٨م.

الرسائل العلمية :

١. أحمد عبد الله محمد حمدان، دلالات اللون في شعر نزار قباني، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ٢٠٠٨م.
٢. بومدين كروم، الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي، جامعة دمشق، دمشق، ١٩٨٣م.
٣. جميلة شحادة الخوري، الطبيعة في الشعر الأندلسي، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٤٦م.
٤. عبد اللطيف شنوشول دكمان، مصادر الصورة الشعرية في رائية العجاج، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد ٢٦، عام ٢٠١٢م .
٥. عواطف محمد الصواف، شعر ابن اللبانة –دراسة وصفية تحليلية -، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩٧م.
٦. محمد كمال سليمان حمادة، الخطاب الشعري عند ابن حمديس الصقلي، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠١٢م.

الدوريات :

١. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨ م، شعر الطبيعة في الأندلس وظهور ابن خفاجة، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، سلمى الخضراء الجيوسي.
٢. مجلة الفتح، جامعة ديالي، العراق، العدد ٢٩، ٢٠٠٧ م، التجسيد في الدرس البلاغي والنقدي عند العرب، فاضل عبود التميمي.

٣. مجلة جامعة دمشق، دمشق –سوريا، العدد ٢، المجلد ٢٨، ٢٠١٢ م، الصورة الشعرية عند المعتمد بن عباد، حسناء أقدح.

٤. مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد ٩٧، عام ٢٠٠١ م، الصورة اللونية في شعر ابن سهل الأندلسي، أناهيد عبد الأمير الركابي.

الفهــرس